الباب الثالث

صفات الأنبياء ومكانتها من سيد الأصفياء

الفصل الأول: الصدق

الصدق هو محور النبوة، ومدار ارتكازها؛ فكل ما تلفّظه الأنبياء صدقٌ خالص، ولا يمكن أن يجافي الواقع أو الحقيقة. وعندما يشرح القرآن الكريم فضائل الأنبياء يشير إلى هذه الصفة عندهم:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ (مريم:٤١). أي اذكر في القرآن الذي هو مستنسخ اللوح المحفوظ ومبين حقيقته الثابتة أو في اللوح المحفوظ بأن إبراهيم كان نبيًّا صفته الصدق التامّ في القول والسلوك.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ (مريم:٥٤). ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً ۞ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ (مريم:٥٦-٥٧).

ويوسف عليه السلام... نرى رفقاءه في السجن يخاطبونه فيقولون: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ (يوسف:٤٦).

وكيف لا يكونون مجهَّزين بالصدق والله تعالى يخاطب عامة المؤمنين ويطلب منهم أن يكونوا صادقين:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة:١١٩). كما يبين أن المؤمنين المجاهدين في سبيل الله هم الصادقون فيقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ اٰمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات:١٥).

والقرآن يثني على الصادقين: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب:٢٣).

ولنستروح في ظلال أفنان هذه الآية قليلا ثم نتابع المسير:

كان أنس بن مالك خادما للرسول ﷺ وذلك حينما أخذت أمه بيده وهو إذ ذاك في

العاشرة من عمره إلى رسول الله ليخدمه قائلة: "يا رسول الله! خادمك أنس." وتركت ابنها وذهبت.[١] يقول أنس بن مالك: "إن هذه الآية نزلت في عمي أنس بن النضر وأمثاله."

عندما رأى أنس بن النضر رسول الله في بيعة العَقَبة أحبّه وتعلّق به. ولكنه لم يستطع لأسباب عدّةٍ الاشتراكَ في معركة بدر. ولمعركة بدر مكانة خاصة ومتميزة، حتى الذين اشتركوا فيها لهم مكانة خاصة بين أصحاب رسول الله ﷺ. بل إن من اشترك فيها من الملائكة لهم مكانة خاصة بين سائر الملائكة كما حدث بهذا جبريل عليه السلام الذي كان على رأس الملائكة يوم بدر.[٢]

قال أنس رضي الله عنه عمي الذي سُمّيتُ به لم يشهد مع رسول الله ﷺ بدراً، فشَقّ عليه. قال: أوّلُ مشهَدٍ شهده رسول الله ﷺ غُيّبتُ عنه، وإن أراني الله مشهداً فيما بعدُ مع رسول الله ﷺ لَيراني الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرَها. قال: فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أُحد. قال: فاستقبل سعد بن معاذ. فقال له أنس: واهاً لريح الجنة أَجِده دون أحد. قال: فقاتلهم حتى قتل.[٣]

وعندما تتداعى ذكريات معركة أُحد لا نستطيع أن ندفع الإحساس بهذه الغصة التي تنشب في حلوقنا... فهي المعركة التي استشهد فيها سبعون صحابيّاً. ومن يدري فقد يكون هذا هو السبب الذي قال من أجله النبي ﷺ وهو يمر من أمام جبل أُحد: «أُحد جبل يحبنا ونحبه.»[٤] لكي لا نَحمِل أي ضغينة تجاهه.

أُحد جبل صعب المرتقى... ولكن معركة أُحد كانت أصعب... فقد ترك بعض الصحابة مواضعهم المستحكمة التي عيّنها لهم النبي ﷺ مدة وجيزة... كان هذا مجرد تغيير استراتيجي، لذا لا يمكن إطلاق كلمة "الهزيمة" عليه... فتوقيرنا للصحابة وزاوية نظرتنا إليهم تستلزم هذا.

في هذه المعركة جُرح رسول الله ﷺ وانكسرت سنه، ودخلت حلقتا المِغفر في وجهه الشريف فأدماه، ومع ذلك فلأنه رسول الله ﷺ ولأنه أرسل رحمة للعالمين فإنه فتح ذراعيه مبتهلا إلى الله تعالى «اللّٰهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.»[٥]

وفي هذه المعركة كان أنس بن النضر يصول ويجول هنا وهناك يحاول أن يبر بوعده

---

[١] مسلم، فضائل الصحابة ١٤١.

[٢] البخاري، المغازي ١١؛ ابن ماجه، المقدمة، ١١.

[٣] مسلم، الإمارة ١٤٨.

[٤] البخاري، الزكاة ٥٤؛ مسلم، الحج ٥٠٣، الفضائل ١١.

[٥] البخاري، الأنبياء ٥٤؛ مسلم، الجهاد ١٠١، ١٠٥.

الذي قطعه للرسول ﷺ قبل عام. ولكن سرعان ما امتلأ جسده بضربات السيوف وطعنات الرماح فهوى إلى الأرض مضرجاً بدمائه... كان قد اقترب من النهاية، وعندما مرّ به سعد بن معاذ قال له وهو يبتسم بوهن: "واهاً لريح الجنة أجده دون أُحد."

في هذه المعركة صعب التعرف على كثير من الشهداء مثل حمزة ومصعب بن عمير وعبد الله بن جحش، وأنس بن النضر الذي ما تعرفت عليه أخته إلا من بنانه، فلعلها المكان الوحيد الذي لم تصبه الجروح.

والآن لنسمع بقية رواية أنس بن مالك ﷺ، فقاتلهم حتى قتل. فوُجِد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية. قال: فقالت أخته عمتي الرُّبَيّع بنت النضر: فما عرفتُ أخي إلا ببنانه. ونزلت هذه الآية ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب:٢٣). فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه.[1]

كانت هذه الآية تشرح هذه الشهامة... لقد بَرّ بوعده الذي قطعه على نفسه من أنه سيقاتل حتى الموت... وقُتل، ولم يستطع الموتُ دفعَه لِنكث وعده.

نعم لقد صدق ما عاهد الله عليه. والآية الكريمة عندما تثني على مثل هؤلاء الشهداء تريد أن تقدمهم لنا كقدوة حسنة يجب أن يحتذِي بها كل من شهد أنه "لا إله إلا الله" لكي لا يضيع الدين ولا ينتكس الإيمان ولا تُمتهن شرائع الله.

لقد صدق أنس بن النضر وعده، وصدق الآخرون -من أشباه أنس- وعودهم، ذلك لأنهم تربوا في مدرسة الحبيب محمد ﷺ. فمثلما كان الحبيب صادقاً أميناً كان أصحابه وتلامذته صادقين أمناء.

الصدق عند رسولنا ﷺ

أ- الأمين قبل الرسالة

ما كان أهل مكة يخاطبونه باسمه، بل كانوا يخاطبونه بصفته "الأمين..." أجل، فقد كان مشتهراً بهذا اللقب. وما أسعدنا ونحن نكرر صباحاً ومساء هذا الوِرْد: "لا إله إلا الله الملك الحق المبين، محمد رسول الله صادق الوعد الأمين."

---

[1] مسلم، الإمارة ١٤٨.

لما قام أهل مكة بتعمير بيت الله وإصلاحه بعد أن تشقق بفعل السيول، برزت هنالك مشكلة كبيرة في موضوع إعادة الحجر الأسود -نحن ندعوه "الحجر الأسعد"- إلى موضعه السابق. إذ امتَشقت القبائل سيوفها، تبغي كل قبيلة أن يكون لها هذا الفخر وكادت تقوم بينهم فتنة عظيمة. ولكن أخمد أوارها اتفاقهم على أن يجعلوا أول من يدخل الكعبة حَكَماً بينهم. وتعلقت الأنظار بمدخل البيت ترتقب من يدخله، وما إن أطلّ محمد ﷺ بوجهه المنير عليهم حتى صاحوا جذلين: "هذا الأمين... رضينا... هذا محمد !"[1] ولم يكن رسول الله يعرف شيئاً أثناء دخوله إلى البيت الحرام.

ذلك لأن ثقتهم به كانت تامة. ومع أنه لم يكن قد بُعث بعدُ نبيا، إلا أنه كان محطَّ ثقة الجميع، إذ كان يحمل جميع صفات الأنبياء.

أجل، فالفضل ما شهدت به الأعداء. فها هو أبو سفيان ألد أعداء الرسول ﷺ آنذاك يشهد بصدقه. ففي رواية لعبد الله بن عباس عن أبي سفيان أنه قال: إن هرقل أرسل إليه في رَكْب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام، في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادّ فيها[2] أبا سفيان وكفار قريش. فأتوه وهم بإيلِياء[3] فدعاهم إلى مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً. فقال: أدنوه مني وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذَبني فكذّبوه. فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذباً لكذبت عنه. ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه مِن ملِك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتدّ أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيه شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سِجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٢٠٩/١؛ المسند للإمام أحمد، ٤٢٥/٣.

[2] مادّ فيها: صالحهم على ترك القتال. (المترجم)

[3] إيلياء: بيت المقدس. (المترجم)

تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم. ويأمرنا بالصلاة والصدق والعَفاف والصلة.[١]

فقال للترجمان: قل له: سألتُك عن نسبه فذكرتَ أنه فيكم ذو نسب. فكذلك الرسل تُبعَث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقولٍ قيل قبله. وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا. قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت رجل يطلب مُلك أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن لِيَذَر الكذب على الناس ويكذب على الله... الخ"[٢]

والنص طويل ونقتصر على هذا القدر. وأهم ما يلفت النظر هنا وجود دليلين على صدق رسول الله ﷺ؛ أولهما هو هرقل إمبراطور الروم الذي قال ما أوردناه آنفاً، والثاني هو جواب أبي سفيان الذي كان يعترف بصدق رسول الله ويقبله مع أنه لم يكن قد أسلم بعد. ولكن هرقل أضاع فرصة ذهبية جاءت إليه، إذ أن حبه لملكه أضاع عليه الحصول على الملك الحقيقي الخالد فلم يسلم ولم يدخل في أمة الإسلام السعيدة. ولكن على الرغم من هذا فقد تصرّف باحترام أمام الرسالة التي بعثها إليه الرسول ﷺ، إذ تصرف ببصيرة، وكان اعترافه بصدق النبي ﷺ مدعاة لسرورنا.

والحقيقة أن ما قاله هرقل له معان ودلالات عميقة... أجل، فإن شخصاً لم ينطق بكذبة واحدة للناس العاديين -وإن كانت مزحة- حتى بلوغه سن الأربعين أيمكن أن يكذب على الله وقد اقترب من الكهولة، ومن الموت؟

سأل ياسر قبل إسلامه ابنه عمّاراً إلى أين تذهب؟ فأجابه: "إلى محمد ﷺ"

كان هذا الجواب كافياً له: "إنه الأمين... هكذا يعرفه أهل مكة... إن كان قال إنه نبي فهو نبي، ذلك لأنه ما من أحد جرّب عليه الكذب." لم يكن هذا قول فرد واحد ولا اعتقاد شخص واحد أو بضعة أشخاص، بل اعتقاد كل من عرفه قبل بعثته وقبل نبوته.

ب- الموصي بالصدق دائماً

وكما عاش صادقاً فقد أوصى أمته بالصدق على الدوام، وندرج هنا بعض هذه الوصايا تبركاً بها: «اِضْمَنُوا لي ستّاً من أنفسكم أَضمن لكم الجنة: اُصدقوا إذا حَدَّثتم، وأوْفوا إذا

---

[١] الصلة: الإحسان إلى الأقارب. (المترجم)

[٢] انظر: البخاري، بدء الوحي ٣، ٦؛ مسلم، الجهاد ٧٤.

وعدتم، وأدّوا إذا اؤتُمِنتم، واحفظوا فروجكم، وغُضّوا أبصاركم، وكُفّوا أيديكم.»[١]

لقد عاش النبي ﷺ مستقيماً مثل شعاع ضوء، وأوصى بالاستقامة بعد أن حققها في نفسه إلى ذروة ما بين الإمكان والوجوب، إلى ذروة ليس وراء ها سوى الصدق الإلهي، أي إن رسول الله ﷺ كان يجول في عالم الصدق في أفق ﴿فَكَانَ قَابَ قَوسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم:٩). فمن ناحية كان في دائرة "الإمكان" ومن ناحية أخرى كان قد تجاوز دائرة "الإمكان" وكما قال القاضي عياض في معرض المعراج "إنه وصل إلى موضع لم يدْرِ فيه أين يضع قدمه، فقيل له أن يضع إحدى قدميه فوق الأخرى." صحيح أنه كان بشراً من جميع النواحي، ولكن الصدق رفعه إلى مثل هذا المستوى. وهو يوصينا بالوصية نفسها "اِضْمَنُوا لي الصدق وعدم الكذب في حياتكم أضمن لكم الجنة."

ويقول في حديث آخر: «دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة.»[٢] ويقول أيضاً: «وإن رأيتم أن فيه الهلكة فإن فيه النجاة.»[٣] أي اصدقوا وإن رأيتم أن الصدق سيجرّ عليكم الهلاك، لأنه سيؤدي بكم إلى النجاة في الحقيقة. ويقول أيضاً: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة. وما يزال الرجل يصدُق ويَتحرّى الصدقَ حتى يُكتب عند الله صدّيقاً. وإياكم والكذبَ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذِب ويتحرّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذّابا.»[٤]

النجاة والخلاص في الصدق. فالإنسان عندما يموت بصدقه يموت مرة واحدة بينما يموت مرات بعدد كذبه. يقول كعب بن مالك ﷺ: "لقد نجوت بصدقي." وعندما نتكلم عن الصدق فلا يمكن ألاّ نذكره ﷺ.

كان كعب بن مالك ﷺ ذا لسان صادق وسيف قاطع.. كان شاعراً استطاع بشعره أن يُلقم الكفار حجراً في العَقَبة، لذا كان من أوائل الأنصار. ولكنه لم يشترك في غزوة تبوك التي كانت غزوة صعبة، تناوش فيها حفنة من المؤمنين مع الإمبراطورية البيزنطية في لهيب الصحراء اللافح... ذهبوا بهذه النية... وأبدوا تلك البسالة... كسبوا الثواب ولم يبق من الحرب سوى ذكرياتها.

---

[١] المسند للإمام أحمد، ٣٢٣/٥.

[٢] الترمذي، القيامة ٦٠؛ المسند للإمام أحمد، ٢٠٠/١.

[٣] فيض القدير للمناوي، ٢٣٢/٣؛ كنز العمال للهندي، ٣٤٤/٣.

[٤] البخاري، الأدب ٦٩؛ مسلم، البر ١٠٥؛ أبو داود، الأدب ٨٠.

قال كعب بن مالك ﷺ في رواية أخرجها أحمد والبخاري ومسلم عن طريق الزهري:

"لم أتخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحدا تَخلّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عِير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العَقَبَة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أُحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أَذْكَرَ في الناس منها. كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسرَ حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعتْ عندي قبله راحلتان قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا وَرَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا، ومفازا وعدوا كثيرا، فجَلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهّبوا أُهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، يريد الديوان. قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيّب إلا ظن أن سيَخفَى له، ما لم يَنزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقتُ أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجعُ ولم أقض شيئا، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتدّ بالناس الجِدّ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئا، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئا، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتَفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأُدركهم، وليتني فعلت، فلم يُقدَّر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق، أو رجلا ممن عَذَرَ اللهُ من الضعفاء. ولم يذْكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سلِمة: يا رسول الله حبسه بُرْداه ونظرُه في عِطفيه. فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا. فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همّي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا، واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادما، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له

وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووَكَلَ سرائرهم إلى الله، فجئته فلما سلمت عليه تبسَّم تبسُّم المُغْضَب، ثم قال: «تعال.» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: «ما خلّفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟» فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيتُ جدلا ولكني والله لقد علمتُ لئن حدّثتُك اليوم حديث كَذِب ترضى به عني لَيوشكنّ الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتُك حديث صِدق تجد عليّ فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك.» فقمت، وثار رجال من بني سلِمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علِمناك كنتَ أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزتَ أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلِّفون، قد كان كافيك ذنبَك استغفارُ رسول الله ﷺ لك. فوالله ما زالوا يؤنّبوني حتى أردت أن أرجع فأُكذّب نفسي ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع العَمْريّ وهلال بن أمية الواقفيّ فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيُّها الثلاثةُ من بين مَن تخلَّف عنه، فاجتنَبنا الناسُ وتغيروا لنا حتى تَنكَّرتْ في نفسي الأرضُ فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه بِرَدّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوَّرتُ جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحبّ الناس إليّ، فسلمت عليه، فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أَنشدك بالله هل تعلمني أُحِب الله ورسوله؟ فسكَتَ، فعدتُ له فنشدتُه فسكتَ، فعدتُ له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار.

قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نَبَطِيٌّ من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غَسّان، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم

يجعلك الله بدار هَوان ولا مَضْيَعَة فالْحَقْ بنا نُواسِكَ فقلت لمّا قرأتها وهذا أيضا من البلاء، فتيممت بها التَّنُّور فسجَرته بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أُطلّقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقرَبها وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الْحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقرَبْكِ.» قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شابّ؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صُبْحَ خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ، أوفَى على جبل سَلْعٍ بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشِرْ، قال: فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرَج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبل صاحبيّ مبشّرون وركض إلي رجلٌ فَرَساً، وسعى ساع مِن أَسْلَمَ فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنُّوني بالتوبة يقولون: لِتَهْنِكَ توبة الله عليك، قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناسُ، فقام إليّ طلحة بن عُبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يومٍ مر عليك منذ ولدتك أمك» قال قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله» وكان رسول الله ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله، وإلى رسول الله. قال رسول الله ﷺ: «أمسِكْ عليك بعض مالك فهو خير لك.» قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا

رسول الله، إن الله إنما نجّاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدّث إلا صدقا ما بقيت. فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمَّدتُ منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ۞ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِم أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة:١١٧-١١٩). فوالله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط، بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ، أن لا أكون كذَبتُه فأَهلك كما هلك الذين كذَبوا فإن الله قال للذين كذَبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة:٩٥-٩٦). قال كعب: وكنا تُخُلِّفْنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبِل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ (التوبة:١١٨). وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفنا عن الغزو إنما هو تخليفه إيّانا وإرجاؤه أمرنا عمّن حلف له واعتذر إليه فقَبِل منه.[1]

أجل، إن حقيقة النبوة قائمة على أساس من الصدق والاستقامة. فكل نبي صادق، ويجب أن يكون صادقاً، ذلك لأنه الشخص الذي يبلّغ الأوامر الآتية إليه من عالم الغيب إلى الناس. فلو كان هناك احتمال لأيّ خطأ مهما كان قليلاً في مهمة التبليغ، لانقلبت الأمور رأساً على عقب، لأن جميع الحقائق التي نتعلمها حول الحقيقة الإنسانية تنتقل إلينا عن طريقهم، وهذا موضوع حساس جدًّا لا يتحمل مثقال ذرة من الخطأ أو الوهم، لذا نرى الله تعالى يقول في هذا الأمر: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[2] ۞ فَمَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقّة:٤٤-٤٧).

لقد كان ﷺ في موضوع أوامر الله ونواهيه مثل الميت في يد المغسل يستطيع أن يقلبه

---

[1] مسلم، التوبة ٥٣؛ البخاري، المغازي ٧٩.

[2] الوتين: هو نياط القلب. (المترجم)

يمينا أو يساراً كيفما شاء. فوِجهته دائما هي الوجهة التي يوجهه إليها الله تعالى حتى بعد وصوله إلى ذروة القرب من الله تعالى. وما كان له أن يفقد شيئاً ولو هينا من حساسيته في هذا... بل لقد تعمقت فيه هذه الحساسية ونزلت إلى أعماق قلبه.

لقد كان عند وعده دائما فلم يسمع عنه أحد حتى بلوغه سن الأربعين كذبة ولا جرّب عليه خلف وعد. يروي عبد الله بن أبي الحَمْساء قال: بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يُبعث، وبقيتُ له بقية فوعدتُه أن آتيه بها في مكانه فنسيتُ. ثم ذكرت بعد ثلاث. فجئت فإذا هو في مكانه فقال: «يا فتى! لقد شققتَ عليّ، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك.»[1]

ج- أقواله علامة صدقه

لقد كان منذ مولده الصادقَ الأمين المختار، لذا أسرع الناس إلى الإيمان بكل ما قاله بعد نبوته، فكأن العالم كله يهتف به: "لقد صدقت يا رسول الله..." لا البشر فحسب، بل كل كائن يقول بلسان حاله وبلسان المعجزة هذا القول له ويبايعه.

ولأقف هنا لحظة لأستطرد ولأوضح موضوعاً مهمّاً فأقول: إن الآيات القرآنية وأقوال نبينا ﷺ النورانية لهما مقام رفيع جدّاً لا يستطيع الفلاسفة بعقولهم ولا الأولياء بقلوبهم ولا الأصفياء بأرواحهم أن يفهموها حق الفهم ولا أن يبلغوا ذلك المستوى أو يسموا إليه. فالوصول متعذر بل مستحيل؛ وذلك من ناحية الدقة في التعبير عن العلاقات الموجودة بين ذات الله وصفاته وأسمائه الحسنى.

غير أن الأرواح السامية والواصلة رأت من تجاربها أنها كلما غذت السير نحو الأعالي كلما تبيّن لها مدى صدق بيان القرآن وبيان الرسول ﷺ ومدى مطابقتهما للحق وللحقيقة، ويصلون إلى هذا عن طريق الكشف والذوق.

أجل، فما قاله الرسول ﷺ حول الألوهية يتم التصديق عليه من قِبَل أهل الاختصاص ويُتّخذ أساساً وقاعدة، حتى أنه تناول مواضيع حساسة جدّاً حول مسائل الألوهية والحشر والنشر والقدر مع احتفاظه بالتوازن الدقيق بين هذه المواضيع بحيث إنه لو لم يعلن عن هذه المسائل ويشرحها لما استطاع أحد أن يقول كلمة واحدة حولها.

يروى عن عمرو بن أخطب ﷺ أنه قال: "صلّى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر فخطبَنا حتى حضرت الظهر فنزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبَنا حتى حضرت العصر. ثم

---

[1] أبو داود، الأدب ٨٢.

نـزل فصلى، ثـم صـعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس فأَخبَرَنا بما كان وبما هو كائن فأعلمُنا أحفظُنا."[١]

أجل، فقد فَتح أبواب الماضي واستعرض أقوال الأنبياء منذ آدم عليه السلام، وشرح أوصافهم وشمائلهم؛ ثم حوّل بصرَه إلى المستقبل فشرح كل شيء حول المحشر والجنة والجحيم، وهو الذي لم يقرأ كتاباً ولم يدرس على أحد؛ فكيف تسنّى له معرفة كل هذا..؟ لا شك أن الله ﷻ هو الذي علّمه ما لم يكن يعلمه من قبلُ من شؤون الدنيا وشؤون الآخرة. وما كان هناك غير هذا السبيل لِمعرفة كل هذه الأمور، وهذا هو ما يَقبله ويصدّق به كل العقلاء حالياً. وهو دليل آخر على صدق رسول الله ﷺ.

كان رسول الله ﷺ يتكلم عن الأنبياء ويصفهم ويصف ملامح وجوههم حتى كأنه رسام يرسم اللوحات. وكان أهل الكتاب في زمانه يصدقون كلامه ووصفه ولا يعترضون عليه ويقولون: "أجل، هذه هي أوصافهم كما جاءت في كتبنا."[٢] أوليس هذا دليلاً قاطعاً على صدق نبوة رجل يصف جميع الأنبياء والرسل السابقين وصفاً دقيقاً يوافق عليه أهل العلم آنذاك وأهل الاختصاص دون أن يقرأ كتاباً واحداً من الكتب القديمة كالتوراة والإنجيل وغيرهما؟

إن هذا الموضوع الذي قدّمنا لمحة منه موضوع لا أستطيع إيفاءه حقه، فهو خارج طاقتي وقدرتي... والحال نفسها واردة مع القرّاء، إذ ليس من السهل فهم هذا الموضوع وشرحه بالشكل المطلوب، غير أننا استناداً إلى أقوال وشهادة مَن بلَغوا هذا المستوى من آلاف الأولياء والأصفياء الذين سلكوا طريق الولاية وصعدوا مراتب الولاية مرتبة مرتبة؛ والعلماء والفلاسفة الذين ملأوا رؤوسهم بالعلم وبالمعرفة نعلم أن أقوال رسول الله ﷺ كانت في الذروة في كل أمر من الأمور، وهذا يشكل بعداً آخر حول صدقه واستقامته. فتصديق هؤلاء الأشخاص الممتازين والمتميزين يُرينا أنه ﷺ لم يتحدث أبداً خلاف الحقيقة وخلاف الحق، ذلك لأن ما تَحدّث فيه لم يكن من عنده بل من الوحي الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.[٣] وهذا هو السبب في أنه أصبح سلطان الكلام الحق على مر العصور.

---

[١] مسلم، الفتن ٢٥؛ المسند للإمام أحمد، ٣٤١/٥.

[٢] مسلم، الإيمان ٢٧١.

[٣] انظر الآية: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحيٌ يُوحَى﴾ (النجم:٣-٤).

وما نريد أن نقف عليه هنا هو بعض أقواله المتعلقة بالغيب والتي ظهر صدقها بعد مرور أربعة عشر قرناً، وهذا دليل آخر على صدقه وصدق نبوته. غير أننا نود قبل الدخول إلى هذا الموضوع إيضاح بعض المسائل حول معاني الغيب لإيقاننا بضرورة هذه الشروح وبفائدتها.

جاءت كلمة "الغيب" في القرآن الكريم في مواضع متعددة وبمعانٍ مختلفة. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام:٥٩). فالغيب هنا غيب موجود في مقام الألوهية لا يعلمه أحد سواه ﷻ... غيب لا يعلمه حتى رسوله محمد ﷺ.

ثم ألا يذكر الله ﷻ لنبيه بأن عليه أن يقول: ﴿قُل لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأنعام:٥٠)، ﴿قُل لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:١٨٨).

وفي سورة الجن نرى الآية: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ۞ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ۞ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ (الجن:٢٦-٢٨).

في ضوء هذه الآيات نستطيع أن نقدم التحليل الآتي: إن من يقول إن رسول الله ﷺ كان يعلم الغيب علماً مطلقاً يميل إلى الإفراط والمبالغة. ومن يقول إن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف الغيب مطلقاً يميل إلى التفريط. فهو لم يكن يعرف الغيب، إلا أن الله تعالى كان يطلعه على الغيب. فكان رسول الله ﷺ يشرح الأمور الأساسية للحوادث حتى يوم القيامة وكأنه جالس أمام شاشة تليفزيونية. وهذا هو ما نريد الوقوف عنده بكل عناية. فما قاله لم يكن من عنده بل مما أخبره الله تعالى به عن طريق الوحي. وبما أن الله تعالى هو مصدر هذا الغيب، لذا لم يكن الرسل وحدهم ولا رسولنا ﷺ فقط من يعلم الغيب عن هذا الطريق، بل كان بعض الواصلين من الأولياء مطّلعين على قسم من الغيب عن طريق الكرامة إذ يقول الرسول ﷺ: «قد كان يكون في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم» قال ابن وهب: تفسير "محدَّثون" مُلْهَمون.[1] لذا، نرى أن عمر بن الخطاب ﷺ يقطع خطبته ويهتف: "يا سارية! الجبل.. الجبل.. الجبل!" يحذّر جيشَ

[1] البخاري، الأنبياء ٥٤؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢٣؛ الترمذي، المناقب ١٧.

المسلمين من الكمين المعدّ له من الأعداء. ويسمع قائد المسلمين نداء عمر فينجو بجيشه من كمين الأعداء.[١]

وهناك أولياء مثل محيي الدين بن عربي ومولانا جلال الدين الرومي والإمام الرباني ومشتاق أفندي ومئات غيرهم أخبروا عن الغيب ثم صدّقت الأيام كلامهم. وكلهم كانت قلوبهم مرتبطة برسولهم محمد ﷺ، مستمدين إلهاماتهم من مشكاة نوره. فإذا كان هذا هو حال بعض طلابه ودرجة قربهم من النسائم الرحمانية واللطف والإلهام الإلهي، والاطّلاع على الغيب فكيف برسول الله ﷺ وهو الذي لو وُضع في كفة ووُضعت أمته في كفة لرجَحَها؟ وكيف يُستبعد اطّلاعه على الغيب كجزء من معجزاته؟[٢]

هناك ما يقارب ثلاثمائة معجزة نبوية مذكورة في كتب الأحاديث المعتمدة، وقد تحقق القسم الأعظم من الأخبار الغيبية التي أخبر عنها النبي ﷺ. ولسنا هنا في معرض استعراض هذه الأخبار، بل سنتناول أمثلة منها لكي تعطينا فكرة عن الموضوع.

وسنقسم هذه الأمثلة إلى مجموعات ثلاث:

الأولى: الأخبار الغيبية المتعلقة بعهده ﷺ.

الثانية: الأخبار المتعلقة بالمستقبل القريب أو البعيد.

الثالثة: الحقائق التي أوضحها ببيانه السهل الممتنع والتي لم يعرف معناها إلا بعد تقدم العلوم.

أولاً: أخبار الغيب المتعلقة بزمانه

١. تورد كتب الأحاديث وفي مقدمتها صحيح البخاري ومسلم الرواية التالية:

عن أنس ﷺ قال: سألوا النبي ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، فصعد النبي ﷺ ذات يوم المنبر فقال: «لا تسألوني عن شيء إلا بيّنتُ لكم» فجعلتُ أنظر يميناً وشمالاً، فإذا كل رجل رأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل كان إذا لاحى يُدعى إلى غير أبيه فقال: يا نبي الله من أبي؟ فقال: «أبوك حُذافة» ثم أنشأ عمر فقال: رضينا بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، نعوذ بالله من سوء الفتن، فقال النبي ﷺ: «ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط، إنه صُوّرت لي الجنة والنار، حتى رأيتهما دون الحائط.»[٣]

---

[١] كنز العمال للهندي، ٥٧١/١٢.

[٢] انظر: أبو داود، السنة ٨؛ المسند للإمام أحمد، ٧٦/٢.

[٣] البخاري، الدعوات ٣٥، الفتن ١٥؛ مسلم، الفضائل ١٣٤.

٢. يورد مسلم في صحيحه وأبو داود والنسائي عن أنس ﷺ عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول: «هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله» فوالذى بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حدّ رسول الله ﷺ.[١]

أجل، فهؤلاء الكفار الذين لم يؤمنوا برسول الله ﷺ في حياتهم كانت أجسادهم الآن وجثثهم تنطق بشهادة صدقه عليه الصلاة والسلام... ذلك لأنه كان يخبر، ثم يتحقق ذلك الخبر بحذافيره.

٣. ينقل الإمام أحمد بن حنبل في مسنده الحادثة التالية:

قال جرير: لمّا دنوتُ من المدينة أنختُ راحلتي ثم حلَلْتُ عيبتي ثم لبست حُلّتي ثم دخلت، فإذا رسول الله يخطب فرماني الناس بالحَدَق فقلت لجليسي: يا عبد الله، ذَكّرني رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم ذكرك آنفاً بأحسن ذكر، فبينما هو يخطب إذ عرض له في خطبته، وقال: «يدخل عليكم من هذا الباب أو من هذا الفَجّ من خير ذي يمن، ألا وإن على وجهه مسحة ملَك.»[٢]

٤. ينقل ابن كثير في "البداية والنهاية" والبيهقي في "دلائل النبوة" الحادثة التالية:

رأى أبو سفيان رسول الله ﷺ يمشي والناس يطئون عقبه، فقال بينه وبين نفسه: لو عاودت هذا الرجل القتال؟ فجاء رسول الله ﷺ حتى ضرب بيده على صدره فقال: «إذن، يُخزيك الله» فقال: أتوب إلى الله وأستغفر الله مما تفوّهتُ به.

وفي رواية: إن أبا سفيان بن حرب بعد فتح مكة كان جالساً فقال في نفسه: لو جمعت لمحمد جَمْعاً ؟ فإنه لَيحدّث نفسه بذلك إذ ضرب رسول الله ﷺ بين كتفيه وقال: «إذن، يُخزيك الله» قال فرفع رأسه فإذا رسول الله ﷺ قائم على رأسه فقال: ما أيقنت أنك نبيّ حتى الساعة.[٣]

٥. وهناك حادثة أخرى جاءت حول عُمَيْر بن وهْب الذي كان لقبه "الشيطان" في الجاهلية فأصبح لقبه "راهب الإسلام" بعد هدايته. وخلاصة هذه الحادثة أنه جلس يوماً في مكة مع صفوان بن أمية واتفقا على أن يذهب عمير بن وهب إلى المدينة ويتظاهر بأنه أسلم ويقتل رسول الله ﷺ وذلك مقابل أن يعطيه صفوان عدداً من الإبل.

---

[١] مسلم، الجنة، ٧٦، ٧٧؛ النسائي، الجنائز ١١٧.

[٢] المسند للإمام أحمد، ٤/٣٦٠-٣٦٤.

[٣] دلائل النبوة للبيهقي، ٥/١٠٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤/٣٤٨.

حدّ عمير سيفه وتوجه إلى المدينة وعندما وصلها قال بأنه قد أسلم ويريد مبايعة رسول الله. فذهبوا به إلى مسجد رسول الله ﷺ. ولكن الصحابة لم يكونوا يأمنون جانبه ولا يأمنون اختلاءه بالنبي ﷺ فذهبوا به إلى المسجد وأحاطوا بالنبي ﷺ الذي سأل عميراً عما جاء به وعندما أجابه بأنه جاء ليسلم لم يصدّقه الرسول ﷺ وقال له: «أنا أخبرك لم جئت.» وأخبره ما كان من أمره مع صفوان في مكة واتفاقه معه على قتله ﷺ. فذهل عمير مما سمع وأكبّ على يدي رسول الله ﷺ يعلن إسلامه ويشهد أنه رسول لله.[١] ثم أصبح من أصحاب العبادات ومجاهدة النفس حتى أطلق عليه اسم "راهب الإسلام".

فمن الذي أخبر رسول لله ﷺ بما جرى بين عمير وصفوان في مكة؟

ثانياً: الأخبار المتعلقة بالمستقبل

أ – المستقبل القريب

يروي البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد بن حارثة:

كان رسول الله ﷺ يأخذني فيُقعدني على فخِذه ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما ثم يقول: «اللّهم ارحمهما فإني أرحمهما.»[٢] وبعد أن أصبح شابّاً عيّنه رسول الله ﷺ -وهو في أواخر أيامه- قائداً على الجيش الذي هيأه لقتال الروم... أي كان يريد إرساله إلى الأرض التي استشهد فيها أبوه قبل سنوات. غير أن أسامة عندما رأى اعتلال صحة الرسول ﷺ فضّل الانتظار في المدينة ولم يغادرها حتى وفاة النبي ﷺ.[٣] يقول أسامة: أشرف النبي ﷺ على أُطُمٍ من آطام المدينة. فقال: «هل ترون ما أرى، إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القَطْر.»[٤]

وبعد أن فارق رسول الله ﷺ الحياة وأصحابه امتلأت شوارع المدينة وأزقتها بالفتن. وكان عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ﷺ من ضحايا هذه الفتن. فكأن هذه الفتن كانت تقول لرسول الله ﷺ بلسان حالها "لقد صدقت."

١) الفتـــن

كان عمر بن الخطاب يخشى هذه الفتن طوال حياته، وفي رواية عن الأعمش عن شقيق

---

[١] الإصابة لابن حجر، ٣٦/٣؛ رجال حول الرسول لخالد محمد خالد، ص٣٠٤-٣١٢.

[٢] البخاري، الأدب ٢٢؛ المسند للإمام أحمد، ٢٠٥/٥.

[٣] البداية والنهاية لابن كثير، ٣٣٥/٢؛ مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر لابن المنظور، ٢٥٠/٤.

[٤] البخاري، فضائل المدينة، ٨؛ مسلم، الفتن ٩.

عن حُذيفة ﷺ أنه في أحد الأيام بينما كان عمر جالساً في جمع من الصحابة في المسجد سألهم:

أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ في الفتنة كما قال؟ قال فقلت: أنا. قال: إنك لجريء. وكيف قال؟ قال قلت: سمعت رسول الله ﷺ يقول «فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره، يكفّرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.» فقال عمر: ليس هذا أريد، إنما أريد التي تموج كموج البحر. قال فقلت: مالك ولها يا أمير المؤمنين! إن بينك وبينها باباً مغلقاً. قال: أفيُكسر الباب أم يُفتح؟ قال قلت: لا. بل يُكسر قال: ذلك أحرى أن لا يغلَق أبداً.

قال: فقلنا لحُذيفة: هل كان عمر يعلم من الباب؟ قال: نعم. كما يعلم أن دون غد الليلة. إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط. قال فهبنا أن نسأل حُذيفة: من الباب؟ فقلنا لمسروق: سله. فسأله فقال: عمر.[1]

كان عمر ﷺ يعلم ذلك. فقد طرق سمعَه سابقاً حديثُ رسول الله ﷺ عن الفتنة. وعندما جاء ميعادها ظهرت كما أخبر رسول الله ﷺ. فطُعن عمر بن الخطاب ﷺ من قبل مجوسي فارسي، فتلقَّت الوحدة الإسلامية ذلك اليوم طعنةً عميقة في صدرها... أجل، لقد اختار أعداء الإسلام هدفهم اختياراً جيداً، وضربوا هذا الهدف في الصميم. فبوفاته سالت الفتن كالسيل الجارف على أرض الإسلام... صحيح أن هذا كان خَطْباً عظيماً ورزءاً كبيراً، ولكنه كان من جهة أخرى تصديقاً وبرهاناً ناصعاً على صدق النبوة.

٢) النصر

جاء في البخاري وفي سنن أبي داود عن خَبّاب بن الأرتّ ﷺ قال:

شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يُحفَر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضَع على رأسه فيُشَقّ باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه. ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون.»[2] وتحققت نبوءة الرسول ﷺ بحذافيرها.

---

[1] مسلم، الفتن ٢٦؛ البخاري، الصوم ٣.

[2] البخاري، المناقب ٢٥؛ أبو داود، الجهاد ٩٧.

٣) «أنتِ أول من يلحق بي»

جاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها وهي تروي ذكرياتها عن الأيام الأخيرة للرسول ﷺ قالت: كُنّ أزواج النبي ﷺ عنده. لم يغادر منهن واحدة. فأقبلت فاطمة تمشي ما تُخطئ مِشيتها من مشية رسول الله ﷺ شيئاً. فلما رآها رحّب بها فقال: «مرحباً بابنتي» ثم أجلسها عن يمينه.[١] قالت عائشة رضي الله عنها: فسارّها بشيء فبكتْ، ثم دعاها فسارّها بشيء فضحكت، فسألناها عن ذلك فقالت: سارّني النبي ﷺ أنه يُقبَض في وجعه الذي توفي فيه، فبكيت ثم سارّني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت".[٢]

فكأنها في بكائها كانت تصف حالها بعد وفاة والدها:

ماذا علي مَنْ شَمّ تربة أحمدا ألاَّ يَشُمّ مدى الزمان غَواليا

صُبّت عليّ مصائبُ لو أنها صُبَّت على الأيام عُدْنَ لياليا[٣]

وبعد ستة أشهر فقط من وفاته ﷺ لحقت به فاطمة رضي الله عنها. وكانت وفاتها تصديقاً لنبوة أبيها رسول الله ﷺ.[٤]

٤) الصلح

ذكر معظم رجال الحديث في كتب الأحاديث الستة أن الرسول ﷺ أشار يوماً وهو على المنبر إلى الحسن ﷺ قائلاً: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يُصْلِح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين.»[٥]

أجل، إنه كريم بن كريم وحفيد لرسول الله ﷺ، وعندما أصبح خليفة ذات يوم تخلّى عنها وعن السلطة حتى لا يكون سبباً في التفرقة بين أمة الإسلام، وأثبت بذلك كيف أنه سيد وابن سيد. فلم يمر سوى خمس وعشرين أو ثلاثين سنة على نبوءة رسول الله ﷺ حتى تحقق ما قاله حرفيّاً. فالأمويون رأوا الحسن أمامهم بعد وفاة علي بن أبي طالب، ولكن الحسن كان رجل صلح وسلام، لذا فقد تنازل عن جميع حقوقه لكي يصلح بين جيشي

---

[١] البخاري، الاستئذان ٤٣؛ مسلم، فضائل الصحابة ٩٨، ٩٩؛ ابن ماجه، الجنائز ٦٤.

[٢] البخاري، المغازي ٨٣؛ مسلم، فضائل الصحابة ٩٨.

[٣] سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٣٤/٢؛ ابن ماجه، الجنائز ٦٥؛ المسند للإمام أحمد، ١٩٧/٣.

[٤] البخاري، المغازي ٣٨؛ مسلم، الجهاد ٥٢؛ المسند للإمام أحمد، ٦/١.

[٥] البخاري، الصلح ٩؛ الترمذي، المناقب ٣٠؛ النسائي، الجمعة ٢٧؛ أبو داود، السنة ١٢؛ المسند للإمام أحمد، ٤٩/٥.

المسلمين ويمنع -ولو بشكل مؤقت- وقوع فتنة كبرى بين المسلمين.[١] وما أصدق ما قال الشاعر في حقه:

كريم بن كريم بن كريم وجده خير الأنام

عندما أخبر الرسول ﷺ بهذه الحادثة كان الحسن ﷺ طفلاً صغيراً، وربما لم يَفهم مرادَ الرسول ﷺ ولا ما أشار إليه، أي أنه لم يفعل ما فعله لأن رسول الله ﷺ قال ذلك، بل قال رسول الله ﷺ ذلك القول لكونه عالماً بما سيفعله، وكان الحسن ﷺ بعمله هذا يصدِّق جده، ويقول له بلسان الحال: "صدقت!"

٥) سيعيش قرناً

عن عبد الله بن بُسْر: قال وضع رسول الله ﷺ يده على رأسي فقال: «يعيش هذا الغلام قرناً.» فعاش مائة سنة وكان في وجهه ثؤلول، فقال: «لا يموت حتى يذهب الثؤلول.» ويقول الصحابة إنه عاش مائة سنة وذهب الثؤلول عن وجهه.[٢]

وكما كان رسول الله ﷺ حسب سر الآية ﴿وَلَلْاٰخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ (الضحى:٤) يتقدم كل يوم ويقطع الدرجات نحو العُلى ونحو الأفضل ويكون يومه دائماً أفضل من أمسه، فإنه كان يستغفر كل يوم مائة مرة.[٣] وكانت أمته تعرفه أكثر فأكثر كل يوم، وكان إيمانها يزداد به وبصدقه كلما أظهرت الأيامُ صِدقَ الأخبار التي أخبر بها الرسول ﷺ عن المستقبل فتُرَدّد وتقول: "صدقت يا رسول الله!"

والآن لنعط بعض الأمثلة المتعلقة بالعهود البعيدة عن زمن الرسول ﷺ والقريبة من زماننا الحالي. والأمثلة عن الأخبار المستقبلية التي ننتظر تحققها أيضاً.

٦) الأخبار التي أخبر بها في وقعة "الخندق"

تكاد جميع كتب الأحاديث تجمع على إيراد الحادثة التالية التي جرت أثناء حفر الخندق حول المدينة. وكان النبي ﷺ يشارك صحابته في الحفر، وينشد:

«اللّٰهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة»[٤]

فينشدون:

---

[١] البداية والنهاية لابن كثير، ٤٥/٨.

[٢] مجمع الزوائد للهيثمي، ٤٠٤/٩-٤٠٥.

[٣] مسلم، الذكر ٤٢؛ أبو داود، الوتر ٢٦.

[٤] البخاري، مناقب الأنصار ٩؛ مسلم، الجهاد ١٢٧.

«والله لولا أنت ما اهتدينا ولا تَصدّقنا ولا صلّيْنا
فأَنزِلنْ سـكينة علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا»[١]

يقول البراء بن عازب الأنصاري:

لما كان حين أَمرَنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرض لنا في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة لا تأخذ فيها المعاول، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فلما رآها أخذ المعول وقال: «بسم الله» وضرب ضربة فكَسَر ثلثها وقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح الشام، والله إني لأُبصِر قصورها الحمر إن شاء الله» ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر فقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض» ثم ضرب الثالثة فقال: «بسم الله» فقطع بقية الحجر فقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صَنْعاء من مكاني الساعة.»[٢]

ولم تمض إلا بضع سنين حتى فتح الله تعالى بسيوف سعد بن أبي وقّاص وخالد بن الوليد وغيرهما من كبار القوّاد كل هذه البلدان والممالك. وتم تسليم مفاتيحها إلى الشخصية المعنوية لرسولنا محمد ﷺ. وكان هذا دليلاً آخر على صدقه. ولم يكن في الإمكان أصلاً إلا أن يكون هكذا، فلو فرضنا المستحيل ولم يحصل ما وعده رسولنا ﷺ، لحقق الله تعالى هذا الوعد لكي لا يكذِّب رسوله... كيف لا ورسول الله ﷺ يصف الصحابي البراء بن مالك ﷺ بأنه «لو أَقْسم على الله لأَبرّه.»[٣] أي لو أقسم البراء حول أمر صعب التحقق لحقق الله تعالى قَسَمه هذا. وكان الصحابة يقدمونه في الحرب لكي يضمنوا انتصارهم.[٤] فهل يعطي الله أحد الصحابة مثل هذه المِيزة ولا يعطيها لرسوله ﷺ؟ فالله سبحانه تعالى أراه فتح هذه البلدان رأي العين، وكان الرسول ﷺ يخبر عما رآه.

٧) بشرى الأمن والغنى

روى عَدِيّ بن حاتِم ﷺ قال:

بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل، فقال: «يا عديّ! هل رأيت الحِيرة؟» قلت: لم أرها، وقد أُنبئتُ عنها. قال: «فإن طالت بك حياة،

---

[١] البخاري، المغازي ٢٩؛ مسلم، الجهاد ١٢٣-١٢٥.

[٢] البداية والنهاية لابن كثير، ١١٦/٤؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٢٣٠/٣؛ المسند للإمام أحمد، ٣٠٣/٤.

[٣] الترمذي، المناقب ٥٤ (والصحابي المذكور هو البراء بن مالك أخ أنس بن مالك).

[٤] الإصابة لابن حجر، ١٤٣/١-١٤٤.

لَتَرَيَنّ الظعينة[١] تَرتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف الا الله» -قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعّار[٢] طَيِّئ الذين قد سَعّروا[٣] البلاد- «ولئن طالت بك حياة لتُفتحَنّ كنوزُ كسرى.» قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لَتريَنّ الرجلَ يُخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يَقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه.»

قال: فرأيت الظعينة ترتحل من الحِيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوزَ كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياةٌ، لترونّ ما قال النبي أبو القاسم ﷺ: «يُخرج ملء كفه.»[٤]

لم ير عديّ تحقق النبوءة الثالثة، ولكن جاء اليوم الذي تحققت فيه أيضاً. ففي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز تحقق الشق الثالث من النبوءة، وأصبح واقعاً مُعاشاً. ففي تلك الدولة الواسعة المترامية الأطراف كان توزيع الثروة عادلاً ومنظماً إلى درجة أنه لم يبق فيها فقير واحد. ولا نبالغ إن قلنا بأن مستوى الحياة الحالية في الولايات المتحدة الأمريكية وفي دول الغرب أقل بكثير من مستوى الحياة آنذاك في تلك الدولة. هذا علاوة على أن نظام توزيع الثروات في هذه الأمم غير عادل وغير متوازن أبداً؛ فإلى جانب فئة غنية وموسرة ومرفهة جدًّا نجد الطبقات الفقيرة التي تعيش ظروف حياة قاسية. وما كان مثل هذا التوزيع الجائر غير المتوازن موجوداً في ذلك العهد... عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز.[٥]

٨) شهادة عمّار

كان المسلمون منهمكين ببناء المسجد النبوي... الكل يعمل... فمنهم من يصنع اللبِن ومنهم من ينقلها ومنهم من يبني. وكان رسول الله ﷺ يعمل معهم. فمر به عمّار بن ياسر ﷺ وهو يحمل لبنتين -بينما كان الباقون يحملون لبنة واحدة- فقال له رسول الله ﷺ: «ما دأبك إلى هذا؟» قال: يا رسول الله أريد الأجر. فجعل يمسح التراب عن منكبيه وظهره وهو يقول: «ويحك يا عمّار! تقتلك الفئة الباغية.»[٦] أو: «أبشر! تقتلك الفئة الباغية.»[٧] فأخبر النبي

---

[١] الظعينة: هو في الأصل اسم الهودج ثم قيل للمرأة في الهودج. (المترجم)

[٢] دُعّار: جميع داعر وهو الخبيث المفسد الفاسق. (المترجم)

[٣] سعّروا البلاد: أشعلوا فيها نار الفتنة وأفسدوها. (المترجم)

[٤] البخاري، المناقب ٢٥.

[٥] البداية والنهاية لابن كثير، ٩/٢٢٥.

[٦] البخاري، الصلاة ٦٣؛ مسلم، الفتن ٧٠-٧٣.

[٧] الترمذي، المناقب ٣٤.

علي بن أبي طالب ﷺ بذلك ونبهه إلى أن عمّاراً سيستشهد وستقتله الفئة الباغية.

في معركة صِفّين كان عمّار في صف علي بن أبي طالب ﷺ واستشهد فيها. وعَدّ أصحاب علي ﷺ هذه الشهادة دليلاً على أن الطرف الآخر فئة باغية.[1] صحيح أن صحابيًا جليلاً قُتل في هذه المعركة، ولكن كل قطرة من دمائه سقطت على أرض المعركة كانت تقول: "صدقت يا رسول الله ﷺ!"

أجل، أيها القراء الأعزاء! فلو لم يُخبِر الله تعالى فكيف يستطيع الإنسان أن يعلم هذا..؟ هناك حاليًا أفلام خيالية تقوم ببعض التنبؤات حول المستقبل؛ وهذا ليس بالأمر الصعب، ذلك لأن لديهم المقدمات والبدايات، ويمكن القيام ببعض التخمينات في هذه المسائل وربط الحوادث وتركيبها بعضها مع البعض الآخر.

بينما الأمور الغيبية التي أخبر عنها رسول الله ﷺ لم تكن لها مقدمات ولا بدايات، وما كان بمقدور أي بشر مهما كان عبقريًا أن يخبر عن عُشر معشار ما أخبر الرسول ﷺ من أمور المستقبل وأمور الغيب؛ ذلك لأن العقول لها حدود لا تستطيع تجاوزها. إذ يستحيل معرفة هذه المسائل دون الاستعانة بالوحي أو الإلهام الغيبي. ومن ثم فلم يكن رسول الله ﷺ يعرف هذه المسائل من نفسه، بل لأن الله تعالى كان يخبره بها، وهذا هو سبب تصديق الأيام لكل ما قاله.

٩) قوم مارقون من الدين

في أحد الأيام كان رسول الله ﷺ يقسم الغنائم فأقبل شخص غائر العينين ناتئ الجبين كَثّ اللحية مُشرِف الوجنتين محلوق الرأس، ولعله كان يمثل ظهور أمة في المستقبل، فخاطب رسول الله ﷺ بكل صفاقة قائلاً: يا محمد اِعْدِلْ. قال: «ويلك! ومن يَعدِل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل.»[2]

والرواية إما "خبتَ وخسرتَ" بفتح التاء الأخيرة، أي بضمير المخاطب، أو "خبتُ وخسرتُ" بضم التاء الأخيرة أي بضمير المتكلم. فالرسول ﷺ يريد أن يقول حسب الرواية الأولى: إن لم يكن نبي أمة شخصاً عادلاً فكيف تتعلم تلك الأمة العدالة؟ والناس الذين يعيشون في جو بعيد عن العدالة لا شك يعيشون في خيبة وخسران. ويريد أن يقول حسب الرواية الثانية: لو لم أعدل أُعَدّ من الخاسرين بينما بعثت نبيًا ورسولاً ورحمة للعالمين.. إذن، فلا يمكن ألاّ أعدل.

---

[1] كنز العمال للهندي، ٥٣٩/١٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٢٩٦/٧.

[2] مسلم، الزكاة ١٤٢؛ البخاري، الأدب ٩٥، المناقب ٢٥.

وأراد عمر بن الخطاب ﷺ أن يؤدب هذا الشخص الذي لا يعرف أدب الحديث، فقال لرسول الله ﷺ: ائْذَنْ لي فَأَضْرِبَ عُنُقَه. ولكن رسول الله ﷺ قال: «دعه فإنّ له أصحاباً يَحقِر أحدُكم صَلاتَه مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم يَقرأون القرآن لا يجاوز تَراقيَهم، يَمرُقون من الدين كما يَمْرُق السَهْم من الرَّميَّة، يُنظَر إلى نَصْله فلا يوجد فيه شيء، ثم يُنظَر إلى رِصافه[١] فلا يوجد فيه شيء ثم يُنظَر إلى نَضِيّه[٢] وهو قِدْحُه[٣] فلا يوجد فيه شيء، ثم يُنظَر إلى قُذَذه[٤] فلا يوجد فيه شيء، قد سَبَق الفَرْثَ والدَّمَ،[٥] آيتُهم رَجُلٌ أسودُ إحدى عَضُديْه مثل ثَدْيِ المرأة. أو مثل البَضْعة[٦] تَدَرْدَرُ ويَخرجون على حينِ فُرْقَةٍ من الناس.[٧]

قال أبو سعيد الخدري ﷺ: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ وأشهد أن علي بن أبي طالب ﷺ قاتلهم وأنا معه، فأَمَر بذلك الرجل فالتُمس فأُتي به حتى نظرتُ إليه على نَعْتِ النبي ﷺ الذي نَعَتَه.[٨]

إذن، فالذين مرقوا من الدين مروق السهم هم الخوارج الذين قاتلهم علي بن أبي طالب ﷺ.[٩] وهناك رواية في حديث صحيح: أن الرسول ﷺ قال قاصداً علي بن أبي طالب ﷺ: «إن منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلتُ على تنزيله.»[١٠]

أي إن الناس حاربوني ووقفوا ضدي عند نزول القرآن، وقاتلتهم على ذلك، وسيأتي يوم يفسَّر فيه القرآن تفسيراً خاطئاً ويؤَوَّل تأويلاً خاطئا، وستحارب أنت هؤلاء الناس... وقد حدث هذا كما ذكرت كتب السير.

فكأن ذلك الشخص الغائر العينين، الناتئ الجبين قد خُلق وعامل رسول الله ﷺ تلك المعاملة السلبية لكي يظهر صدق رسول الله ﷺ. ولكن لا يرد على خاطر أحدكم بأنه سيؤجر على هذا... كلا! فكما لا يؤجر الشيطان لتسببه في اكتساب المؤمن ثواباً من الله

---

[١] إلى رِصافه: الرصاف مدخل النصل من السهم. والنصل هو حديدة السهم.

[٢] إلى نَضِيّه: السهم بلا نصل ولا ريش.

[٣] القدح: هو السهم الذي كانوا يستقسمون به.

[٤] قُذَذه: القذذ ريش السهم واحدتها قُذّة.

[٥] سبق الفرث والدم: أي إن السهم قد جاوزهما ولم يعلق فيه منهما شيء. والفرث اسم ما في الكرش.

[٦] مثل البضعة تَدردر: البضعة: القطعة من اللحم. تدردر: تضطرب وتذهب وتجيء.

[٧] البخاري، المناقب ٢٥، الأدب ٩٥؛ المسند للإمام أحمد، ٥٦/٣.

[٨] البخاري، المناقب ٢٥، الأدب ٩٥؛ المسند للإمام أحمد، ٥٦/٣.

[٩] البداية والنهاية لابن كثير، ٣٢٠/٧-٣٢١.

[١٠] المسند للإمام أحمد، ٨٢/٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١٨٦/٥؛ ١٣٣/٩.

بسبب مقاومته لوسوسته، كذلك لا يؤجر ذلك الشخص بسبب أنه كان وسيلة لظهور صدق رسول الله ﷺ. لأنها كانت وسيلة بطريقة غير محببة وغير مؤدبة مع رسول الله ﷺ.

١٠) أُمّ حرام وركوب البحر

كانت أم حرام بنت مِلحان خالة رسول الله ﷺ بالرضاعة في رواية، وفي رواية أخرى قريبة أمه ﷺ وبمثابة خالته. فكان رسول الله ﷺ يزورها من حين لآخر، وقد يستريح عندها. وفي إحدى المرات استراح عندها ثم استيقظ يتبسم. فقالت له أم حرام:

ما أضحكك؟ قال: «أناس من أمتي عُرضوا عليّ يركبون هذا البحر الأخضر كالملوك على الأَسِرّة» قالت: فادْعُ الله أن يجعلني منهم فدعا لها، ثم نام الثانية، ففعل مثلها فقالت مثل قولها فأجابها مثلها. فقالت: أُدْعُ الله أن يجعلني منهم فقال: «أنتِ من الأولى.»[١] فخرجتْ مع زوجها عبادة بن الصامت غازياً أول من ركب المسلمون البحر مع معاوية إلى جزيرة قبرص، فلما انصرفوا من غزوهم قافلين فنزلوا الشام، فقُرِّبت إليها دابة لتركبها فصرعتْها فماتت.[٢] والمسلمون يزورون قبرهما في قبرص من ذلك الوقت حتى الآن ويذرفون الدموع ويدعون لهما؛ ولكن كل قطرة دمع تقع هي بمثابة تصديق لرسول الله ﷺ الذي أخبر خبراً غيبيا، وصدَّقت الأيام والحوادث قوله بكل دقة. وجزيرة قبرص وقبرهما هناك شاهدان لا يمكن لأحد أن يكذبهما.

أجل، إن الأيام تظهر على الدوام صدق كل ما قاله وأخبر به رسول الله ﷺ عندما يحين الوقت المناسب لذلك. لذا، فإننا نجدد على الدوام شهادتنا بأنه رسول الله الصادق الأمين، ونقول بعدد ذرات أجسادنا: "صدقت يا رسول الله!"

أجل، قد تقصر تعابيرنا عن إيفاء هذه المعاني حقها، ولكن كل مؤمن يسمع هذا الصوت في ضميره. وهذا الصوت قوي وهادر إلى درجة أن عدم سماعه أو عدم الالتفات إليه يعد إنكاراً له، وهذا شيء مستحيل.

بـ- المستقبل البعيد

١) بنو قنطوراء

أخبر رسول الله ﷺ بأن قوماً سيظهرون وسيتسلطون على العالم الإسلامي فقال: «فإذا

---

[١] البخاري، الجهاد ٣، ٨؛ مسلم، الإمارة ١٦٠-١٦١.

[٢] الإصابة لابن حجر، ٤/٤٤١؛ البخاري، الجهاد ٨.

كان آخر الزمان جاء بنو قَنْطُوراء عِراض الوجوه صِغار الأعين ذُلْف الأُنوف[١].»[٢]

وتقول كتب التاريخ بأن هؤلاء القوم هم المُغول، والحقيقة أن هناك مصيبتين فادحتين ألمّتا بالعالم الإسلامي وقعت إحداهما في الأندلس من قبل "فرديناند" وكانت أنموذجاً للوحشية الغربية حيث قتل فيها الناس وأحرقت الكتب والمكتبات. والثانية كانت غزو المُغول الذي امتد إلى الأناضول وسورية ومصر، وتم فيه هدم كل معالم الحضارة والتمدن في هذه البلدان وحوّلت إلى خرائب قبل أن يتم انسحابهم.

ولكون رسول الله ﷺ يهتم بأمر أمته وقَدَرها فإنه كان يقوم بتنبيهها بمثل هذه الأخبار، وكأنه يقول لها: عندما تستحق هذه الأمة العقاب فإن الله تعالى يرسل لها الظالمين لتأديبها. فالظالمون هم سيف الله الذي يتم بهم الانتقام أول الأمر، ثم ينتقم الله منهم. أي إن الظالمين لن يهنأوا بظلمهم ولكن الله يسلط الظالمين على المسلمين أول الأمر، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر. وهو يحذر أمته من مثل هذه العواقب الوخيمة ومن التصرف بما يغضب الله تعالى ويجلب سخطه؛ ويصور لهم هذه المصائب والعواقب الوخيمة؛ كل ذلك لكي يتجنبوها، لأنه كان أنموذجاً للرحمة وللشفقة.

وعندما صدقت الأيام وبعد مضي (٦-٧) من القرون على ما تَنبّأ به وما أخبر عنه كانت هذه الأيام والتواريخ تشهد على صدقه وعلى صدق نبوته.

٢) فتح إسطنبول

ينقل الحاكم في "المستدرك" بأن رسول الله ﷺ أخبر بأن أمته ستفتح إسطنبول التي كانت تدعى آنذاك بـ"القسطنطينية". والرواية هي: قال رسول الله ﷺ: «لَتُفتحَنّ القسطنطينية، فلَنِعْمَ الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش.»[٣]

وقد حاول كثير من الحكام العظام والقواد الكبار فتح إسطنبول في كل عهد، لكي يكونوا هم المعنيين بهذه البشارة. ولكنهم أتوا إلى إسطنبول ثم رجعوا عنها. فها هو الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري -الذي يعد ضريحه في إسطنبول جوهرة ثمينة في صدرها- شاهد من الشهود حول مجيء الكثيرين إلى أسوار إسطنبول ثم رجوعهم عنها. وأنا في الحقيقة أشعر بالحرج لأنني أضطر إلى تكرار معلومات يعلمها الجميع؛

---

[١] ذلف الأنوف: في أنوفهم فطس وقصر، مع استواء الأرنبة وغلظها. (المترجم).

[٢] البخاري، الجهاد ٩٥، ٩٦؛ أبو داود، الملاحم ١٠؛ ابن ماجه، الفتن ٣٦؛ المسند للإمام أحمد، ٤٠/٥، ٤٥.

[٣] المستدرك للحاكم ٤٢٢/٤؛ المسند للإمام أحمد، ٣٣٥/٤.

وأعُدّ هذا مضيعة للوقت ولكني مع هذا أضطر إلى الوقوف حول مسألة أو مسألتين:

إن "اولوباطلي حسن" الذي تسلق أسوار إسطنبول في يوم فتحها لم يكن جنديًّا عاديًّا بل خِرّيج مدرسة "أندرون" التي كانت أفضل المدارس آنذاك وصديق دراسة لـ"محمد الفاتح". كان هؤلاء آنذاك بضعة أشخاص منهم "خضر جلبي" القاضي الأول لإسطنبول و"اولوباطلي حسن" ثم الفاتح الكبير محمد الثاني... فهؤلاء الثلاثة درسوا معاً ونشأوا معاً وكانوا طلاباً في حلقة الدراسة نفسها.

تسلق "اولوباطلي حسن" أسوار إسطنبول واستطاع أن يثبت العَلَم العثماني على أسوارها على الرغم من أن جسمه قد أثخن من كثرة الطعنات والجروح. وبعد قليل كان محمد الفاتح بجانبه، فرأى ابتسامة عريضة ترتسم على وجه هذا البطل المسجّى على الأرض، سأله بِحَيْرة: "ما هذه الابتسامة على شفتيك يا حسن؟" أجابه: "لقد كان رسول الله ﷺ يتجول هنا... لقد شاهدت وجهه الجميل... هذا سبب سروري".

وقد أخبر ﷺ بنبأ هذا الفتح قبل تسعة قرون... وها هو في يوم الفتح يتجول بين أبطال هذا الجيش الفاتح. وأنا أقول دائماً استناداً إلى هذا وسأقول بأنه لو اجتمع ثلاثة أنفار معاً بإخلاص قلب وصفاء نية لخدمة الدين فلا بد أن روحانية رسول الله ﷺ ستكون معهم وتباركهم.

وهكذا كان فتح إسطنبول ومن قبله استشهاد الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري دليلاً آخر وشاهداً على صدق رسول الله ﷺ؛ ذلك لأنه كان من أوائل من سمع بشرى فتح هذه المدينة. فتَحمّل مشقة الخروج للجهاد من المدينة المنورة حتى الوصول إلى هذه المدينة البعيدة، وأوصى بدفنه عند أعتاب أسوارها.[1]

٣) الوهن

أخبرنا الرسول ﷺ عن الحوادث القريبة من عصرنا وزماننا، فمن ذلك قوله ﷺ: «يوشك الأمم أن تَداعَى عليكم كما تَداعَى الأَكَلةُ إلى قَصْعَتها.» فقال قائل: ومِن قِلّة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غُثاء كغثاء السيل، ولَينزعَنّ الله من صدور أعدائكم المهابة منكم وليقذِفَنّ الله في قلوبكم الوَهَن.» فقال قائل: يا رسول الله وما الوَهَن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت.»[2]

---

[1] الإصابة لابن حجر، ١/٤٠٥.

[2] أبو داود، الملاحم ٥؛ المسند للإمام أحمد، ٥/٢٧٨.

عند إلقاء نظرة واحدة إلى هذا الحديث نفهم منه أنه سيأتي يوم تتداعى علينا الأمم وتتجمع ضدنا؛ وأنها ستقوم بنهب ثرواتنا الظاهرة منها والمخفية تحت الأرض؛ وتتقاسم هذه الثروات فيما بينها بعد أن تضع يدها عليها بكل وقاحة؛ وأننا سنقوم بوضع مائدتنا أمامهم وتهيئة اللقم لأفواههم؛ وأنهم سيبتلعون ما وضع أمامهم بشهية لا تَعرف الشبع... ولماذا يكون كل هذا؟ لأننا آنذاك لسنا أمة أصيلة مثل شجرة باسقة، بل نشبه الزبد والأوساخ التي تجرفها السيول... أجل، فمقابل خلافاتنا الفكرية والمزاجية التي مزّقتْنا شيعاً وأحزاباً، وحّدت المنافع والمصالح الدنيوية أعداءنا، وجعلتهم جبهة واحدة ضدنا فغلبونا وأذلونا.

كان الأعداء يخشوننا سابقا، لأننا كنا لا نخشى الموت مثلهم، بل نُقبل على الموت فرحين مستصغرين الدنيا ونراها لا تساوي شيئاً بالنسبة للآخرة؛ أما الآن فقد أصبحنا نخشى الموت ونحب الحياة الدنيا ونتعلق بها أكثر منهم، وهم يعرفون ضعفنا هذا ويستغلونه أبشع استغلال فيضربوننا في الصميم.

قد يبدو هذا الحديث لأوّل وهلة وكأنه يتحدث عن الحروب الصليبية ويخبر عنها، ولكن إن تمعّنّا قليلاً لرأينا أنه ينطبق وبوضوح تامّ على الحوادث القريبة أيضاً.

كتب السيد "رائف قَرَه داغ" كتاباً أسماه "عاصفة البترول"، وقد اغتيل بسبب كتابه هذا، لأنه شرح في هذا الكتاب ما تَعرّض له الأتراك في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين من غدر وخيانة، كما شرح المؤامرات التي حاكها الأعداء.

كلنا يعرف كيف تكالب الأعداء على الدولة العلية العثمانية، فقد كان كل همهم الاستيلاء على ثرواتها ما ظهر منها وما بطن؛ وكان هذا التكالب والافتراس وحشيًّا بدرجة أفظع من أشد الحروب الصليبية شراسة... أجل، فقد دعا بعضهم بعضاً إلى هذه المائدة واقتسموا ثروات البلاد فيما بينهم ونهبوها.

كانوا كما وصفهم الشاعر محمد عاكف:

"بلايا مختلفة...

بعضهم من الهنود،

وبعضهم من آكلي لحوم البشر...

وبلايا أخرى لا أعرفها."

هذه البلايا اجتمعت ونهشت جسد الدولة العثمانية ومزقته إرباً إرباً ونهبت ثروتها وسرقتها. هجم علينا الصليبيون في الماضي تحت تأثير فكرة معينة، وكانت هذه هجمة

الشخص الأوروبي الساذج الأحمق. فالجموع الأوروبية الساذجة المخدوعة كانت تتصور أنها آتية لإنقاذ قبر مريم العذراء.

وما كانوا يعرفون بأننا نبجل ونحترم مريم العذراء أكثر منهم، ذلك لأننا نعتقد أن مريم العذراء ستكون زوجة لرسولنا ﷺ في الجنة، أي إننا ننظر لها كأم للمؤمنين،[١] ولو كانت سيدتنا مريم العذراء حية لكنا نحن المدافعين عنها ضد أي شخص يريد مسها بأذى من قريب أو بعيد.

ما أريد أن أقوله هنا هو أن الإشارات الواردة في أحاديث رسولنا ﷺ ليست في حق الحروب الصليبية التي كانت نتيجة لمثل هذا التفكير الباطل والاعتقاد الخاطئ، بل هي تومئ إلى الحوادث المرعبة التي جرت في تاريخنا القريب والتي تجري الآن بكل ضراوتها وقسوتها؛ فالغرب لا يزال متفقاً ضدنَا ولا يزال العالم الإسلامي مائدة مفتوحة أمامه، ولم يتخلص بعد من هذا الوضع. إذن، فما قيل قبل أربعة عشر قرناً لايزال يتحقق بحذافيره، ونحن نعيش هذا الواقع الآن.

٤) فتنة الشيوعية

يروي عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ توجه يوماً نحو الشرق وقال: «ألا إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قَرْنُ الشيطان.»[٢]

فهناك احتمال قوي أن الرسول ﷺ كان يريد بهذا الحديث الإشارة إلى الفتنة التي ستظهر من جهة الشرق كبديل لأوروبا الظالمة. وكلمة "قرن" الواردة في الحديث تأتي بمعنى القرن الموجود في الحيوانات، أو تأتي بمعنى "العصر"، وأنا أرى أن المعنى الأخير هو المعنى المقصود، أي أن القرن هنا يأتي بمعنى العصر أو العهد، أي أن "قرن الشيطان" معناه "عصر وعهد الشيطان" وهو نقيض "عهد النبوة". فهذا النظام الشيوعي قائم على الإلحاد وعلى الإباحية وعلى جميع المفاسد الشيطانية التي تحاول التسلل إلى القلب عن طريق النفس الأمّارة... ومع أن هذا النظام الشيوعي الذي يُعَدّ الابن غير الشرعي للنظام الرأسمالي يحتضر في هذه الأيام إلا أنه لا يزال يعد ألد أعداء الدين والمقدسات والمواريث التاريخية، ولا يزال كابوساً مخيفاً،[٣] وأنا أعتقد أن رسول الله ﷺ يطلق على هذا العهد الذي

---

[١] كنز العمال للهندي، ١١/٤٢٤.

[٢] البخاري، الفتن ١٦؛ مسلم، الفتن ٤٥؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٥٠، ٧٢.

[٣] أطلقت هذه الكلمات سنة ١٩٨٩ م.

سيطر فيه هذا النظام الشيوعي على مساحات واسعة من العالم... يطلق عليه "العهد الشيطاني" أو "القرن الشيطاني" ويحذر أمته من هذا الوباء ومن هذا البلاء.

٥) كنـــز نهر الفرات

يقول الرسول ﷺ: «يوشك الفُراتُ أن يَحسِر عن كنز من ذهب -أو جبل من ذهب- فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً.»[١]

لقد جرت مقاتل كبيرة بالقرب من نهر الفرات حتى الآن. وإذا تناولنا التاريخ القريب نرى قتالاً كبيراً جرى بين العراق وإيران قرب نهر الفرات. وفي سنة ١٩٥٨ وقعت قرب نهر الفرات مجزرة قتل فيها أحفاد الرسول ﷺ.

إن هاتين الحادثتين لا يصح إيرادهما كتفسير للحديث الشريف أعلاه، غير أنه حتما يشير إلى حادثة مستقبلية ستجري هناك. مثلا قد تصبح مياه الفرات ثمينة مثل الذهب في عهد من العهود في المستقبل، والحديث يشير إلى هذا بشكل مجازي، أو أن الواردات التي سيتم الحصول عليها بعد إنشاء الخزانات والسدود عليه ستكون ثمينة وقيمة مثل الذهب. أو قد يكون معناه بأن مياه الفرات ستنحسر تماماً وتكتشف تحتها منابع نفط غنية أو مناجم ذهب. ولكن مهما يكن فلا شك أن هذه المنطقة منطقة نهر الفرات ستكون مثل قنبلة موقتة وخطرة للعالم الإسلامي.

هذه الأمور والحوادث لم تظهر حتى الآن، فهي من الحوادث المستقبلية، وسيهتف الأقوام الذين سيدركون ويشاهدون تحقق هذه النبوءة "صدقت يا رسول الله!" وسيجددون إيمانهم.

٦) رجوع المسيحية إلى نقائها القديم

ينبئنا الرسول ﷺ بأن المسيحية ستنقرض وتزول وستتحد مع الدين الإسلامي.[٢]

أجل، فعندما يقوم الملحدون بإلقاء القبض على المؤمنين، يقوم الذين بيدهم القوة الجوية بنصرة المؤمنين بعون من الله تعالى رغم أنوف الملحدين حيث سيكسرون شوكة الملحدين.

في هذه الحرب العالمية ستملأ الجثث كل مكان... وستقوم النسور بنقل هذه الجثث المنتشرة في كل مكان على سطح الأرض، والنسور هنا رمز لمؤسسة معينة وتحمل معنى خاصًّا وإيماءة خاصة.

---

[١] البخاري، الفتن ٢٤؛ مسلم، الفتن ٣٠؛ أبو داود، الملاحم، ١٣.

[٢] انظر: مسلم، الإيمان ٢٤٤-٢٤٧.

٧) الإصلاحات في الزراعة

ستكون هناك تطورات وقفزات في الزراعة، ونتيجة هذه التطويرات ستكون ثمرة الرمان ثمرة ضخمة تكفى الواحدة منها عشرين شخصاً. ويستطيع الشخص أن يستظل في ظل قِحْفها.[١] كذلك ستكون حبات القمح حبات ضخمة. هذه الأمور غير موجودة حالياً ولا نراها ولكنها ستكون موجودة في المستقبل بكل تأكيد، ستكون مصداقاً لنبوة رسولنا ﷺ ووسيلة لزيادة الإيمان به، لأن العصور والقرون ستكون شاهدة ودليلاً على صدقه.[٢]

إننا مفتونون بالمستقبل الذي سيولد من رحم الغيب، ولكننا في هذا المستقبل لن نجد سوى نوره ﷺ... فإذا انطفأ هذا النور فستصبح الحياة ظلمة أبدية.

٨) عدم التوازن في أيامنا الحالية

لنرجع إلى الأخبار والإشارات المتعلقة بزماننا الحالي. يقول رسول الله ﷺ:

«إن بين يدي الساعة تسليم الخاصَّة وفُشُوُّ التجارة حتى تُعِين المرأة زوجها على التجارة، وقَطْعَ الأرحَام وشهَادة الزُّور وكتمَان شهَادة الحق وظهُور القَلم.»[٣]

يصف هذا الحديث أيامنا الحالية وصفاً لا يحتاج إلى أي تأويل أو تفسير.

ستروج التجارة إلى درجة أن مقادير هائلة من رؤوس الأموال بالملايين وبمئات الملايين بل المليارات من الدولارات تستخدم فيها، إذ أن الملايين تصرف في الإعلانات وحدها، وكثيراً ما تستخدم المرأة في هذه الإعلانات وأحياناً تكون المرأة شريكة مباشرة في التجارة فتنزل إلى الأسواق وإلى المعارض، ولا يذهبن الظن بأحدكم بأنني ضد التجارة، وإنما أريد فقط الإشارة إلى صحة ما ورد في كلام رسولنا ﷺ.

وستنقطع صلة الأرحام، فحقوق الأم والأب وحقوق الأقارب سوف تهمل ولا يرعاها أحد، ولا يلتفت إليها بل تداس تحت الأقدام. وعندما يشيخ الأب والأم ويتقدم بهما العمر ويصبحان في حاجة إلى الرعاية والاهتمام والحنان يرسلان إلى دار العجزة وإلى دور المسنين لعلهما يجدان العناية التي لا يجدانها في بيتهما. هذا على الرغم من أن الله تعالى ذكر بأن حقوق الوالدين تأتي مباشرة بعد حقوقه ﷻ.[٤] ولكن وصايا الله تعالى ستهمل ولا

---

[١] قِحْفُ الرُّمّانة: قِشْرها. (المترجم)

[٢] مسلم، الفتن ١١٠؛ الترمذي، الفتن ٥٩؛ المسند للإمام أحمد، ١٨٢/٣.

[٣] المسند للإمام أحمد، ٤٠٧/١-٤٠٨؛ المستدرك للحاكم، ٩٨/٤.

[٤] انظر هذه الآيات: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسرَائِيلَ لاَ تَعبُدونَ إِلاَّ اللهَ وَبالوَالِدَينِ إِحسَاناً﴾ (البقرة:٨٣)، ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (النساء:٣٦)، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾(الإسراء:٢٣).

يلتفت إليها أحد، وسيتعرض الآباء والأمهات إلى معاملات وحشية ومهينة وإلى عقوق كبير. أتنطبق هذه الشروح على أيامنا الحالية أم لا؟ سأترك هذا لفطنة القراء.

سيزداد تقدير القلم أي التأليف والكتابة وستعمل المطابع ليل نهار لتخرج مئات وآلاف الجرائد والمجلات والكتب، وستقوم دور النشر والطبع بطبع ونشر الكتب ودوائر المعارف، وستمتلئ رفوف المكتبات بآلاف من مختلف الكتب، وستنقلب الكتابة إلى مهنة رائجة ويحترم الكتاب والمؤلفون. وسيروج الكذب وشهادة الزور حتى تندر الشهادة الصادقة، إذ ينقلب المجتمع إلى مصنع لإنتاج وترويج الأكاذيب، وستستند الحياة الاجتماعية إلى الكذب والتلفيق والخيانة.

والموضوع يكتسب وضوحاً شديداً إلى درجة أن بعضهم قد يتساءل: "أصحيح أن هذا الكلام يعود لرسولنا ﷺ؟"

والإجابة على هذا السؤال بسيط جدا، فهذا الحديث مدون قبل ثلاثة عشر قرناً وهو موجود في كتب الحديث منذ ذلك الوقت. فإن لم تكن هذه الأقوال عائدة لرسول الله ﷺ فإلى من تعود؟ ومن يستطيع شرح وبيان الأحداث التي ستأتي بعده بعدة قرون وعصور وكأنه يراها رأي العين..؟ من يستطيع ذلك غيره؟ ثم لو كانت هذه الأقوال لشخص آخر غيره فإن معنى هذا أن صاحبها يملك رؤية نورانية نحو المستقبل كرؤية الرسول ﷺ. ولكن هل وجد في التاريخ رجل آخر يمكن أن يكون ندًّا أو شبيها له لكي تسند هذه الأقوال إليه؟ كلا... فهذه الأنباء عن الغيب تعود لرسول الله ﷺ، فقد علمه ربه وقام هو بإخبارنا وإعلامنا. أجل، فهذه الحوادث التي ظهرت في أيامنا دليل قاطع على مدى صدق رسول الله ﷺ.

٩) انتشار العلم

جاء في حديث قدسي أن الله تعالى يقول: «أبُثّ العلم في آخر الزمان حتى يعلمه الرجل والمرأة والعبد والحر والصغير والكبير.»[1]

فالناس على اختلاف طبقاتهم اليوم يدرسون في مختلف المدارس ذات المستويات المختلفة، وأصبحوا يتنافسون في الحصول على العلم. فكثرة الجامعات والمدارس وانتشار أجهزة الاتصال والمخابرة واستعمالها في مجال نشر العلم يدلنا على أن ما نقله الرسول ﷺ عن ربه هو إشارة إلى عصر العلم والمعرفة، وأن التطورات الحاصلة في هذا المجال تؤيد هذه النبوءة وتصدقها. فكأن هذه المؤسسات العلمية تقول بلسان حالها لرسولنا "أنت

[1] الدارمي، المقدمة، ٢٧.

صادق في كل كلامك" بل إن العلوم نفسها ستقول هذا بعد أن تحول إلى مجراها الأصلي والحقيقي.

١٠) الفرار من القرآن

هناك حديث آخر ينطبق أيضاً على أيامنا حيث يقول: «لا تقوم الساعة حتى يُجعل كتابُ الله عاراً ويكون الإسلام غريباً.»[١]

فبينما يظهر الكافر كفره بكل صراحة وبكل علانية، فسيخجل المسلم من إسلامه، ولا يصرح به إلا وهو محرج. وبينما يعلن الكفار عن أفكارهم وعن مطبوعاتهم وكتبهم في كل مكان، لا يستطيع المسلم فتح المصحف وقراءته علنا، وستكون الضغوط النفسية قاسية وثقيلة إلى درجة أنه ما من شخص يستطيع إعلان أنه من أنصار القرآن دون أن يشعر بالخجل حتى ولو لم يكن هناك قانون يمنع هذا. أيستطيع أحد أن ينكر هذه الحقيقة الواضحة الآن؟ أوليست هذه إحدى المآسي التي يعيشها المسلم الآن؟ ألم يرجع الإسلام غريباً؟

والآن دعونا نختم تصوير هذه الأحوال المؤلمة لنقول إن رسولنا ﷺ أخبرنا ومنذ عدة قرون بما سيحدث مستقبلا، وكلما جاء زمن ذلك الخبر ظهر بشكل يوافق كلامه في كل شيء ويصدقه حتى في تفاصيله الدقيقة. ليت شعري! ألا يكفي هذا لكي نرجع ونجدد البيعة له؟

١١) مفهوم الزمن

وفي حديث آخر يقول الرسول ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكون القرآن عاراً ويتقارب الزمان وتنتقض عراه.»[٢]

وكلمة "التقارب" الواردة في الحديث تعني اقتراب شيئين من بعضهما، وهذا يشير من جهة إلى نسبية الزمان، ومن جهة أخرى إلى أن الأمور التى كانت تأخذ وقتاً طويلاً لإنجازها في العهود السابقة ستنجز في وقت قصير. فمن المعلومات البديهية التي يعلمها الآن حتى الأطفال أن التقدم الصناعي والتكنولوجي جعلنا ندخل إلى عالم من السرعة المذهلة في كل ناحية من نواحي حياتنا. وكما يشير الحديث الشريف إلى هذا الأمر فإنه يشير من ناحية أخرى إلى وسائط النقل السريعة التي قربت المسافات. كما أود الإشارة إلى مسألة يعرفها من يعمل في مجال علم الفلك والفيزياء الفلكية. وهي أن الأرض تأخذ تدريجيّاً وبمرور الزمن شكلاً بيضوياً، وهذا التغير يؤثر على الزمن وعلى ساعاتنا دون أن نشعر. وهناك معنى آخر أفهمه من

---

[١] كنز العمال للهندي، ١٤/٢٤٤.

[٢] مجمع الزوائد للهيثمي، ٧/٣٢٤.

هذا الحديث وهو: أن للزمن ماهية نسبية، ولكن مع هذا فأينما كان فالزمن هو زمن، فلو ذهبت مثلاً إلى برج الثور ونظرت من هناك إلى سحابة تبعد عنك أربعين مليون سنة ضوئية وتتحرك بسرعة ١٥٠ ألف كيلومتر في الثانية فستشاهد أزماناً مختلفة.

ولو استطاع الإنسان يوماً الخروج خارج المجموعة الشمسية فلا شك أن المفهوم الحالي للزمن سينقلب عنده رأساً على عقب. وهكذا فبوساطة كلمتين سحريتين وهما "تقارب الزمان" يشير رسول الله ﷺ إلى ما سيحدث من تغير في مفهوم الزمن عندنا.

ولنا أن نتساءل الآن: أمثل هذا القول قول بشر؟ من غير صاحب الزمان والمكان الذي يغيرهما بيد القدرة... من غيره كان يعلم مثل هذه الحقائق..؟ أكان هذا العلم ضمن قدرة شخص أمي عاش في بيئة أمية..؟ كلا طبعاً. فالله هو الذي علمه هذا من علمه وقام ﷺ بتبليغنا بذلك.

الأيام والشهور والأعوام والعصور تمضي والعلم والتقنية تتقدمان بخطوات جبارة، وعندما يتم الوصول إلى الهدف نرى هناك الحقائق التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ قبل عدة قرون، فلا يستطيع رجل العلم أن يخفي إعجابه فيقول من كل قلبه "أنت هو الصدق بعينه يا رسول الله!"

١٢) انتشار الربا

سيأتي يوم ينتشر فيه الربا ويفشو حتى لا يستطيع أن يتخلص منه من لا يتعامل به إذ سيصيبه غباره. وهناك حديث حول هذه العلة التي تعد من أكبر العلل الموجودة في يومنا هذا، والتي تنتشر انتشار السرطان كل يوم وتتوسع.

«ليأتين على الناس زمان لا يبقى منهم أحد إلا آكل الربا فمن لم يأكل أصابه من غباره.»[1]

هناك نقطتان تجذبان الانتباه في هذا الحديث:

الأولى: بما أن جميع مبالغ الدولة ونقودها تنطبخ في قدور الربا، وبما أن جميع المصارف - الربوية منها وغير الربوية- وجميع المؤسسات المالية حتى غير الربوية منها يتعامل بعضها مع البعض الآخر، فإن الإنسان مهما أراد الحيطة في هذا الموضوع فلا بد أن يصيبه شيء من هذه العلة التي أحاطت بكل مظاهر الحياة واحتوتها، أي سيطفر إليه أيضاً شيء منها. ولا يستطيع الإنسان أن ينجو منها إلا بنيته، أي إن نيته هي حصنه وملاذه الوحيد.

---

[1] ابن ماجه، التجارة ٥٨؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٤٩٤؛ النسائي، البيوع ٢.

الثانية: هناك معنى آخر في اللغة العربية لتعبير "أصابه من غباره" الوارد في الحديث: إذ يقوم قسم من الناس بأكل الربا، أما الذين لا يأكلونه فسيصيبهم غباره. فالرأسماليون سينمون ثرواتهم بالربا ويضاعفونها به؛ وفي الوقت نفسه ستزداد الطبقة العاملة بؤساً وفقراً بنفس النسبة؛ مما سيؤدي في النهاية إلى صراع بين هاتين الفئتين وإلى تصاعد غبار المعركة المحتدمة بينهما؛ مما يغرق المجتمع في اضطرابات وفتن لا أول لها ولا آخر. ولا ينجو أحد من مشاكل ومصائب هذا الصراع وهذه الفتنة. وأنا أعتقد بأن كل هذا قد حصل وهو يحصل الآن. والإنسان المعاصر يشاهد ما أشار إليه الحديث لكلا هذين الأمرين ويقاسي منهما؛ فلم تعد هناك اليوم مؤسسة لم تتلوّث بالربا من قريب أو بعيد،؛ فالتجارة العالمية كلها تدور اليوم حول محور الربا؛ والمعاملة الربوية في العالم كله تَلقى قبولاً عامًّا وتُعدّ بمثابة تبادل نقدي.

قام رسول الله ﷺ بتحذير أمته قبل عدة قرون من هذه الأزمة التي يتعرض لها الإنسان المعاصر، وطلب منها أن تكون منتبهة ويقظة وإلا وقعت في مستنقع الربا؛ ولكنه لا يبدي أي محاولة جدية للخروج منه؛ هذا مع العلم أن الإسلام دين أعلن الحرب على الربا.[1]

لو أن المسلمين فهِموا جزءاً من هذا التهديد القرآني؛ لَما كانوا من آكلي الربا، ولما كانت أمتهم من أكثر أمم الأرض بؤساً وفقراً.

١٣) زمان استخفاء المؤمن

حديث آخر يصور عهدنا وهو: «يأتي على الناس زمان يستخفي المؤمن فيهم كما يستخفي المنافق فيكم اليوم.»[2]

سيقوم المؤمن باستعمال الأساليب والوسائل نفسها التي كان يستعملها المنافق في عهد الرسول لكي لا يكشف نفسه؛ سيخفي نفسه وسيخفي عبادته وصلاته، وإلا تعرض لمضايقات وآلام كثيرة. ذلك لأن الطغمة الفاسدة والشريرة لا ترضى أبداً بإعطاء فرصة لأمثال هؤلاء للعيش فيما بينهم. فأبواب العمل وكذلك بعض أقسام الوظائف الحكومية تكون مسدودة أمامهم، ويكونون مهانين ومبعدين عن المجتمع.

وهناك حديث آخر يقوي هذا المعنى: «ستكون فتنة يفارِق الرجل فيها أخاه وأباه؛ تطير

---

[1] انظر الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنتُم مُؤمِنِينَ ۞ فإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَربٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَموَالِكُمْ لاَ تَظلِمُونَ وَلاَ تُظلَمونَ﴾ (البقرة:٢٧٨-٢٧٩).

[2] كنز العمّال للهندي، ١١/١٧٦.

الفتنة في قلوب الرجال منهم إلى يوم القيامة حتى يعيَّر الرجل فيها بصلاته كما تُعيّر الزانية بزناها.»[١] ومن الطبيعي أن تعيير المرأة بالزنى هو تشبيه لدرجة عيب الزنا آنذاك؛ غير أن الزنى أصبح الآن أمره هينا، بل يعد مهنة في بعض الأوساط.

أجل، فإذا قمنا بوضع بعض العهود التي أهين فيها الإنسان بسبب صلاته.. إذا وضعنا هذه العهود جانبا.. فإن هناك عهوداً قادمة سيُحتقر فيها المؤمن وستُعد الصلاة أمراً معيباً من قبل الفئات الحاكمة والظالمة التي سيئنّ المؤمنون تحت قبضتها القاسية، ولا يجدون أمامهم حلاً سوى إخفاء صلاتهم وعباداتهم.

١٤) النفط في الطالَقان

يقول رسول الله ﷺ: «ويحاً للطالَقان! فإن لله فيه كنوزاً ليست من ذهب ولا فضة.»[٢]

وكلمة "ويح" تستعمل في العربية لبعض البشارات التي تشبه الابتسامة المُرّة. فعندما أخبر رسولنا ﷺ عمّار بن ياسر أنه سيستشهد استعمل التعبير نفسه فقال: «ويحك يا عمّار!»[٣] أما الطالَقان[٤] فهي اسم لمنطقة غنية بالبترول في قزوين، أي أن مآل الحديث هو ما يلي: «ويحاً للطالَقان! فإن لله فيها كنوزاً ليست من ذهب ولا فضة.»

وقد تكتشف في هذه المنطقة معادن أخرى كاليورانيوم أو الألماس؛ ولكن هذا لن يغير النتيجة؛ فرسولنا تَحدّث عن كنوز ليست من ذهب ولا فضة وقد ظهرت هذه الكنوز في أيامنا هذه.

إذن، فحتى البترول الذي تم اكتشافه في طالَقان يصدّق رسول الله ويعترف بنبوته.

١٥) اتباع أهل الكتاب

أخبرنا الرسول ﷺ بأن العالم الإسلامي سيقوم بتقليد الأمم السابقة، أي بتقليد اليهود والنصارى خطوة فخطوة حتى لو أن واحداً منهم أدخل رأسه في جحر ضَبّ لَقلّده المسلمون وأدخلوا رؤوسهم في الجحر. ويشرح الرسول ﷺ هذا الأمر بكلماته البليغة الوجيزة: «لتتّبعُنّ سَنَن الذين من قبلكم شِبْراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا في جُحْر ضَبّ لاتبعتموهم.» قلنا: يا رسول الله! اليهودَ والنصارى؟ قال: «فمن؟»[٥]

---

[١] مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٠٧/٧.

[٢] كنز العمال للهندي، ٥٩١/١٤.

[٣] البخاري، الصلاة ٦٣؛ مسلم، الفتن ٧٠-٧٣؛ المسند للإمام أحمد، ١٦١/٢، ١٦٤.

[٤] الطالَقان: بلدتان إحداهما بخراسان بين مَرْوْ الروذ وبَلْخْ. (المترجم)

[٥] مسلم، العلم ٦؛ البخاري، الأنبياء ٥٠.

وموقفنا اليوم وموقف العالم الإسلامي اليوم معلوم للجميع. لقد فقدنا شخصيتنا وبدأنا نئنّ تحت أزمات فقدان الهويّة؛ وأصبحنا أشبه بالغنم الحائر بين قطيعين. لقد أصبحت العوامل التي كانت في وقت من الأوقات كافية لهدم الدول الأخرى والقضاء عليها تحيط بنا من كل جانب كالأخطبوط. وبدلاً من الانتباه والحذر فإننا لِغفلتنا حسبنا شباك الموت هذا من علامات المدنية وشروطها. أجل، فما من أمة في العالم قلدت الغرب في أي عهد من العهود مثل تقليدنا له والذي أصبح يحمل صفة الإدمان المزمن؛ فما من شيء جديد يظهر في الغرب حتى نقبله هنا دون أي تدقيق أو تمحيص؛ وأحياناً تفوق سرعة قبولنا له الكثير من الأمم الغربية. هذا بينما كان رسول الله ﷺ يخالفهم حتى في الكثير من المسائل الثانوية والفرعية.[1]

وليست هذه المسألة مناط بحثنا، لذا لا نريد تفصيلها. ولكن الأمر الذي نريد الوقوف عنده والتأكيد عليه هو قيام رسول الله ﷺ بإخبارنا بحدوث هذه المسائل والحوادث قبل عصور وقرون عديدة؛ ولقد وقعت وتحققت هذه الحوادث في حينها وساعتها. فكل حادثة تتجلّى عند كلام رسول الله ﷺ بشكل بشارة أو إنذار، تقوم بتصديق رسول الله ﷺ بلسان فصيح عندما يأتي وقتها.

ثالثاً: الأخبار المتعلقة بالعلوم المختلفة

سنتناول في هذا الفصل بشكل مجمل ما قاله رسول الله ﷺ حول المسائل المتعلقة بالعديد من العلوم وذلك كدليل وشاهد على صدقه.

يقوم رسول الله ﷺ بإيراد قول مّا، ثم ينقضي أربعة عشر قرناً وتقطع العلوم والمعارف الإنسانية أشواطاً بعيدة وتتقدم بسرعة مذهلة؛ فإذا بالعلماء الكبار -كل في ساحته- يصدق على قوله ﷺ ويعترف به باسم العلم وبلسانه. فما من حديث لرسول الله ﷺ تعرّض لتكذيب أو لتخطئة.

إن العلوم والتكنولوجيا التي بدأت تخطو للأمام خطوات جبارة وسريعة أدارت ظهرها للعلماء ووقفت بأدب وخشوع أمام رسول الله ﷺ لكي تقول له وهي تنحني أمامه: "صدقت." وما كان يمكن أن يحدث إلا هذا، ذلك لأنه رسول من عند الله.

وهنا سنقوم بإيراد بعض الأمثلة فقط، وندع التحليل العلمي لهذه المسائل للكتب والمجلات المتخصصة في هذه المواضيع.

---

[1] أبو داود، الصلاة ٨٨؛ المسند للإمام أحمد، ٥/٢٦٤-٢٦٥.

أ . الدواء لكل داء

قال رسول الله ﷺ في حديث رواه البخاري وابن ماجة رحمهما الله: «ما أنزل الله داء إلا أنزل به شفاء.»[١]

أي ليس هناك من مرض إلا وقد خلق الله تعالى له دواء وشفاء. وليس هناك أي قول آخر يشجّع على استحصال العلم ولاسيما في ميدان الطب والسعي فيه مثل هذا القول الوجيز الجامع والشامل؛ فقوله هذا يعني أنه ما من داء إلا وله دواء، أي يمكن العثور على أدوية لكل الأمراض الموجودة وذلك بعد توفيق الله وعنايته.

وفي رواية أخرى: «لكل داء دواء.»[٢] وفي حديث شريف آخر: «تداووا فإن الله ﷻ لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهرم.»[٣]

ولو وجدوا طريقة لإطالة العمر ولتأخير الموت بشكل مؤقت فإنهم لن يستطيعوا الحيلولة دون المصير المقدر والطريق المرسوم للموكب الإنساني.. هذا الطريق الذي يبدأ من عالم الروح ويمر من مرحلة الطفولة فالشباب فالشيخوخة وينتهي إلى القبر ومنه إلى الحشر.. ثم ينتهي إمّا إلى الجنة أو إلى الجحيم. وليس في الإمكان سد هذا الطريق أبدا. فلابد للإنسان أن يولد ويكبر ثم يشيخ ويموت. ولكن خارج هذا الأمر فهناك أدوية لكل داء، وعلاج لكل مرض. المهم أن يتم البحث عنه واكتشافه.

ورسول الله ﷺ بهذه الأحاديث وبأحاديث أخرى مشابهة يدعو أهل العلم جميعاً وجميع من آتاهم الله موهبة وفضلا، وجميع الباحثين إلى تكثيف جهودهم وبذل مساعيهم لاكتشاف الأدوية ووسائل العلاج؛ ومن ثم فلتخصِّصوا من مبالغكم ومن ثرواتكم ما يكفي لإنشاء معاهد البحوث؛ ولتدققوا وتسيطروا على الطريق الواسع الممتد من مرحلة الطفولة حتى شاطئ الموت. فالقرآن الكريم دعا إلى هذا وحثّ على العلم وجعل معجزات الأنبياء مَثلاً أعلى في هذا. أجل، فكما كان الأنبياء قدوة حسنة في عالم الروح والمعاني السامية لإنقاذ البشرية من الطرق الملتوية إلى الصراط المستقيم، كذلك كانوا هداة ومرشدين في ساحة العلوم الصرفة؛ أي في الساحة التي يجول فيها العقل الإنساني ويصول. وأصبح كل نبيّ أستاذاً في ساحة من هذه الساحات ومرشداً وهادياً.

---

[١] البخاري، الطب ١؛ ابن ماجه، الطب ١.

[٢] أبو داود، الطب ١١؛ مسلم، السلام ٦٩؛ المسند للإمام أحمد، ٣/٣٣٥.

[٣] الترمذي، الطب ٢؛ ابن ماجه، الطب ١؛ المسند للإمام أحمد، ٤/٢٧٨؛ أبو داود، الطب ١.

ومن ثم يمكن القول بأن البشرية استلمت مفاتيح الهداية المادية والمعنوية من أيدي الأنبياء. أجل، فإن شرح معجزات الأنبياء في القرآن الكريم تشويق للبشرية وحث لها لكي يبلغوا ويصلوا إلى تلك الحدود النهائية التى خطها الأنبياء بمعجزاتهم.

فمثلاً قام المسيح عليه السلام بإحياء الموتى بإذن الله. كما نقل لنا ذلك القرآن الكريم. إلا أن هذه هي الحدود النهائية للطاقة الإنسانية. لماذا؟ لأن القوانين تنتهي هناك، ومن بعدها تبدأ الأمور الخارقة. فالقدرة الإنسانية والطاقة الإنسانية والإرادة الإنسانية لا تستطيع تجاوز إطار القوانين الفطرية. أجل، فمهما ترقّى العلم الإنساني وتقدمت التكنولوجيا الإنسانية فلا يمكنهما تجاوز حدود المعجزات. لأن هذه الحدود هي الساحات التي يجول فيها الأنبياء العظام. بمعنى أن العلم الإنساني يستطيع الوصول إلى الحدود التي تبدأ بعدها المعجزات. ويتم حث الإنسان وتشجيعه للوصول إلى هذه الحدود.

فالقرآن الكريم يحدثنا عن معجزات السيد المسيح عليه السلام ليقول لنا: انظروا فإن طرق العلاج والتداوي مفتوحة أمامكم حتى الوصول إلى حدود الموت. والأمراض التي لم تجدوا لها علاجاً مثل السرطان والأيدز وغيرها من الأمراض، لها أدويتها وعلاجها.. ابحثوا عنها وجِدوها.. فكم من مرض كان يُعتقد من قبل أنه لا علاج له اكتُشف علاجه وطرُق الشفاء منه الآن. فلتحاولوا وعندها ستجدون العلاج لهذه الأمراض.

ولنأخذ مثالا آخر. إن معجزة النبي موسى عليه السلام تعطي درساً للإنسان حول إمكانية تسخير الجماد في إنجاز وظيفة ومهمة معيَّنة. ولقد انفتح باب هذا الأمر قليلاً في أيامنا الحالية، ولكن لا يمكن اليوم ولا غداً إلقاء عصا وقلبُها إلى حيّة تسعى.. لأن هذه حادثة وقعت في ساحة المعجزات والخوارق؛ أما نحن فنستطيع أن نبذل جهودنا ضمن إطار القوانين العادية الجارية على الأرض.

وأرى من المناسب هنا أن أفتح الحديث عن القرآن الكريم الذي يعَدّ معجزة لا تصل إليها الطاقة البشرية. أجل، إن القرآن معجزة أدبية وبيانية لا يمكن الوصول إلى أفقها. فكل الأشعار والقطع الأدبية البليغة التي سحرت الإنسان بجمالها لا تستطيع إلا الاقتراب فقط من عتبة القرآن الذي يعَدّ الأفق النهائي للبلاغة حيث يقف قِبله الأدباء من أمثال "لبيد" وغيره عاجزين؛ لأن في بيانه معجزة، بينما الكلام البشري لا يستطيع تجاوز ساحته العاديّة. ولن نطيل في هذا البحث، لأن له موضعه الخاص به في هذا الكتاب.

وجملة القول: إن معجزات الأنبياء تشكل حدوداً معيَّنة وتخُطّ أفقاً محددا للعلم

الإنساني. ويعد ذكر القرآن لها حثاً ودفعاً للإنسان ليبلغ حدود هذه المعجزات.[1]

ومن ثم فعلى الإنسان أن يسعى حتى يصل إلى تلك النقطة ويقترب من حدود تلك المعجزات الخارقة. ولو فرضنا أنه خطا خطوة واحدة وراء ذلك الحد لجال في الآفاق التي تتدلى منها ثمرات هذه المعجزات.

قد يستطيع الإنسان أن يتقدم في علم الطب حتى يقترب من حدود إحياء الموتى. ولكنه سيقف عاجزاً أمام الموت نفسه. ذلك لأن الموت -مثله في ذلك مثل الحياة- مخلوق من قبل الله ﷻ، والآية الكريمة: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ (الملك:٢) تشير إلى هذا.

أجل، إن الموت ليس انقراضاً أو تفسخاً وتحللاً... بل هو استرداد بمشيئة الله وإرادته للأمانة التي سبق وأن استودعها الإنسان. فهذا هو آخر ما يمكن أن يقال في تشجيع أهل الهمّة والعلم لكي يقدّموا كل ما يستطيعونه لخدمة الإنسانية.

إن هناك أحاديث كثيرة مروية عن رسول الله ﷺ في علم الصحة، ولاسيما فيما يتعلق بـ"الطب الوقائي" الذي يشكل جزءاً مهمّاً من علم الطب. وهذا شيء طبيعي، ذلك لأن علاج المرض ليس هو المهم، بل الأهم منه هو حفظ صحة الإنسان، وحمايته من الوقوع في المرض. وهذا أسهل بكثير من القيام بعلاجه بعد إصابته بالمرض. لأن العلاج صعب ومكلف وشاق. لذا، فقد اهتم رسولنا ﷺ أول الأمر بهذا وجعل أكثر وصاياه الطبية مركزة حول الطب الوقائي.

ولا عجب ألا يجد الأطباء النصارى الذين أتوا إلى المدينة المنورة في العهد النبوي عملا؛ وذلك بفضل رعاية المسلمين لوصايا الرسول ﷺ في هذا الموضوع رعاية تامة. فبينما كان الرسول ﷺ يقوم بإصلاح أمراض القلوب والنفوس فإنه كان يقوم أيضا بشفاء الأمراض الجسدية، أي إنه كان يقوم بحفظ وصيانة أتباعه من الأمراض النفسية والقلبية والجسدية.

كان مرض الطاعون منتشراً في عهد الرسول ﷺ ولم يكن باستطاعة أحد أن يقف أمام هذا المرض القاتل. إذ كان بخطورة مرض الأيدز حاليّاً. إلا أن الصحابة كانوا على حذر من هذا المرض لأن الرسول ﷺ كان ينبههم إليه ويحذِّرهم منه. فكانت هذه الجماعة الطاهرة تعيش في بلدها وتحفظ نفسها منه بحياتها النظيفة الطاهرة. غير أنهم عندما كانوا يشتركون في الحركات العسكرية في الشام وسورية وحلب وأنطاكيا كانوا يتعرضون لهذا المرض لاتصال هذه المناطق آنذاك مع أمراض عالم البيزنطيين... كذلك كان وباء عَمْواس الذي

---

[1] الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي، ص٢٧٩.

توفي بسببه في ذلك المكان المشؤوم خمسة وعشرون ألف مسلم.[١]

وكان أبو عبيدة بن الجرّاح أمين هذه الأمة ضمن الموجودين في عَمْواس آنذاك. هذا الصحابي الذي قال عمر بن الخطاب ﷺ في حقه بعد سنوات عندما طُعن في صدره: "لو كان أبو عبيدة حيًّا لولّيتُه."[٢] وعندما أتى وفد نَجْران إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يرسل معهم شخصاً موثوقاً وأمينا، بعث أبا عبيدة بن الجرّاح.[٣]

أجل، كان هذا الصحابي الجليل أحد العشرة المبشّرة بالجنة وأمين هذه الأمة، وكان موجوداً في موضع يجتاحه هذا المرض الوبيل ويحصد الأرواح فيه.

كان ذلك في أيام خلافة عمر بن الخطاب ﷺ. وكان الخليفة يزور البلدان المفتوحة ويراقب تطوّر الأمور عن كثب. وكان من المفروض أن يذهب إلى عمواس أيضاً. إلا أنه عندما سمع بانتشار وباء الطاعون فيها قرر الرجوع، فقال له أبو عبيدة الجرّاح في رواية عن ابن عباس: "أفِراراً من قدر الله؟" فقال عمر: "لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة!" -وكان عمر يكره خلافه- "نعم، نفِرّ من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت وادياً له عُدْوتان. إحداهما خِصْبة والأخرى جَدْبة، أليس إن رعيتَ الخصبة رعيتَها بقدر الله وإن رعيتَ الجَدبة رعيتَها بقدر الله؟"[٤]

كان هذا حدساً وفراسة من عمر بن الخطاب ﷺ. ولكن أكان مصيباً في هذا؟ أكان عليه أن يرجع أم يبقى؟ كان الخبر اليقين عند الصحابي عبد الرحمن بن عوف ﷺ.

لنقرأ بقية الرواية: قال فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيّباً في بعض حاجته، فقال: إنّ عندي من هذا عِلماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدَموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه.» قال: فحمد الله عمرُ بن الخطاب ثم انصرف.[٥]

وأنا أسأل القارئ: أليس هذا هو الحَجْر الصحي الذي يوصي به علم الطب الحديث؟ كان الرسول ﷺ يوصي به قبل قرون عديدة، إذن، فإن علم الطب اليوم لا يملك إلا أن يقول له: "صدقت يا رسول الله!"

---

[١] البداية والنهاية لابن كثير، ٧/٩٠-٩١؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٢/٥٦٠.

[٢] كتاب فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل، ٢/٧٤٢.

[٣] البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٢١؛ مسلم، فضائل الصحابة ٥٤-٥٥.

[٤] البخاري، الطب ٣٠؛ مسلم، السلام ٩٨.

[٥] البخاري، الطب ٣٠؛ مسلم، السلام ٩٨.

بـــ . مرض الجذام والحَجْر الصحيّ

يقول الرسول ﷺ في حديث يرويه الإمام أحمد بن حنبل والإمام البخاري: «فِرّ من المجذوم كما تَفِرّ من الأسد.»[١]

وهذا التمثيل الوارد في هذا الحديث الشريف لا علاقة له بجرثومة الجذام ولا بكون المجذوم يشبه الأسد. فهذا من خيالات وأوهام البعض، إذ لا يوجد مثل هذا المعنى ولا هذا القصد في حديث الرسول ﷺ. والفرار الوارد هنا ليس فراراً بالمعنى الحرفي. فلعل الرسول ﷺ يريد توصيتنا بمكافحة هذا المرض الوبيل والبحث عن طرق الوقاية منه. أي القيام بالحَجْر الصحي وباتخاذ التدابير اللازمة لمنع سرَيانه وانتشاره. فكما يخاف الإنسان من ملاقاة أسد فعليه أن يخشى التلوث بهذا المرض بنفس القدر. إن هناك معاني عميقة في جميع أحاديث الرسول ﷺ، لذا يجب بذل مجهود كبير لفهم أبعادها.

جـ . ولوغ الكلب

ينقل الإمام مسلم وغيره من أئمة الحديث الحديثَ التالي:

«طهور إناء أحدكم إذا وَلَغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أُولاهن بالتراب.»[٢]

أوصى الرسول ﷺ باستعمال التراب في عملية التعقيم إذ لم تكن المواد والأدوية المعقِّمة موجودة في تلك الأيام. ثم تبيَّن فيما بعد أن التراب يقوم بعملية التطهير مثل الماء. وبعد أن تقدم العلم أكثر تبين أن التراب يحتوي على مادة "التتراليت" و"تتراسكلين". وهاتان المادتان تستعملان في عمليات التعقيم ضد بعض الجراثيم، فعندما أوصى الرسول ﷺ بغسل الإناء بالتراب أولاً كان يريد تعقيم الإناء قبل غسله.

وشيء آخر تجدر ملاحظته في هذا الحديث، وهو أن بعض الأمراض التي تصيب الكلاب يمكن أن تصيب الإنسان أيضاً وتعيش جراثيمه في جسده، وهذا يعد من المواضيع الحديثة نسبيّاً في علم الطب.

ثانيـــاً: إن براز الكلب ولعابه يمكن أن يكونا ضارين لصحة الإنسان. وإذا لم تؤخذ التدابير الضرورية في حينه فإن الأمراض السارية والمتنقلة بواسطتها لا يمكن علاجها بسهولة، لذا فإن عملية التعقيم مهمة جدًّا.

---

[١] البخاري، الطب ١٩؛ المسند للإمام أحمد، ٤٤٣/٢.

[٢] مسلم، الطهارة ٩١؛ أبو داود، الطهارة ٣٧؛ الترمذي، الطهارة ٦٨؛ النسائي، الطهارة ٥١، المياه ٧.

ثالثاً: والشيء الآخر الذي يجلب الانتباه هو أن الإناء بعد أن يتعقم من الجراثيم عند الغسل الأول بالتراب يجب غسل الإناء ست مرات -وفي رواية: سبع مرات-. وقد تناولت بعض المجلات في إنكلترة وفي ألمانيا هذا الموضوع وأقرت بصحة توصية الرسول ﷺ.

كان رسول الله ﷺ يبدي حساسية شديدة في موضوع الكلاب، حتى أنه أمر مرة -اجتهاداً منه- بقتلها.[١] ولكنه عاد وأوقف هذا الأمر قائلاً: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرتُ بقتلها.»[٢]

وهذا معناه أن الكلاب لو لم تكن أمة بين سائر الأمم المختلفة مثل الإنسان والنباتات والجماد والتي لها علاقة بحفظ التوازن البيئي، ولو لم تكن هناك ضرورة فطرية لوجودها لأمرت بقتلها. وذلك لكونها مباءة للجراثيم، وهذا الأمر الأخير أي تناوُل الرسول ﷺ المسألة من هذه الوجهة معجزة أخرى. ذلك لأنه ﷺ كان يتناول موضوع التوازن البيئي -الذي يعد من المواضيع الجديدة في أيامنا- من ذلك التاريخ ويحرم انطلاقاً من وجهة النظر هذه قتل الحيوانات حتى الكلاب. واليوم وبعد أكثر من ألف وأربعمائة سنة بدأنا ننتبه إلى ضرورة منع انقراض أنواع عديدة من الحيوانات والمحافظة عليها كالحيتان والأفيال ووحيدي القرن...الخ. وذلك للحفاظ على التوازن البيئي في الطبيعة. ومن ثم إن تناول رسول الله ﷺ هذا الأمر قبل أكثر من ألف سنة بقوله إنه «لولا أن الكلاب أمة من الأمم» يعد تناولاً مبكراً جدًّا لموضوع في غاية الأهمية.

أجل، إن الله ﷻ خلق الكون ووضع موازين دقيقة بين مخلوقات هذا الكون وعناصره. والآية الكريمة: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ (الرحمن:٧-٨) تشير إلى هذا المبدأ العام. فلقد كان رسول الله ﷺ رجل توازن، لذا فمن الطبيعي أنه كان يحافظ على التوازن ويمنع حتى قتل الكلاب. وقد تُستخرج معان أخرى في المستقبل من كلامه الوجيز البليغ. ولو أن شخصا غيره لم يتلفظ طوال حياته إلا بهذه الجملة -إن أخذنا تاريخ هذا الكلام بنظر الاعتبار- لكان ذلك كافياً لأن يأخذ مكانه بين المشهورين في التاريخ، مع أن لرسول الله ﷺ آلافاً من هذه الأحاديث وأمثالها. إذن، لندع العبقرية تتسوّل على بابه ولنختم هذا الموضوع.

---

[١] البخاري، بدء الخلق ١٧؛ مسلم، الطهارة، ٩٣.

[٢] أبو داود، الأضاحي ٢١؛ الترمذي، الصيد ١٦؛ النسائي، الصيد ١٠؛ ابن ماجه، الصيد ٢؛ المسند للإمام أحمد، ٤/٨٥.

إنه يحق لنا أن نقول دون أيّ تردد، ونؤكد دون أدنى مبالغة بأن الحوادث والوقائع تقول لرسول الله ﷺ بلسان حالها: "أنت رسول الله الصادق الأمين." وكلما تقدمت العلوم وزادت دقتها وضح هذا الأمر أكثر. وأنا على يقين بأنه سيأتي اليوم الذي سيؤمن بهذا جميع الناس وعامة البشر.

إن العلوم اليوم خاضت في محيط الوجود تحلِّل وتدرُس وتمحّص كل الحقائق التي ذكرها القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ. وفي كل يوم تظهر حقائق حول صدق الرسول ﷺ يعلنها كل من يملك شفافية قلب من العلماء من فوق آلاف المنابر على الناس أجمعين.

د . غسل اليدين قبل الأكل وبعده

في حديث يورده الترمذي وأبو داود يقول الرسول ﷺ: «بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده.»[1] أي إن كنتم ترغبون في بركة الطعام وطهارته ونظافته فاغسلوا أيديكم قبل الطعام وبعده وكأنكم تتوضؤون.

والرسول ﷺ يضع بحديثه هذا مبدأ عامًّا في النظافة، وإلا فإننا لم نكن لندرك هذا بعقولنا، ولاسيما إنسان ذلك اليوم ما كان ليعرف أبداً أن الملايين من الجراثيم قد توجد بين أظافره. دع أهل ذلك الزمان وقل لي كم من شخص يعرف اليوم الماهية العلمية لهذه المسألة؟

كذلك فمن قواعد النظافة التي علَّمَنا إياها رسولنا ﷺ هو القيام بغسل اليد جيداً بعد الاستيقاظ من النوم وقبل غمسها في أي إناء. ذلك لأن الإنسان لا يعلم في أثناء نومه أين باتت يده.[2] فرسول الله ﷺ كان يهتم بنظافة الأيدي اهتماماً كبيرا، لذا ركز اهتمامه فيها وأوصى بها في مواضع عديدة.

ولقد بدأ الأطباء يفهمون اليوم حكمة هذه الوصية، فالإنسان لا يدري ماذا مسّت يده وهو يتقلب في فراشه أثناء نومه. فقد تتسخ يده، فكيف إذن، يمدها إلى إنائه أو إلى فمه؟ فهل كانت هناك مجاهر وميكروسكوبات أو أشعة اكس أو مختبرات التحليل لكي يعرف الرسول ﷺ أن اليد ستتلوث بالجراثيم ثم يقوم بتنبيه أمته إلى هذا الأمر؟ كلا. لم يكن أي من هذه الأمور موجودة. ولكن كان هناك فوق كل هذه الأمور من يوصل إليه هذه الحقائق عن طريق الوحي ويعلمه بالوحي المتلو أو غير المتلو، فيقوم الرسول ﷺ بنقل هذه الحقائق إلى أمته، لذا لا يمكن العثور في كلامه على أي خطأ أو على أي خلاف للحقيقة وللواقع.

---

[1] أبو داود، الأطعمة ١١؛ الترمذي، الأطعمة ٣٩؛ المسند للإمام أحمد، ٤٤١/٥.

[2] البخاري، الوضوء ٢٦؛ مسلم، الطهارة ٨٧؛ النسائي، الطهارة ١، ١١٦؛ أبو داود، الطهارة ٤٩؛ الترمذي، الطهارة ١٩.

هـ . السواك: نظافة الفم والأسنان

ورد في كتب الأحاديث الستة وغيره حديث رواه ما يقارب أربعين صحابيًا. فهذا الحديث من هذه الجهة يعد حديثاً متواتراً: «لولا أن أَشُقّ على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة.»[١]

وحتى لا يشق النبي ﷺ على أمته فإنه لم يقم بهذا الأمر، وإلا كان السواك حينئذ من فروض الصلاة كالوضوء مثلاً. ولكن هذا لا يتفق مع روح الدين القائم على اليسر، ذلك لصعوبة أن يجد كل شخص سواكاً في كل مكان.

السواك ليس فرضاً، ولكنه سنّة ثابتة. وقد كتب القدماء مجلدات حول هذا الموضوع، وقام اليوم كثير من الباحثين بتناول موضوع السواك من مختلف الجوانب العلمية، وستطلعون على هذه البحوث في المستقبل إن شاء الله.

السواك يعني تنظيف الأسنان، ولا يتم هذا بالسواك فقط، بل يمكن أن يتم باليد أو بالملح أو بالمعجون أو بوسائل أخرى. أجل، يستطيع كل شخص تنظيف أسنانه بالطريقة التي يرغب فيها. ولا يستطيع أحد أن ينكر عليه شيئاً، ولكن يجب ألا ننسى أن للسواك خصائص خاصة به.

والآن تأملوا ديناً يقوم مبلِّغه -وليس واضعه، ذلك لأن واضعه هو الله سبحانه تعالى والرسول ﷺ مبلغ للدين- باستعمال السواك ما بين خمس أو عشر مرات في اليوم الواحد، ويقوم بجعل السواك سنة في أمته.. لذا، نستطيع القول بأن مثل هذا الدين سبق المفهومَ الحالي لنظافة الأسنان والمفهوم العلمي لوقاية الأسنان أو ما يطلق عليه الفرنسيون (hygieniqui) وأنا لا أعتقد أن هناك طبيب أسنان دع عنك عوام الناس يقوم بتنظيف أسنانه خمس أو عشر مرات في اليوم. علماً بأن عدد المرات التي كان نبينا ﷺ يقوم بالسواك يوميًا هو هذا العدد في الأقل. إذ كان يقوم عدة مرات في الليل للصلاة وفي كل مرة ينظف أسنانه بالسواك.[٢] إذ كان يستعمل السواك عند وضوئه وقبل الصلوات في الفجر والضحى والظهر والعصر والمغرب والعشاء، وكذلك بعد تناول أي طعام. فإذا عددنا هذه المرات نرى أنه يفوق العدد الذي سبق وأن ذكرناه في تنظيف أسنانه.

---

[١] البخاري، الجمعة ٨؛ مسلم، الطهارة ٤٢؛ أبو داود، الطهارة ٢٥؛ الترمذي، الطهارة ١٨؛ النسائي، الطهارة ٦؛ ابن ماجه، الطهارة ٧؛ المسند للإمام أحمد، ٨٠/١.

[٢] البخاري، الوضوء ٧٣؛ مسلم، الطهارة ٤٦، ٤٧.

و . التوازن في الأكل

يقول رسول الله ﷺ في باب الطب الوقائي: «ما ملأ ابن آدم وِعاءً شرّاً من بطن. بحسْبِ ابن آدم أُكُلات يُقمن به صلبه، فإن كان لا محالة فثُلُثٌ لطعامه وثُلُثٌ لشرابه وثُلُثٌ لِنَفَسِهِ.»[١]

وهناك أحاديث أخرى تقوي وتسند هذا الحديث منها: «أخشى ما خشيت على أمتي كِبَر البطن ومداومة النوم والكسل وضعف اليقين.»[٢]

والأمور المذكورة في هذا الحديث تلتقي عند نقطة واحدة. فمن عاش حياته في غفلة دون أن يراقب نفسه فسيقضي معظم وقته في النوم والكسل وسيسمن ويكثر شحمه. وكلما زاد سمنة زاد إقبالاً على الطعام، وكلما زاد نهمه زادت غفلته. أو نستطيع البدء من السبب الأول فنقول إن من يأكل كثيراً سينم كثيراً، ومن ينم كثيراً يكن شخصاً ضعيف اليقين.

فمن أين نظرت علمت أن هذه أمور تسوق رسول الله ﷺ إلى القلق على أمته منها. وهنا أترك الكلام للمختصين في عالم الطب وتحليلاتهم العلمية في هذا الخصوص. وعندما تقرأون أو تستمعون إلى تحليلاتهم سترون مدى مصداقية ما قاله الرسول ﷺ قبل عدة قرون، ولن تجدوا فيه انحرافاً ولو قيد شعرة عن الحق وعن الحقيقة.

ز . الكحل

والآن لننتقل إلى حديث آخر. إذ يقول رسول الله ﷺ: «وإن خير أكحالكم الإثمد، يجلو البصر ويُنبت الشعر.»[٣] أي يطيل أهدابكم.

يقول أطباؤنا -ممن نور الله أبصارهم وبصائرهم- إن الكحل من أفضل الأدوية المستعملة في تغذية العيون والأهداب، ونحن نعتقد بأن السنين القادمة لعالم الزينة ستكون سنين الكحل. وهناك مادة أخرى في مستوى الكحل من ناحية قيامها بوقاية الجلد وامتلاكها لخصائص المضادات الحيوية هي مادة "الحِنّاء"[٤] إذ تبين علمياً أن قوة التعقيم الموجودة فيها أكبر من قوة التعقيم الموجودة في "اليود" أو مادة "مورفسيلون" المستعملتين حالياً.

ح . الحبة السوداء

في حديث ورد في صحيح البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة، عن أبي هريرة ﷺ قال

---

[١] الترمذي، الزهد ٤٧؛ ابن ماجه، الأطعمة ٥٠؛ المسند للإمام أحمد، ١٣٢/٤.

[٢] كنز العمال للهندي، ٤٦٠/٣.

[٣] مسلم، السلام ٨٨؛ أبو داود، الطب ١٤؛ الترمذي، الطب ٥، ٩؛ النسائي، الزينة ٢٨؛ ابن ماجه، الطب ٦، ٢٥.

[٤] ابن ماجه، الطب ٢٩؛ الترمذي، الطب ١٣.

رسول الله ﷺ: «إن في هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السامَ.»[١] أي إلا الموت.

وتعبير "كل داء" يرد في اللغة العربية إشارة إلى الكثرة وكناية عنها، ومع ذلك فلو تم تحليل هذه الحبة تحليلاً علمياً دقيقاً وأجريت عليها البحوث العلمية فسيظهر كيف أنها علاج ودواء للكثير من الأمراض. يشير الحديث الشريف إلى نقطتين:

الأولى: حول الناحية العلاجية للحبة السوداء.

الثانية: حول عدم كونها علاجاً للموت.

وكعادتنا فسنترك الناحية العلمية لأهل الاختصاص، ونكتفي هنا بذكر بعض الأمور الواردة على خاطرنا:

إن لتوفر مادة البروتين أهمية خاصة عند الإصابة بالمرض، ولاسيما في دور النقاهة. ولكن يجب أن يتوفر إلى جانب هذا غذاء غني بالفيتامينات وفيه سعرات حرارية عالية وسهل الهضم أيضاً. فهذا هو ما يوصي به الأطباء على الدوام في أثناء فترة المرض لكي يكتسب المريض طاقة وقوة ولكي لا يواجه مشكلة في عملية الهضم.

ولقد أثبتت البحوث العلمية بأن جميع هذه الخصائص موجودة في الحبة السوداء، وهناك أمثلة واقعية لا تعد ولا تحصى في هذا الموضوع. وهذا يدل أن رسول الله ﷺ لا يرسل الكلام على عواهنه، فما تحدث عنه يتحقق واقعياً والنتائج دائماً تصدقه وتقف في صفه.

ط . الذباب

لنستمر في موضوعنا هذا بحديث وارد في صحيح البخاري حيث يقول رسول الله ﷺ: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء.»[٢]

أولاً وقبل كل شيء لم يكن أحد يعرف في ذلك التاريخ أن الذباب يحمل الجراثيم. والذباب عندما يقع في سائل يرفع أحد جناحيه إلى أعلى على سبيل الاحتياط، أي لا يغمس جناحيه معاً في السائل، لكي يؤمن لنفسه فرصة الطيران إن خلص نفسه من الإناء، ولكن طعامنا أو شرابنا يكون قد تلوث بالجراثيم.

ما يوصى به في مثل هذا الموقف هو القيام بغمس الذباب كله ثم إخراجه وطرحه

---

[١] البخاري، الطب ٧؛ مسلم، السلام ٨٨.

[٢] البخاري، الطب ٥٨، بدء الخلق، ١٧؛ أبو داود، الأطعمة ٤٨.

خارجاً، ذلك لأن في أحد جناحيه داء وهو الجراثيم، وفي الجناح الآخر ما يزيل الأثر السيء للجناح الأول. فعندما تلمس ظهر الذباب وهو يحاول الخلاص بنفسه ينفجر الكيس المخزون فيه المادة المضادة للجراثيم، وهكذا يكون الذباب قد عقم ما لوثه الجناح الآخر بالجراثيم.[١]

يقول العلماء الذين قاموا بمراقبة هذه العملية وتحليلها علمياً بأنهم عندما ضغطوا على ظهر الذباب رأوا بالمجهر بأن قسماً من الجراثيم بدأت تتفرق يميناً وشمالا، وفي بحوث لاحقة علموا بأن هذه الجراثيم عناصر معقّمة، أي جراثيم للفتك بالجراثيم الأخرى.

يـــ . النـــزيف الداخلي

في رواية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت فاطمة بنت أبي حُبيش إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني امرأة أُستحاض فلا أَطهر. أفأدع الصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، إنما ذلك عِرْقٌ وليس بحيض فإذا أقبلتْ حيضتكِ فدعي الصلاة، وإذا أدبرت فاغسلي عنك الدم ثم صلي.»[٢]

لقد علمنا بعد قرون عديدة من هذا الحديث الشريف أن مصدر دم الحيض هو من نزف داخلي. فكيف عرف رسول الله ﷺ هذه الحقيقة العلمية التي لم تعرف إلا مؤخرا؟ عرفه طبعاً من ربه الذي علّمه مالم يكن يعلم وقام هو بتبليغنا. لذا فمرور كل هذه السنوات لم يزده إلا سمواً وعلواً في نظرنا. ورجال العلم يقولون اليوم بأن من يقول هذا الكلام لا يمكن أن يكون شخصاً عاديّاً؛ بل لابد أن يكون نبيّاً.

ك . لا دواء في الخمر

في رواية: أن طارق بن سُويد سأل النبي ﷺ عن الخمر؟ فنهاه أو كره أن يصنعها فقال: إنما أصنعها للدواء. فقال: «إنه ليس بدواء ولكنه داء.»[٣]

لقد عقدت عدة مؤتمرات في مختلف أنحاء العالم ومنها تركيا حول الخمر والمسكرات تكلم فيها العلماء وأجمعوا على أن الخمر -وإن كان قطرة واحدة- ضار لجسم الإنسان

---

[١] قد يقول أحدهم: لماذا لا نرمي بالسائل أو الطعام ولا نستعمله بدلا من هذه العملية؟ ونقول لهؤلاء: وما يدريك فلعل الحساء الذي وقع فيه الذباب هو حساء عائلة فقيرة لا تجد من الطعام غيره؟ أنقول لهذه العائلة أن تستغني عن طعامها أم نقدم لهم هذا الحل؟ (المترجم)

[٢] البخاري، الوضوء ٦٣؛ مسلم، الحيض، ٦٢؛ أبو داود، الطهارة ١٠٩، الطب ١١.

[٣] البخاري، اللباس ٦٣، الاستئذان، ٥١؛ مسلم، الأشربة، ١٢؛ الترمذي، الأدب ١٤؛ ابن ماجه، الطب ٢٧.

ولعقله ولروحه وأنه يؤدي إلى تشوهات فيها، والرسول ﷺ يشخص هذا الأمر في هذا الموضوع ويقول بأن الخمر داء بنفسه وبذاته.

لـ . الختان

يقول الرسول ﷺ بأن خمسة أمور هي من الفطرة أحدها الختان.[١]

فماذا يقول العلماء المعاصرون؟ ألم يتوصلوا إلى الشيء نفسه؟ ألا يقولون بأن غلاف القضيب محل لتجمع الجراثيم وسبب لإصابة القضيب بالسرطان، وأن السبيل الوحيد للتخلص من هذا هو إجراء الختان؟ وهكذا يظهر بأن الغرب يتصرف في هذه المسألة أفضل بكثير من بعض الحمقى عندنا. فعدد المختونين الآن في إنكلترة وفي الولايات المتحدة الأمريكية يجاوز عدة ملايين.

وهنا يتداعى إلى خاطري ما قاله شاهد هذا القرن: "إن أوروبا حاملة بالإسلام فستلد يوماً ما، وإن الدولة العثمانية حاملة بأوروبا فستلد يوماً ما."[٢]

لقد قيل هذا القول في أوائل هذا القرن، وقد تحقق شق واحد منه، والآن نحن ننتظر بفارغ الصبر تحقق الشق الآخر، فقد بدأ المخاض وزادت آلام الوضع... وفي القريب سنسمع إن شاء الله تعالى صرخات الوليد المملوءة بشراً وأملاً.

لقد توقفنا حتى الآن عند صدق رسول الله ﷺ وإخلاصه، وصدق وإخلاص الأنبياء الآخرين. فكل نبي يمثل ذروة الصدق والإخلاص، لذا لم يجد الكذب مكاناً له قط في حياتهم، ولو كان عندهم أي انحراف -ولو كان قليلاً- لما استطاعوا دعوة الناس إلى الاستقامة وإلى الطريق القويم. هذا علماً بأنهم ما أتوا وما أرسلوا إلا لكي يوصلوا البشرية إلى الصراط المستقيم المؤدي إلى الجنة، ووصف هذا الطريق وتعريفه لها.

أجل، فلو تجسدت الفضيلة والصدق لما ظهرت في غير الشمائل المنيرة والعطرة للأنبياء. ورأينا هنا أيضاً آلاف الأدلة التي تملأ ما بين الأزل والأبد حول صدق نبينا محمد ﷺ.

وقد حاولنا جمع هذه الأدلة والشواهد ضمن مجموعات ثلاث. وهذا اجتهاد خاص بنا وإلا فإنه يمكن تصنيف صدق الرسول ﷺ إلى آلاف المجموعات ويسند إلى آلاف الأدلة والشواهد، ويعرض بأشكال أخرى مختلفة. وليس هناك من يستطيع الادّعاء بأنه يمكنه أن يوفي هذا الموضوع حقه بحيث لا تبقى هناك زيادة لمستزيد.

---

[١] مسلم، الطهارة، ٤٩، ٥٦؛ أبو داود، الطهارة، ٢٩.

[٢] صيقل الإسلام أو آثار سعيد القديم لبديع الزمان سعيد النورسي، ص٣٨٦.

إن ما نؤمن به هو أن الأيام ستظهر صدقه على الدوام، وأن الناس في كل عهد سيكتشفون في كلامه ﷺ بُعداً آخر وبُعداً جديداً حول دلائل صدقه. وفي دار الآخرة سيعلم الجميع صدق رسول الله ﷺ، وسيرى الجميع صدق ما قاله حول ذاته ﷻ وحول أسمائه الحسنى وصفاته الجليلة، كل حسب قابليته الروحية، وستظهر أمامنا الجنة والحور العين والغلمان والجحيم وسائر الأمور الغيبية التي أخبر عنها النبي ﷺ تماماً مثلما وصفها. وسيقول له الجميع: "صدقت يا رسول الله".

الفصل الثاني: الأمانة

الصفة الثانية من صفات الأنبياء هي الأمانة. وكلمة الأمانة مشتقة من "الإيمان". فالمؤمن هو الشخص الذي يحمل صفة الإيمان ويعطي انطباعاً بالأمن. فكما أن الأنبياء أشخاص في ذروة الإيمان، فكذلك هم في ذروة الأمانة، وهذه الصفة بارزة وواضحة أمام الجميع. والقرآن الكريم يشير إلى صفتهم هذه في آيات عدة منها:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الشعراء:١٠٥-١٠٨). أي كان نوح عليه السلام يقول لقومه: ألا تتقون؟ إني لكم رسول أمين لا يتنزل إلى الخيانة. وهكذا ترد هنا من فم رسول كريم صفة الأمانة التي هي من صفات النبوة.

وكذلك: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء:١٢٣-١٢٥).

والآية: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء:١٦٠-١٦٢).

ومن الممكن إيراد آيات أخرى في هذا الصدد. ولكننا نكتفي هنا بهذا القدر.

إن اسم "المؤمن" هو من أسماء الله الحسنى، لذا فهو من الأسماء المهمة للمعتقدين بالله. ولكن لماذا كان "المؤمن" اسماً من الأسماء الحسنى لله تعالى؟ ذلك لأنه مصدر للثقة والاطمئنان، فهو الذي يمنحنا الثقة... أحياناً قطرة قطرة... وأحياناً مثل الشلال المنهمر. وهو الذي زين الأنبياء بصفة الأمن والأمان. فإن صفة الأمن والأمان والإيمان تربطنا بالأنبياء، وتربط الأنبياء بالله تعالى. وهذه الرابطة تقودنا إلى العلاقة بين الخالق والمخلوق. فجميع هذه المعاني موجودة في الاشتقاق الجذري لكلمة "الأمانة". علماً بأن أهم ناحية في هذا الموضوع هو فهم هذه العلاقة.

وكما أن الأمانة من أهم صفات الأنبياء والمرسلين، ومن أهم صفات نبينا ﷺ، فهي أيضا من أهم صفات جبريل عليه السلام، فالقرآن يصفه لنا بأنه ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير:٢١). أجل، فجبريل عليه السلام مطيع لله تعالى، ونظراً لطبيعة وظيفته فهو أمين، ومن ثم فإن هذا الكلام الذي

يبعث الأمن والطمأنينة أنزله الله تعالى المؤمنُ بوساطة رسوله الأمين على قلب نبيه سيد الأمناء وأصفى المخلصين ليهب لأمته الخيرة الأمن ويجعلهم آمن الآمنين.

لقد عمت الجميعَ بركةُ القرآن الكريم، كل حسب درجته ومنزلته، وكان جبريل عليه السلام ضمن هؤلاء المستفيدين، فقد قال يوماً لرسول الله ﷺ: "كنت أخشى العاقبة، فأمنتُ لثناء الله ﷻ عليّ بقوله ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير:٢٠-٢١)".[1]

الأمانة عند رسولنا ﷺ

رسولنا ﷺ أمين قبل كل شيء، أمين على الرسالة التي بعثه الله تعالى بها، فلا يمكن تصور إخلاله بهذه الأمانة قيد شعرة. أمين مع جميع المخلوقات، فالكل يثق به ويطمئن إليه؛ لأنه أظهر للجميع مدى أمانته، فبعث الثقة وأرسى الأمن والاطمئنان إليه في نفوس الجميع. ثم علّمنا مدى أهمية الأمانة ومدى ضرورتها وأقنعنا بهذا الأمر. فتعالوا بنا نستعرض سويا هذه الأمور.

أ. الأمانة في تبليغ الرسالة

لقد اختار الله تعالى إنساناً أميناً لرسالته. وقد عاش هذا الرسول حياته كلها ضمن مشاعر هذه الأمانة، إلى درجة أنه كان عندما يتنزل عليه الوحي حريصاً على ألا تفوته كلمة واحدة من هذا الوحي ويخشى ذلك، فكان يكرر بسرعة ما سمعه من جبريل لكي يحفظه بشكل تام، وذلك قبل أن ينتهي جبريل من إلقاء الوحي عليه. وكان يبدي خشية وحرصاً وقلقاً في هذا الأمر إلى درجة أن القرآن الكريم نبّهه قائلاً: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَهُ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة:١٦-١٩).

لقد أُودع القرآنُ أمانة عنده، فكان يخشى ألا يكون أميناً لهذه الأمانة المقدسة خشية كبيرة. لذا، كان الله تعالى يطمئنه ويخبره بأنه أمين وسيبقى أميناً.

لقد عاش رسول الله ﷺ حياته كلها في خضم هذه العاطفة الملتهبة، فقد كان يدرك حق الإدراك مدى ثقل الأمانة المقدسة التي ألقيت على كاهله، ويجتهد بكل ما وسعه من إخلاص وتفان أن يكون أميناً لها. فها نحن نراه في حجة الوداع وقد أحس بدنو رحيله يقول لأصحابه وهو يتذكر هذه الأمانة الكبيرة أنهم سيُسألون غداً عنه، لذا فقد سألهم:

---

[1] الشفاء للقاضي عياض، ١/١٧.

«ألا هل بلّغتُ؟ ألا هل بلّغتُ؟» فقال الحاضرون: نعم. فقال: «اللّهم اشـــهد.»[١]

أجل، فإن حفظ الأمانة يبدأ من الله ﷻ ماراً من عند جبريل عليه السلام ومستقراً عند رسول الله ﷺ ثم سارياً منه إلى أمته. وفي حجة الوداع طلب من أمته الشهادة مرة أخرى بأنه أبلغ الرسالة ثم رجع إلى الرفيق الأعلى بعد هذه الشهادة من أمته.

وردت في كتب السنة المعتبرة رواية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تتعلق بأمانة الرسول ﷺ في تبليغ الرسالة إذ قالت: لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أنزل الله عليه لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ (الأحزاب:٣٧).[٢]

نزلت هذه الآية في حق زيد بن حارثة الذي أعتقه رسول الله ﷺ وتبناه ورباه ثم زوجه من بنت عمته زينب بنت جحش التي قبلت الزواج منه طاعة لرسول الله ﷺ، وتنفيذا لأوامره، فلم تكن لديها الرغبة في هذه الزيجة؛ ولهذا لم يحدث الوفاق بينهما؛ فأمر الله رسوله بطلاقها من زيد وأن يتزوجها لتكون ضمن زوجاته الطاهرات، فشق ذلك على رسول الله ﷺ حيث كانت العرب في تلك الأيام تنظر إلى الابن المتبنى نظرتهم إلى الابن الحقيقي، وتعد زوجة الابن بالتبني بمثابة زوجة الابن الحقيقي.كما كانت أم زينب -عمة رسول الله ﷺ- قد عرضتها عليه من قبل فأبى؛ ولكن ما كان على النبي ﷺ إلا أن ينفذ ذلك الأمر لأنه صادر إليه من السماء، لذا قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أنزل الله عليه لكتم هذه الآية." ولكنه كان أميناً للوحي الذي كان ينزل عليه، فلم يكتم حرفاً واحداً منه.

وهناك حادثة أخرى وقعت في معركة بدر تبين مدى أمانته، فقد تم أسر بعض كفار قريش فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب ﷺ حول أمرهم. فكان رأي أبي بكر ﷺ إطلاق سراحهم بعد أخذ الفدية منهم، أما عمر بن الخطاب ﷺ فكان من رأيه أن يقتلوا جميعاً وأن يقوم كل واحد من المسلمين بقتل قريبه بيده. ومال رسول الله ﷺ إلى رأي أبي بكر وأطلق سراح الأسرى بعد أخذ الفدية منهم. ولندع سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ يروي هذه القصة بنفسه:

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت. فلما كان من الغد جئت فإذا رسول

---

[١] البخاري، الحج ١٣٢، المغازي ٧٧؛ مسلم، الحج ١٤٧؛ أبو داود، المناسك ٥٦؛ ابن ماجه، المناسك ٧٦، ٨٤.

[٢] البخاري، التوحيد ٢٢؛ مسلم، الإيمان ٢٨٨.

الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان. قلت: يا رسول الله! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك. فإن وجدتُ بكاءً بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عَرض عليّ أصحابُك من أخذهم الفداء. لقد عُرض عليّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة -شجرة قريبة من نبي الله ﷺ- وأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنفال:٦٧-٦٩). فأحلّ الله الغنيمة لهم.[١]

فلو كان هناك أي احتمال لقيام رسول الله بكتمان شيء من الوحي لكتم هذه الآية. ولكنه كان إنساناً أميناً على الوحي. وسنقوم فيما بعد بتناول هاتين الآيتين بتفصيل أكثر عند تناول موضوع عصمة الرسول ﷺ.

ب. الأمين حيال الوجود كله

وكما كان النبي ﷺ أميناً على الوحي الإلهي، فقد كان أمينا حيال الوجود كله، لأن هذه الأمانة كانت قد انغرست في أعماق قلبه وكيانه.

وللحادثة التالية التي ترويها صفية زوج النبي ﷺ مغزى كبير. عن الزهري قال: أخبرني علي بن الحسين ﷺ أن صفية زوج النبي ﷺ أخبرته أنها جاءت رسول الله ﷺ تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان. فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت تنقلب، فقام النبي ﷺ معها يَقلِبها،[٢] حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة، مرّ رجلان من الأنصار، فسلما على رسول الله ﷺ، فقال لهما النبي ﷺ: «على رِسْلكما، إنما هي صفية بنت حُيَيّ.» فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكبُر عليهما. فقال النبي ﷺ: «إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً.»[٣]

فهذا الشيطان الذي يجري من الإنسان مجرى الدم يستطيع أن يقذف في قلبه وفكره أشياء كثيرة. ولو كان هناك احتمال ضئيل بنسبة واحد من ألف أو واحد من المليون بورود سؤال على خاطرهما حول: من هي هذه المرأة التي بجانب رسول الله؟ لوقعت حياتهما

---

[١] مسلم، الجهاد ٥٨؛ المسند للإمام أحمد، ١/٣١-٣٣.

[٢] أي يرجعها إلى منزلها. (المترجم)

[٣] البخاري، الاعتكاف ٨؛ مسلم، السلام ٢٤؛ أبو داود، الصوم ٧٩، الأدب ٨١؛ ابن ماجه، الصيام ٦٥.

الأبدية في خطر شديد والعياذ بالله ولا نطفأ عندهم نور الإيمان. ولذلك نرى الرسول ﷺ - الذي هو مثال الرحمة والشفقة- يسرع للتدخل في الأمر فيظهر مدى أمانته هو، وينقذ في الوقت نفسه إيمان أصحابه وأفراد جماعته.

كان هذا هو مبلغ اهتمامه بالأمن والأمانة، ولا عجب في هذا، ألم يكن اسمه "الأمين" قبل بعثته ونبوته؟[١] ألم يكن ألدّ أعدائه يعترفون بأمانته؟ لقد كان أميناً إلى درجة لو أن أبا جهل وهو من ألد أعدائه سُئل أين يستطيع إيداع أثمن أمواله، بل حتى عرضه وشرفه لما تردد في القول: "عند الأمين."

أجل، لما خطر بباله شخص آخر غيره. فهكذا كان مقدار أمانته عليه أفضل الصلاة والتسليم.

كان أميناً إلى درجة أن امرأة دعت طفلها قائلة: ها تعال أُعطك، فقال لها: رسول الله ﷺ: «وما أردتِ أن تعطيه؟» قالت: أُعطيه تمراً. فقال لها رسول الله ﷺ: «أما إنكِ لو لم تعطيه شيئاً كُتبتْ عليكِ كِذبة.»[٢]

ذلك لأن رسول الله ﷺ كان يعد الكذب من علامات النفاق، ولأجل ذلك كان يحاول إبعاد الناس عنه قدر استطاعته؛ لأن الكذب علامة من علامات النفاق الثلاثة، والأخريان هما إخلاف الوعد وخيانة الأمانة.[٣] فعلى قدر بُعد الرسول ﷺ من النفاق كان بُعده عن خيانة الأمانة.

ولم تكن روح الأمانة ومفهومها عنده مقتصراً عنده نحو الناس فحسب، بل نحو الوجود كله. إليكم حادثة يرويها عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمَّرَة[٤] معها فرخان، فأخذنا فرخيها فجاءت الحُمَّرَة فجعلت تَفرُش،[٥] فجاء النبي ﷺ فقال: «من فجع هذه بولدها؟ رُدّوا ولدها إليها.»[٦] فكأن ممثلي الأمن والأمانة على الأرض لا يليق بهم مثل هذه التصرفات.

أما صحابته الغُرّ الميامين الذين تلقوا منه النور والضياء فقد كانوا أمناء أيضا، فهذا هو أبو عبيدة بن الجراح ﷺ الذي كان والياً على الشام في زمن خلافة عمر بن الخطاب ﷺ بعد

---

[١] السيرة النبوية لابن هشام، ٢٠٩/١.

[٢] المسند للإمام أحمد، ٤٤٧/٣؛ أبو داود، الأدب ٨٠.

[٣] البخاري، الإيمان ٢٤؛ مسلم، الإيمان ١٠٧.

[٤] حُمّرة: طائر صغير. (المترجم)

[٥] تَفرُش: ترفرف. (المترجم)

[٦] أبو داود، الجهاد ١١٢، الأدب ١٦٤؛ المسند للإمام أحمد، ٤٠٤/١.

أن سمع أن هرقل يعد جيشاً ضخماً لاسترداد الشام منه، ولم يكن مع أبي عبيدة حينئذ إلا نفر قليل لا يستطيع بهم الدفاع عن مدينة دمشق، إذ به يجمع سكان المدينة ويقول لهم بأنه جمع الجزية منهم على أساس أن يدافع عنهم، وهو الآن لا يستطيع أن يدافع عنهم أمام هرقل؛ لذا، فإنه يرد إليهم هذه الأموال لأنه لا يستطيع الاحتفاظ بها من غير وجه حق.

وهكذا ردت أموال الجزية لأصحابها، وأمام هذا المنظر الذي لا يُصدق هرع الرهبان والقسس إلى الكنائس والأديرة وتضرعوا إلى الله أن يبقي المسلمين وأن ينصرهم. وعندما ودعوا المسلمين قالوا لهم: سترجعون إن شاء الله وتنقذوننا من ظلم هرقل.[1]

إن أبا عبيدة بن الجرّاح ﷺ قد عاش أميناً ورباني‍اً إلى درجة أنه تربع على عرش قلوب النصارى. فإذا كان الغرب لا يسمعنا ولا يهتم بنا، ولا يعير التفاتة للأفراد الذين نرسلهم لأوروبا، فان الذنب ذنبنا، وينبع من سلبياتنا. ذلك لأن الثقة والأمن والأمانة هي أهم ما ينقصنا، فإذا استطعنا التحلي بهذه الفضائل مرة أخرى فإن الإنسانية ساعتها تكون قد عثرت على أمة يمكن الثقة بها. ونكون قد استرددنا موضعنا في التوازن الدولي وخطونا خطوة واسعة إلى الأمام.

من الممكن ملاحظة هذا الأمر -أي نشر الأمن والأمان- عند توسع العثمانيين وسيطرتهم على معظم أنحاء العالم. فعندما كان الجنود العثمانيون يمرون بالقرب من البساتين والحدائق وهم في طريقهم إلى الحرب، كانوا يعلقون أثمان الفواكه التي يقطفونها من هذه البساتين على أغصان الأشجار. فكانوا بمثل هذه التصرفات الإنسانية النبيلة يفتحون قلوب سكان البلاد قبل فتح هذه البلدان بحد السيف، وإلا ما كان باستطاعتهم فتح بلدان أوروبا، ولا إدامة بقائهم فيها مع وجود كل هذا الحقد الصليبي المرعب. ولكنهم بقوا في البلقان وفي أوروبا أربعة قرون كاملة لأنهم كانوا بأمانة أبي عبيدة؛ لذا، استطاعوا أن يصلوا إلى أبواب فيينا بخسائر قليلة جدا، وكانوا طوال هذه القرون مثالاً للأمن وللطمأنينة في تلك البلدان، وأنا أعتقد بأن الدماء التي سكبت لحفظ الأمن في تركيا بعد تأسيس الجمهورية، لم تسكب طوال خمسة قرون من أجل استتباب الأمن بين الأقوام الأوروبية المختلفة.

أجل، فالإحصاءات تظهر لنا بأن عدد الشهداء الذين سقطوا طوال ستة قرون من العهد العثماني في جميع الحروب أقل من عدد الذين سقطوا في نصف القرن الأخير. ومن ثم فإن الزعم بأن الفاتحين العثمانيين كانوا يستندون إلى القوة القاهرة فقط زعم باطل. ومن

---

[1] عمر بن الخطاب: جوانبه المختلفة وإدارته للدولة لِشِبْلي النعماني ١/٢١٣-٢١٤.

جانب آخر إذا أخذنا بنظر الاعتبار طبيعة وسائط النقل في تلك الأيام تبين لنا بشكل بديهي استحالة إدارة الدولة وفرض سيطرتها ونظامها على تلك المساحات الشاسعة بقوة السلاح وبقوة الجيش لا غير.

نعم! فهذا هو سر نجاحهم في جمع مختلف العناصر والقوميات تحت سقف واحد، وتحت إدارة دولة واحدة طوال تلك المدة دون أن تظهر هناك مشاكل جدية؛ لأنهم قد فتحوا قلوب السكان أولاً. وفتح القلوب والنفوذ إلى النفوس هو وظيفة الدعاة في عصرنا الحالي، وهو الأسلوب والطريقة التي يجب السير عليها.

ج. دعوة أمته إلى الأمن

وكما كان سيد المرسلين يحتفظ بالوحي الإلهي وبالرسالة الإلهية بكل أمانة، فإنه كان يدعو أمته إلى خُلُق الأمانة نفسها، ويوصي أفرادها أن يعيشوا أمناء بين الناس. وأي شكل من أشكال الخيانة مهما كان ضئيلاً لا يمكن السماح به أو التفكير فيه، لذا حرّم أن يُغتاب ولو مؤمن واحد، إذ سرعان ما ينبه محدثه ويجنبه الإصابة بغبار الغيبة.

دخلت امرأة على عائشة رضي الله عنها فلما قامت لتخرج أشارت عائشة بيدها إلى النبي ﷺ -أي إنها قصيرة- فقال النبي ﷺ: «اغتبتيها.»[١] وقام النبي ﷺ بالتحذير نفسه في حادثة صاحبة ماعز بن مالك[٢].[٣]

وكان الرسول ﷺ يردد دائما هذا الدعاء ويوصي به أمته: «اللّٰهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة.»[٤]

وبقدر ما كان مهتما بمراعاة الأمانة كان اهتمامه بالتحذير من الوقوع في الخيانة لارتباطهما معاً. ويورد الرسول ﷺ خبراً مفزعاً عن الذين يقعون في هاوية الخيانة فيقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يُرفع لكل غادر لواء فقيل: هذه غدرة فلان بن فلان.»[٥]

لقد كانت روح النبي ﷺ مغلقة وقلبه موصداً أمام جميع المفاسد والشرور، ومفتوحين لكل خير حتى أصغره وأدقه، فعاش حياته للخير وفي جو من الأمن والطمأنينة، واطمأنت

---

[١] أبو داود، الأدب ٣٥؛ الترمذي، القيامة ٥١؛ المسند للإمام أحمد، ١٨٩/٦.

[٢] عند ما تم رجم صاحبة ماعز بن مالك أصاب دمها وجه أحد الصحابة فشتمها، فحذره النبي ﷺ من ذلك، وقال إنها تابت توبة مقبولة عند الله. (المترجم)

[٣] مسلم، الحدود ٢٣.

[٤] أبو داود، الوتر ٣٢؛ النسائي، الاستعاذة ١٩، ٢٠؛ ابن ماجه، الأطعمة ٥٣.

[٥] البخاري، الجزية ٢٢؛ مسلم، الجهاد ٩؛ أبو داود، الجهاد ١٥٠.

الإنسانية إليه ووثقت به وخاب وخسر الذين ناصبوه العداء وأداروا له ظهورهم. أما هو فقد بسط جناح الرحمة على أمته ولَبَّى طلب كل من دقّ بابه.

وكما كان شخصاً أمينا، كان يشعر بنفس الأمن والطمأنينة والثقة بالله ﷻ، فكانت ثقته هذه بالله عروجاً لصفة الأمانة والأمن من النبي ﷺ وسموًّا ورجوعاً إلى الله تعالى. فالأمانة الهابطة من الله تعالى إلى النبي ﷺ كانت تظهر وتتجلى في صفة الأمن عنده، وعندما يتقارب طرفا هذا القوس ويتحد يظهر الأمن العام.

لقد تميز كل نبي بالثقة بالله تعالى والتوكل عليه، فقد كانت هذه صفة من الصفات اللازمة لهم وخُلقاً من أخلاقهم السامية. ويوضح القرآن هذا الخلق عندهم في آيات عديدة. ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُم ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُم عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ﴾ (يونس:٧١).

كان نوح عليه السلام يثق في ربه ويعتمد عليه ويقول: إن كنتم تنفرون مني ومن دعوتي لكم وتبليغي أمر الله لكم فافعلوا ما شئتم، ذلك لأنني واثق بالله معتمد عليه. أنتم كثر وأنا فرد واحد، ولكن اعلموا أن الله لن يضيعني. فأجمعوا أمركم وتشاوروا وضعوا الخطط ضدي أنتم وكل شركائكم ومعاونيكم حتى لا يفوتكم شيء ولا تتحسروا على شيء فاتكم عمله، بل اعملوا ما وسعكم العمل ضدي ونفذوا كل خططكم فأنا في انتظار كل ما يأتي من قبلكم.

لقد كان يقول هذا لهم ويتحداهم، لأنه كان شديد الثقة بالله تعالى، وكان يعلم علم اليقين أن الله سوف يعصمه من الناس. ومع أننا لا نعلم عدد الأفراد الذين ركبوا سفينته، إلا أننا نعلم أن كثيراً من الأنبياء -ومنهم إبراهيم عليه السلام- كان من ذريته ومن نسله، فالقرآن الكريم يقول إن إبراهيم عليه السلام من شيعته ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبرَاهِيمَ﴾ (الصافات:٨٣).

والموقف نفسه نراه عند النبي هود عليه السلام: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَا مِنْ دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ اٰخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (هود:٥٤-٥٦).

ويشرح القرآن موقف إبراهيم عليه السلام، موقف التسليم المطلق لله فيقول: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ

لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة:٤).

أجل، كان إبراهيم والذين آمنوا معه يرفعون راية العصيان ويتحدون الكفار قائلين لهم: إننا بعيدون من كل ما تعبدون من دون الله بُعدا كبيرا، فنحن ننكركم وننكر كل طواغيتكم، وقد بدت بيننا وبينكم العداوة وتوسعت حتى تؤمنوا بالله.

وهذه العداوة بين المؤمنين وغير المؤمنين بدأت منذ عهد آدم عليه السلام وتواصلت إلى يومنا الحالي. فالإيمان ضد الكفر، والكفر عدو للإيمان، فلا يمكن أن يجتمعا معاً أو يستقرا في مكان واحد، لأن الكفر سيسعى للقضاء على الإيمان، فكما أن الخفافيش لا تستطيع العيش في النور، فكذلك الكفار يضيقون ذرعاً بنور الإيمان ونور النبوة. فكان أتباع إبراهيم عليه السلام من المؤمنين يقولون للكفار إنه مالم تؤمنوا بالله وتعتمدوا عليه وتتوكلوا فإن العداوة ستبقى فيما بيننا ولن تهدأ.

ذلك لأنه يوجد انحراف وسقم في ماهية الكفر، والكافر ينظر إلى كل الأشياء نظرة عداء. أما المؤمن فإنه يضم في جوانحه مشاعر الإنسانية والمروءة، وهو ينظر إلى الكون كمهد للأخوة، لذا فهو يبحث مع الجميع نقاط الالتقاء والحوار، بينما يجد الكافر لذة ونشوة في التحرش والتشاجر مع الجميع. وعندما يؤمن الجميع بالله تعالى يتأسس سلام عام وشامل. أما توقع مثل هذا السلام من الكافر ومن الكفر فهو غفلة وتفكير سطحي، ذلك لأن الكفر ليس لديه ما يعطيه للإنسانية غير الإيقاع بين الأمم وإضرام العداوة بينها.

ومن ثم فلا يمكن أن يكون هناك حوار بالمعنى الحقيقي بين الإيمان والكفر، أما ما قاله إبراهيم لأبيه فقد عده القرآن الكريم استثناء. رغم أن ما قاله لم يكن إلا عبارة عن أمنية نبعت من شفقته ورأفته الواسعة، هذا مع العلم أنه أوضح بأنه لا يملك لأبيه عند الله شيئاً. وعندما قال: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة:٤) كان يعبر عن ثقته بالله واعتماده وتوكله عليه وحده.

ولو تم تدقيق حياة جميع الأنبياء لبرزت صفة ثقتهم واعتمادهم وتوكلهم على الله بروزاً واضحا. وتوكلهم على الله ليس مثل توكل عامة الناس أو مثل توكل أي فرد من الأفراد. هكذا كان توكلهم... إذن، فما بالك بتوكل وثقة سيد الأنبياء والمرسلين وخاتمهم..؟

لقد علمه الله تعالى أن يقول "حسبي الله" ومنذ ذلك الحين قضى حياته مطمئناً معتمداً على الله واثقاً به ومتوكلاً عليه. تأملوا مدى اعتماده على الله وتوكله عليه أن رجلاً بشجاعة

علي بن أبي طالب ﷺ يقول عنه: "لقد رأيتُنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشدّ الناس يومئذ بأساً."[١]

د. التوكل المذهل

عندما هاجر كان بيته محاطاً من جميع جوانبه بأناس مصممين على قتله أشد تصميم، فتلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَينِ أَيدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلفِهِمْ سَدّاً﴾ (يس:٩) ونثر عليهم ملء كفه تراباً ثم خرج من بينهم بكل اطمئنان ودون أن يبدي أي قلق[٢] لقد كان محتفظاً برباطة جأشه وشجاعة قلبه، ثم توجه نحو غار ثور... هذا الغار الموجود على قمة جبل يصعب ارتقاؤه حتى على الشباب، ولكنه ارتقى ذروة هذا الجبل وهو في الثالثة والخمسين من عمره. لقد كانت حياته عبارة عن سلسلة من المشاق والآلام وهذه المشقة آخرها. كأنما كان يستجيب لدعوة الغار له ويشرفه بالبقاء فيه ضيفاً عدة أيام.

ثم وصل مشركو مكة إلى باب الغار... ولم تبق هناك سوى مسافة متر واحد أو أقل، عندئذ قلق أبو بكر ﷺ واضطرب واصفر وجهه، ذلك لأنه كان يعد رسول الله ﷺ أمانة لديه، فماذا لو لم تصل هذه الأمانة إلى مكانها؟ أما رسول الله ﷺ فلم يتغير شيء في سحنته الباسمة... لقد كان رجلا آمنا مطمئنا، وكان يطمئن أبا بكر ﷺ ويقول له: «يا أبا بكر! لا تخف، إن الله معنا» ثم يقول له: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!»[٣]

وها هو في غزوة حُنين التي بدا وكأن الجيش الإسلامي يتشتت ويتفرق ذات اليمين وذات الشمال، وأيقن الجميع أن نهاية المعركة ستكون هزيمة منكرة للمسلمين. إذ بالنبي ﷺ يسوق جواده -الذي كان العباس ﷺ يحاول أن يوقفه- نحو صفوف الأعداء وهو يصيح بصوته المهيب:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب.»[٤]

وكانت شجاعته هذه هي التي أدت إلى عودة تماسك الجيش الإسلامي في وقت قصير، فانقلبت هزيمته إلى نصر مبين.

وموقف آخر عندما كان النبي ﷺ نائماً تحت شجرة بعد رجوعه من غزوة ذات الرِّقاع إذ أقبل عليه أحد الكفار واسمه غَوْرَث بن الحارث فأخذ سيفه المعلق على الشجرة وقربه من

---

[١] المسند للإمام أحمد، ٨٦/١.

[٢] السيرة النبوية لابن هشام، ١٢٧/٢.

[٣] البخاري، تفسير سورة (٩) ٩؛ المسند للإمام أحمد، ٤/١.

[٤] البخاري، الجهاد ٥٢؛ مسلم، الجهاد ٧٨.

عنق النبي ﷺ قائلاً له بنبرة استهزاء: من يمنعك مني؟ فلم يضطرب الرسول ﷺ أبدا لأنه كان واثقاً بالله تعالى، لذا، أجابه: «الله» فبهت الكافر واضطرب ووقع السيف من يده فالتقطه النبي ﷺ وقال له: «والآن من يمنعك مني؟» فأخذ الكافر يهتزّ من خوفه كريشة في مهب الريح. وهنا أقبل المسلمون الذين سمعوا صوت النبي ﷺ، فذهلوا مما رأوا وعندما علموا ما جرى زاد إيمانهم بالله. أما غَوْرَث فقد أمنه النبي ﷺ وأطلق سراحه دون عقاب.[١]

يقول المفكر الغربي المعروف "جورج برنار شو":

"إن محمداً شخص له جوانب سامية متعددة ومذهلة، وليس في الإمكان فهم هذا الإنسان اللغز حق الفهم، ولاسيما فهم أحد جوانبه وهو ثقته المطلقة بالله، فهذا سر لا يمكن فهمه."

كانت ثقته بالله لا يمكن قياسها ولا تقييمها بموازيننا العادية، لذا كانت مكانته ومنزلته عند الله منزلة سامية سمو ثقته وإيمانه بالله وتوكله عليه، لذا فلو دعا لانقلب الليل إلى نهار والظلام إلى نور والفحم إلى ماس.

إن رسول الله ﷺ هو أكثر شخص مدعاة للثقة من بين كل العالم، ومن ثم يجب أن تكون أمته أيضاً مدعاة للأمن وللثقة، تقول الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (النساء:٥٨).

يشرح علي بن أبي طالب ﷺ سبب نزول هذه الآية فيقول: بعد أن تم فتح مكة أخذ رسول الله ﷺ مفاتيح الكعبة من عثمان بن طلحة وفتح الكعبة بنفسه، ثم أعاد المفاتيح إلى عثمان، لأنه كان يراه أحق الناس بحمل هذه الأمانة، وهكذا كان، فبعد نزول هذه الآية سلّمت مفاتيح الكعبة إلى عثمان بن طلحة مرة أخرى.[٢]

غير أن حكم الآية حكم عام؛ لأن الرسول ﷺ عد تضييع الأمانة وعدم رعايتها علامة من علامات قيام الساعة إذ يقول لأعرابي سأله عن الساعة. «فإذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة.» قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة.»[٣]

أجل، إن الأمانة شيء خطير. وإعطاء الأمر لأهله يعد أمانة وهو من الأمور المهمة

---

[١] البخاري، المغازي ٣١، الجهاد ٨٤؛ مسلم، الفضائل ١٣؛ المستدرك للحاكم، ٢٩/٣.

[٢] الإصابة لابن حجر، ٤٦٠/٢؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٥٥/٤.

[٣] البخاري، العلم ٢؛ المسند للإمام أحمد، ٣٦١/٢.

لحفظ النظام في العالم. وضياع الأمانة يأتي بالمعنى نفسه لاختلال النظام العام. ووجود مثل هذا العالم الذي ضاعت فيه الأمانة واختل فيه النظام أو انعدام وجوده يكون سيان.

وفي حديث آخر يقول الرسول ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته. الإمام راع ومسؤول عن رعيته. والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها. والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته وكلكم راع ومسؤول عن رعيته.»[١]

إن ما يراد شرحه هنا ضمن هذا الإطار الشامل هو أن كل شخص مؤتمن عند الآخر، والوجود كله أمانة لدى الله ﷻ، والقرآن كان أمانة عند جبريل عليه السلام في البداية، ثم أمانة عند رسول الله ﷺ، ثم إن حقائق القرآن ونبوة محمد ﷺ أمانة عند أمة الإسلام. والأمة بأجمعها أمانة لدى الله ﷻ.

إن العناصر التي تتألف منها الحياة وكذلك العناصر الضرورية لحياة المجتمع تعتبر كدوائر متداخلة بعضها في بعض، وأي فساد يعرض لإحدى هذه الدوائر مهما كان ضئيلاً يسري إلى الدوائر الأخرى بعد أن يتضاعف أثرها، ولا أعتقد أن أحداً يشك في هذا. فإذا كان هناك أي فساد في مستوى الفرد، ولم يتم علاج هذا الفساد بسرعة، فلا يشكن أحد في أن هذا الفساد سينقلب في وقت قصير إلى فساد مزمن وإلى سرطان لا يمكن علاجه. ولكي يتم سد الطريق أمام جميع أنواع المفاسد، فإن على كل دائرة القيام بإيفاء جميع حقوق الأمانة الموكولة لديها.

والحديث الشريف يشير إلى هذا الترابط الكامل. وفي إطار هذه الإشارة، لو كان أفراد الأمة جميعهم -بدءاً من الحارس وانتهاء برئيس الدولة- في وعي كامل في موضوع الأمانة لأصبح هذا المجتمع المثالي المكون من الأفراد الأمناء كمجتمع المدينة الفاضلة التي تخيلها بعض المفكرين.

ولأن الأمانة بهذه الأهمية الجامعة فقد قال الرسول ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له.»[٢] فالشخص الذي لا يراعي الأمانة المودعة لديه لا يكون إيمانه كاملاً؛ لأن علاقة الإيمان بالأمانة هي أن كلا منهما سبب للآخر ونتيجة له. ومن ثم فمن الصعب أن تجد رعاية كاملة للأمانة عند غير المؤمنين.

---

[١] البخاري، الجمعة ١١، الوصايا، ٩؛ مسلم، الإمارة ٢٠؛ أبو داود، الإمارة ١.

[٢] المسند للإمام أحمد، ١٣٥/٣.

أجل، فالإنسان ذو الإيمان الكامل يكون أميناً، فإن لم يكن أميناً فليس إيمانه كاملاً. وفي حديث آخر يعرّف الرسول ﷺ المؤمن بقوله: «المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم.»[١]

وهنا أود أن أذكر مرة ثانية حديثاً أوردته في مبحث صدق الرسول ﷺ، وذلك لكونه ذا علاقة بموضوع الأمانة. قال رسول الله ﷺ: «اِضْمَنُوا لي ستّاً من أنفسكم أَضمن لكم الجنة»:[٢]

١- «اُصدقوا إذا حدثتم» أجل، فيجب أن يكون كلامكم وسلوككم متصفاً بالصدق والاستقامة، وَلْتكونوا مستقيمين استقامة الرمح.

٢- «وأوفوا إذا وعدتم»: ومخالفة ذلك يكون علامة من علامات النفاق وقد تم شرح هذا الموضوع باختصار فيما سبق.

٣- «وأدّوا إذا اؤتمنتم»: فإن ائتمنك أحد على شيء لتوسمه فيك الأمانة، فلا تخيب ظنه فيك، بل لا تكذب حسن ظنه بك يوم القيامة.

٤- «واحفظوا فروجكم»: أي احفظوا أعراضكم، واحفظوا أعراض الناس مثلما تحافظون على أعراضكم (سنتناول هذا الموضوع في مبحث "العفة" بشكل مفصل).

٥- «وغضوا أبصاركم»: أي لا تمد عينك إلى ما لا تملك. فالنظر إلى الحرام يفسد القلب، لذا ورد في حديث قدسي: «إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم، من تركها مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه.»[٣]

٦- «وكفوا أيديكم»[٤]: أي لا تمدن يدك بالإيذاء لأحد.

هذه هي الشروط التي يجب توفرها في الإنسان لكي يكون امينا يطمئن إليه الناس. يعيش أميناً في الدنيا ويضمن آخرته. فمن يضمن تحقيق هذه الشروط ضمن له النبي ﷺ الجنة.

فلكي يعم الأمن والأمان في الدنيا، يجب أن تكون مقاليد أمور الدنيا في يد أناس أمناء. ولو قام العالم الإسلامي بحمل الأمانة المودعة لديه، وأصبح ممثلاً للأمن والأمان في العالم لتأسس التوازن والاستقرار في الدنيا، وإلا فإن حال العالم كله -وليس حال تركيا فقط- أليمة تنفطر لها القلوب.

---

[١] الترمذي، الإيمان ١٢؛ النسائي، الإيمان ٨؛ ابن ماجه، الفتن ٢؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٢٠٦، ٢١٠، ٣٧٩.

[٢] المسند للإمام أحمد، ٥/٣٢٣.

[٣] كنز العمال للهندي، ٥/٣٢٨.

[٤] المسند للإمام أحمد، ٥/٣٢٣.

هـ. يا براعم الأمل

ستقومون أنتم بإهداء حقائق الدين وإقامتها في الدنيا مرة أخرى. فأنتم باقة ضوء من منبع نور عظيم أضاء أطراف العالم الغارق في الظلام، وأنشأ شجرة إيمان وارفة الظلال كشجرة طوبى ظللت بأوراقها وأزهارها كل الأرجاء.

كانت كل كلمة لأمتنا في المباحثات الدولية في تلك العهود الزاهرة بمثابة أمر. وستقومون أنتم -بإذن الله- باستعادة تلك العهود الزاهرة والتخلص سريعاً من هذا العهد المظلم الذي نعيشه. فهذا هو ما يأمله الجميع منكم... يأمله من يعيش فوق التراب ومن هو مدفون تحته. بل هذا ما يأمله منكم رسول الله محمد ﷺ وهو يتجول بروحانيته بينكم ويربت على أكتافكم ويبتسم لكم وإن كنتم لا ترونه أو تحسون به.

أنتم تستطيعون نشر الأمن والطمأنينة فيما حولكم إن بقيتم أمناء ولم تنحرفوا عن الاستقامة. أجل، إن استطعتم تحقيق هذا انفتح لكم قلب الإنسانية جمعاء على مصراعيه، وستتربعون في هذا القلب كما تربع أجدادكم من قبل. ولكن لا تنسوا أبداً أن شرط الوصول إلى هذه النتيجة وإلى هذه الذروة مرتبط بكونكم أمناء للأمانة الملقاة على عاتقكم.

فإن كنا نريد أن نكون أمة لها وزنها وكلمتها في الشؤون الدولية المهمة وتلعب دوراً بارزاً في تأسيس التوازن الدولي -حيث أننا مضطرون أن نكون كذلك- فيجب أن نكون ممثلين للحق وللعدالة وللاستقامة وللأمن.

الفصل الثالث: التبليغ

التبليغ هو الصفة الثالثة للأنبياء. وإذا أردتم أن تطلقوا على هذا اسم تبليغ وبيان حقائق الإسلام أو "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" فالنتيجة واحدة إذ تكونون قد أبنتم عن حقيقة كبيرة من الحقائق المتعلقة بالنبوة.

التبليغ هو الهدف من وجود كل نبي. فلولا مهمة التبليغ لكان إرسال الأنبياء عبثاً ودون معنى. لقد أظهر الله تعالى بأنبيائه عظيم كرمه وتجلت رحمانيته ورحيميته في حياة هؤلاء الأنبياء. وما كان في الإمكان انعكاس هذا الأمر على الناس الآخرين من دون التبليغ.

فكما يظهر الله رحمانيته بالشمس التي تبتسم وهي تشرق لنا كل صباح... هذه الشمس التي هي بمثابة مدفأة لمن يحتاج إلى الدفء، وموقد لما يحتاج إلى الطبخ، وريشة رسام يرسم بها أروع لوحات الجمال ملونةً بأبهى الألوان، فكذلك هم الأنبياء العظام، ولاسيما محمد ﷺ الذي كان أفضل أنموذج لتجلي الرحمانية والرحيمية للبشر والذي قال الله تعالى في حقه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

فلو لم يأت ويجدد دعوة الأنبياء السابقين لما تجلت علينا رحمة الله ﷻ، ولبقينا تائهين حيارى في صحراء الجهل والكفر والضلالة الموحشة.

فبينما كانت الإنسانية تتردى في مهاوي الجهل والتوحش إذا بها تتنسم أنفاس نبينا ﷺ التي تبعث الحياة في النفوس وتنقل لها أقوال الأنبياء السابقين... عند ذلك أحست وكأن الدنيا تحولت إلى ربيع مزهر وإلى بساتين خضراء نضرة تفتحت فيها آلاف الورود والأزهار، وصدحت في أفنانها وأغصانها آلاف البلابل. ولولا هذا لجُنّت من الوحشة ومن الحيرة ومن الوحدة.

أجل، فمن نحن؟ من أين أتينا؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟

مثل هذه الأسئلة المحيرة كادت تنخر أدمغتنا مثل مثقاب... كادت تحفر، وما كنا نملك أو نجد لها أجوبة شافية، وكان حتماً علينا أن نتحمل هذا الألم طوال أعمارنا. وعندما سيخطر على خيالنا منظرنا وقد تحولنا إلى عظام نخرة في القبر كنا سنرتجف من رعب بارد مظلم يستولي على نفوسنا... الرعب من العدم... هذا العدم الذي نقترب منه كل دقيقة... مثل هذا الرعب كان سيحول حياتنا إلى جحيم دائم لا راحة فيه.

جاء الأنبياء فعلمونا غاية الحياة وحقيقة الموت، فتعلمنا منهم أن مجيئنا إلى الدنيا مرتبط بغاية، وأن فراقنا للدنيا مبني على حكمة، وأن الموت ليس فناء ولا عدما، بل هو انتقال من مكان إلى مكان، وتسريح من مهمة ومن وظيفة معينة. أما القبر فهو صالة انتظار وباب مفتوح على عالم الآخرة. وعندما سمعنا هذا من الأنبياء تبددت وحشتنا وتحول كل شيء إلى أنس وانشراح، وزالت جميع المخاوف والشكوك وأسباب القلق من قلوبنا وعقولنا، وحل الأنس والمسرة محلها.

لقد أرسل الأنبياء إلينا بمثل هذه الرسائل، وكان قيامهم بتبليغها لنا هو غاية وجودهم. وإذا كنا نرى التبليغ واجباً يجب القيام به، فقد كان الأنبياء يقومون بالتبليغ كغاية وهدف يرون فيه سر حكمة مجيئهم إلى الدنيا، وكأن لسان حالهم يردد: "ليس هناك غاية أخرى من مجيئنا إلى الدنيا، فالله تعالى أرسلنا للناس من أجل أن نزيح الظلام من بين أيديهم ومن خلفهم ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم لكي يستطيعوا المضي قُدما نحو الصراط المستقيم دون أي نحراف، فلا يستطيع الشيطان أن يتسلل إلى أرواحهم أو أن يحاول إغواءَهم في طريقهم هذا."

أجل، إننا نقوم بالتبليغ كمهمة ووظيفة، أما الأنبياء فيقومون به كغاية لوجودهم وهدف لحياتهم وسر لخلقهم.

أسس ثلاثة في التبليغ

مما لا شك فيه أن مجيء النبي بالرسالة وقيامه بتبليغ هذه الرسالة للآخرين أمر مختلف تماماً عما يفعله الآخرون. فالأنبياء أولاً متميزون في موضوع تلقي الرسالة، فهم لا يتشابهون مع غيرهم في هذا الموضوع. وهم أثناء قيامهم بمهمة التبليغ يعلموننا معنى التبليغ وكيف يجب أن يكون. وهذا يشكل بعدا آخر في موضوع تبليغهم. والآن دعونا نتناول هذا الموضوع بإرسائه على قواعد ثلاثة:

١) النظرة الشمولية

إن الأنبياء عندما يقومون بتبليغ رسالة الله يوفون حقّ هذه المهمة بأصولها وقواعدها وطرقها الصحيحة التامة كأهل علم واختصاص في هذا الموضوع. إذ يتناولون الإنسان من جميع جوانبه كلا شاملا وغير مجزأ، ويقدمون له رسالته في إطارها الكامل دون أي نقص. ومن ثم لا يبقى أي من العقل والمنطق والقلب والأحاسيس والشعور خارج أنوار الوحي ولا يترك أو يهمل أيّ من هذا.

ذلك لأن كل نبي بين يدي الوحي كالميت في يد المغسل، يقلبه الوحي ذات اليمين

وذات الشمال ويوجهه أنى يريد فيتبع مشيئة الله وإرادته في أصغر الأمور وأدق التفاصيل، ويبدي حساسية فائقة تجاهها.

ومن ثم فإن أي تبليغ وأي دعوة لا تتوافق مع أسلوب تبليغ الأنبياء ودعوتهم لا تنجح في مهمة الإرشاد والدعوة. مثلا إن أهمل نصيب العقل فإن التبليغ لا يعطي النتيجة المرجوة. وإن أهملت المشاعر والأحاسيس سيؤدي أيضاً إلى نفس النتيجة السلبية. ناهيك عن الذين يخرجون خارج نطاق الوحي، فهم لا يصلون أبداً إلى الهدف. ولتنظروا إلى حال جميع النظم البشرية التي سارت خارج الوحي الإلهي وإلى عاقبتها والمسافة التي قطعتها. فهذه هي الشيوعية التي جرت وراءها الجماهير البائسة الفقيرة والمخدوعة زمناً، والتي كانت حلم كثير من البلدان الفقيرة لم تستطع إنقاذ نفسها من السقوط والانهيار مع أنها مرت بكثير من عمليات التصحيح والتبديل والتجميل. برغم أن مؤسسي هذا النظام -والنظم الأخرى - كانوا قد قدموا أنفسهم كأنبياء كذبة وجالوا وصالوا بهذه الصفة. إن الذين يصرون على تطبيق النظم البشرية سيصلون إلى النتيجة نفسها. أجل، سيعلن كل منهم -عاجلاً أم آجلاً- بأنهم كانوا مخدوعين.

إن العقل والمنطق والعواطف تكون جنباً إلى جنب في دعوة النبي. فالنبي لا يفكر في استغلال عواطف الشعب للقيام بمظاهرات صاخبة في الشوارع، كما أنه ليس مفكراً نظرياً قابعاً في ركن منعزل يحرم الجماهير من الحركات والنشاطات العامة والإيجابية. وكما أن النبي لا يجعل من الجماهير كتلاً فوضوية تسد الشوارع، فهو أيضا لا يقف حائلا أمام نمو عواطف الجماهير ورقيها. إنه يودع رسالات ربه إلى قلوب الناس ويذكي فيهم روح العمل والنشاط ويسمو بهم إلى سماء الإنسانية ويرقى بهم إلى مصاف الملائكة. وعندما يشرح القرآن الكريم هذه المسألة يقول لرسول الله ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف:١٠٨).

هذه السبيل هي سبيل الأنبياء وسبيل العقل والمنطق والحكمة أيضا. وهي في الوقت نفسه لا تهمل العواطف ولا القلب ولا الوجدان. فالكل يأخذ مكانه فيها، والأنبياء وأتباعهم يدعون الناس على بصيرة إلى الحق باتباع هذه السبيل.

٢) عدم انتظار الأجر

إن النبي لا ينتظر أجرا على تبليغه؛ فهو يقوم بدعوته لكونها وظيفته ومهمته، فكل الأنبياء شعارهم: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ (يونس:٧٢؛ هود:٢٩).[1]

[1] انظر هذه الآيات: ﴿وَيَا قَوم لاَ أَسأَلُكُمْ عَلَيهِ مَالاً إِنْ أَجرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ (هود:٢٩)، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجرٍ

٣) ترك النتائج لله

وعندما يبلغ النبي دعوته لا يتدخل في نتائجها؛ لأنه يعلم أن وظيفته هي التبليغ. أما العاقبة وحسن القبول وتحقق النتائج فمردها إلى الله سبحانه تعالى.

وبعد ذكر هذه الأسس الثلاثة سنتناول ماهية التبليغ والدعوة بالنسبة للنبوة، والسبل والطرق والأساليب التي يجب على الدعاة في كل عهد الالتزام بها أثناء قيامهم بالدعوة. وكل ما نرجوه أن يوفقنا الله تعالى للقيام بوظيفة الدعوة كما يحب ويرضى. فالله تعالى هو الذي وهب قلوبنا الشوق للقيام بالدعوة وهو الذي بيده التوفيق إن شاء، فنحن نثق به ونعتمد عليه.

إن النبي لا يفكر إلا في دعوته كما قلنا. وكم من أنبياء جاهدوا طوال حياتهم ووقفوا أعمارهم كلها على دعوتهم وما آمن بهم أحد،[1] ولكنهم بقوا مع ذلك مطمئنين لأنهم أدوا وظيفتهم كما يجب، فلم يصدر من أحدهم اعتراض لحظة واحدة في حياتهم ولم يتفوه قط بمثل هذه الأسئلة:

لماذا لم أوفق في دعوتي؟ لماذا لم يؤمن بي أحد؟ لماذا انتهى عملي إلى لا شيء؟ لماذا تتابع الفشل الواحد منه تلو الآخر؟ لقد كان كل نبي يفكر في دعوته فقط وكيف يؤديها؛ لذا، فهو ينظر إلى جميع الظروف بنظر الاعتبار ويؤدي مهمته في ضوئها. أما النجاح في دعوته فليس ضمن وظيفته. فالحكم في هذا يعود إلى الله تعالى وحده. وتوضح الآية الكريمة ذلك في خطابها لرسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (القصص:٥٦).

وبهذا المقياس فإن رسالة النبي تحمل صفة خاصة. فلو لم يؤمن بها أحد ما فتر النبي أبداً وما تردد أو قلق أو اضطرب، ولا سلك طريق اتهام الآخرين، بل استمر يؤدي وظيفته ومهمته. فلم يظهر الأنبياء أي فتور أو تراخ في الدعوة رغم تعرضهم لصنوف من الإهانة والازدراء. وهذا اللون من ألوان الدعوة صفة خاصة بالأنبياء وحدهم، ويستحيل أن يظهر كاملاً في غيرهم؛ لأننا نجد عند هذا الغير في العادة نوعاً من انكسار الخاطر والكدر، فمهما كان هؤلاء الدعاة ناضجين فإنهم لا يتخلصون من الرغبة في الحصول على نتيجة ما في

إِنْ أَجرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِين﴾ (الشعراء:١٠٩)، ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٍ﴾ (سبأ:٤٧).

[1] البخاري، الرقاق ٥٠؛ مسلم، الإيمان ٣٧٤؛ الترمذي، القيامة ١٦.

دعوتهم. وعندما لا يحصلون على شيء يظهرون نوعاً من خيبة الأمل وانكسار الخاطر. والأنبياء وحدهم هم الذين لا يحملون مثل هذه الأحاسيس؛ لأن هذه صفة خاصة بهم.

انظروا مثلاً إلى رسول الله ﷺ وما أصابه في أُحُد من حوادث أليمة. فإنه مع هذا لم يتكدر خاطره ولم يصبه هم أو غم. لقد انكسرت سنه، ودخلت حلقات مغفره في وجهه، حتى أن أبا عبيدة انكسرت سنه وهو يحاول تخليص وجه رسول الله ﷺ من حلقات المغفر.[١] ومع أن الدماء غطت وجهه الكريم فإنه اكتفى برفع يديه داعياً: «اللّٰهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون.»[٢]

ومن ثم عندما اقتنع قومه بنبوته بذلوا أرواحهم في سبيله. وهذه الحادثة وغيرها من الحوادث المماثلة تبين مدى سعة صدر رسول الله ﷺ.

فما كان الرسول ﷺ وغيره من الأنبياء والرسل يقابلون الأذى بالأذى، بل كانوا يتحملون الإيذاء في سبيل الله دون أي تذمر أو شكوى. وهذا نبي الله نوح عليه السلام يحكي القرآن عنه أنه قال لقومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف:٦١).

لقد قال نوح عليه السلام هذا لقومه ردا عليهم عندما اتهموه بالانحراف والضلالة إذ قالوا له ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ (الأعراف:٦٠).

والاتهامات اليوم هي نفس الاتهامات السابقة... أنت منحرف... أنت رجعي... أنت تعيش في القرون المظلمة... الخ.

ويستطرد نوح في خطاب قومه قائلا لهم: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٦٢).

أي يقول لهم إنني لست على ضلالة، بل إنني أريد أن أنصحكم وأخلصكم من الضلالات ومن الانحرافات التي تعيشون فيها، لأنني مرسل إليكم من رب العالمين نبياً ورحمة لكم أبلغكم رسالات ربي وأضيء لكم دروبكم، لأنني أعلم ما لا تعلمون.

ومع مرور عصور وعصور فإن الكفر هو الكفر لا يتغير ولا يتبدل. فنرى النبي هوداً عليه السلام يخاطب قومه قائلا: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين ۞ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (الأعراف:٦٧-٦٨).

---

[١] السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٨٤-٨٥.

[٢] الشفاء للقاضي عياض، ١/١٠٥؛ البخاري، الأنبياء ٥٤؛ مسلم، الجهاد ١٠٥.

فما من شيء قد تغير بالنسبة للأنبياء أو لأقوامهم. نفس الاتهامات ونفس الأجوبة... هي هي نفسها مع تغير في بعض الكلمات وبعض الجمل.

وبعد أن ذكرنا الأنبياء ضمن هذه القاعدة العامة لننقل الحديث إلى سيد الأنبياء ﷺ حيث يخاطبه الله قائلا له: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنْذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر:١-٣).

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۞ أَوْ زِدْ عَلَيهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرتِيلاً﴾ (المزمل:١-٤). أي يا أيها المتدثر والمزمل في ثيابه، لقد مضى عهد النوم... فقم لنجدة السائرين في الظلام. قم وأنذر هذه الجماعات الضالة طريقها من عاقبة السير في هذا الطريق المعوج، ومن عاقبة الانحراف والضلالة. ثم كبر ربك تكبيرة تهتز منها الأرض والسماء لكي يسمع الجميع، الإنس منهم والجن كم هو كبير ربك.

يا أيها الخليل المتدثر في الليل بردائه... إن مهمة شاقة مثل مهمة النبوة في انتظارك... قم واعبد ربك... فأنت في حاجة إلى أن تشحن من قبل ربك، لأن بانتظارك وظائف كبيرة عليك أن تنجزها. فكل ما يذكر لك يجب أن تبلغه للناس، ولا يمكنك القيام بمثل هذه المهمة الصعبة إلاً بمعونة من ربك، ولا تتم هذه إلا بالعبودية له.

لقد أعلن كل نبي كما فعل نبينا ﷺ أنه جاء للتبليغ دون أن ينتظر أجراً من أحد، ودون أن يتعلق قلبه بأي شيء أو يرتبط بأي شخص أو يمد عينيه لأي متاع أو يفقد نقاء بصره وصفاء بصيرته. لقد استمر في مد الإنسانية بالوحي الإلهي. ولولا قيامهم بتبليغ الرسالات النورانية لبقيت الإنسانية في ظلام بهيم ولما كان هناك فرق يذكر بينهم وبين الأنعام.

وقَدَرُ ابن آدم متداخل مع بعثات الأنبياء تداخلاً كبيراً، فلا تسأل أي أمة عن بعض أفعالها إن لم يبعث فيهم نبي. ولكن إن جاءها نبي وعاندت في التصديق به ولم يصيخوا سمعهم له فلا شك في كونهم محاسبين، فالقرآن الكريم يعلن البيان الإلهي ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء:١٥).

وبيان آخر: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ اٰيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (القصص:٥٩).

فالله تعالى أولا يرسل الأنبياء، فإن أصر الإنسان على الإنكار رغم قيام الأنبياء بأداء مهمة التبليغ، عند ذلك يستحق العذاب من قبل الله تعالى.

وهذا وارد في كل دور وفي كل عهد. فإذا كان الله تعالى معذباً بعض الناس الحاليين فهذا مرتبط بمدى قيام المؤمنين -أو عدم قيامهم- بمهمة التبليغ على وجهها الأتم. فمن استمر في عناده وتمرده رغم وصول التبليغ إليه فإنه يكون مستحقاً للعذاب.

ولهذا السبب قام الأنبياء باستخدام كل أساليب الدعوة وطرق التبليغ دون كلل ولا ملل. فنوح عليه السلام يقول بلسان القرآن: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً ۞ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۞ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۞ ثُمَّ إِنِي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۞ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ (نوح:٥-١٠). يقول النبي نوح عليه السلام: يا رب إنني دعوت قومي ليلاً ونهارًا ودققت أبوابهم. فما زادتهم دعوتي لهم إلا ابتعادًا عني وفرارًا مني... تمردوا فلم يصيخوا سمعهم لي. وحتى لا يسمعوني اخترعوا طرقًا عديدة... فتارةً يسدون آذانهم، وتارة يغطون رؤوسهم بملابسهم ويمرون وكأنهم لا يروني.

التبليغ عند رسولنا ﷺ

أ- أسس مهمة في دعوته ﷺ

إن هناك أسسا مهمة في الدعوة والتبليغ، وقد ذكرنا بعضا منها، والآن نسترجع ذكرها باختصار لنضيف إليها أخرى.

الأول: الفطنة في الدعوة والتبليغ، وتستطيع أن تسمي هذه الفطنة بـ"منطق النبوة".

الثاني: التمثيل الجيد للدعوة إذ يجب أن يعيش صاحب الدعوة دعوته في جميع مظاهر حياته. وقبل أن يدعو الآخرين إلى دعوته عليه أن يطبقها على نفسه ويعيش دعوته أولا.

الثالث: أن تكون النتيجة المبتغاة من الدعوة رضا الله تعالى وحده، فلا يجب أن تكون لدعوته غاية غير هذا ولو الجنة. وهذا يعني التضحية بجميع الفيوضات والمنافع المادية منها والمعنوية.

١) الفطنة الداخلية

هناك جانب الفطنة في دعوة رسول الله ﷺ. والفطنة هنا ليس مجرد منطق بارد. بل منطق يمتد من الظاهر إلى الباطن ومن الدنيا إلى الآخرة. فكما أن للإنسان جانبًا منطقيًا، فله كذلك جانب عاطفي. والذين يخاطبونه من جانبه العاطفي قد يفشلون عند وجود ثغرة في جانبه المنطقي. بينما كان الرسول ﷺ يخاطب الحواس والمنطق والحدس في آن واحد. فلا يهمل الأشياء المادية المرئية عند تناوله للإنسان، بل يجعلها ممرًا للنفوذ إلى روحه. وهو

يستعمل العقل ويدعو إلى استعماله ويهتم باستعمال المنطق والمحاكمات العقلية ويخاطب الضمائر عن طريقها. فكل من سمع صوته في وجدانه وصل إلى الحقيقة أسرع ممن يخاطب الوجدان وحده. فالفلاسفة من أمثال "باسكال" و"بِرغسون" وغيرهم من الذين أرادوا الوصول إلى الله عن طريق الحدس (Intuition) مكانهم وراء التلاميذ الذين رباهم رسول الله ﷺ بمراحل بعيدة برغم أن المفروض أن يكون هذا الميدان ميدانهم. أما في ساحة الفضيلة والخُلق العام فلا يمكن أن نضعهم حتى بجانب أقل مؤمن.

وكما لا يمكن الوصول إلى الرسول محمد ﷺ في أي ساحة وفي أي ميدان، فإننا نرى هذا الأمر ساريًا في موضوع الفطنة أيضاً. فقد غلب خصومه بثاقب بصره، وجعلهم يستسلمون له. فمثلاً نراه يرفع أصبعه مشيرًا إلى الأصنام وقائلاً: ماذا تأملون من هذه الأحجار والأخشاب والتراب..؟ وبعد أن يخاطب عقل محدِّثه يأخذ بيده ليقربه إلى القلب أيضًا بطريقة خارقة غير اعتيادية وأحياناً بمعجزة، ثم يجعله يتقدم خطوة أخرى وينصبغ باطمئنان الإيمان ويذوق حلاوته حتى يصبح شخصًا آخر هَمُّه الحياة الأخرى.

لنأخذ مثالاً السيرة الروحية لعمر بن الخطاب ﷺ فقد قال له ﷺ إنه لا يعلم كيف أن شخصًا عاقلاً مثله يبقى بعيدًا عن الهداية، ولا يعلم ماذا ينتظر من الأحجار والأوثان.

فهو أولاً يمدح عمر بهذه الأقوال، ثم إنه يقول كلامًا يحترم المنطق؛ وبذلك أخذ عمر في راحة يده، ثم نفذ إلى قلب عمر ﷺ بأسلوبه الهادئ الذي يبعث الأمن والطمأنينة والثقة، وفي المرحلة الثالثة استطاع بعبوديته العميقة أن يجعل عمر الذي كان جبارًا في الجاهلية يجلس بين يديه جلسة تلميذ مؤدب أمام أستاذه الكبير.

نقدم مثالاً ملموسًا قبل الانتقال إلى الأسس الأخرى:

جاء شاب إلى رسول الله ﷺ. والصحابة لا يذكرون اسم هذا الشاب، ولكن إن قمنا بجمع الروايات وتوحيدها نعلم أنه جُليبيب ﷺ وقال له: ائْذَنْ لي يا رسول الله بالزنا. لننقل الرواية كاملة: عن أبي أمامة قال: إن فتى شابًّا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائْذَنْ لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه. فقال: «ادنه» فدنا منه قريبًا قال فجلس:

قال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم» قال: «أفتحبه لابنتك؟»

قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم.» قال: «أفتحبه لأختك؟»

قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم» قال: «أفتحبه لعمتك؟»

قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم» قال: «أفتحبه لخالتك؟»

قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم.»

قال: فوضع يده عليه وقال: «اللّٰهم اغفرْ ذنبَه وطَهِّرْ قلبَه وحَصِّنْ فَرْجَه» فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلي شيء.[١]

لقد استطاع رسول الله ﷺ بهذا الحوار المنطقي مع الشاب أن يجعله بين راحتي يديه يوجههه الوجهة التي يريدها. ثم وضع يده على صدره داعيًا «اللّٰهم اغفرْ ذنبَه وطَهِّرْ قلبَه وحَصِّنْ فَرْجَه.» فأصبح جُليبيب بعد هذا الدعاء مثال العفة. ولم يرض أحد أن يزوج جليبيبا ابنته، لأن حياته الماضية كانت معروفة لديهم. وهنا تدخل رسول الله ﷺ وزوج جُليبيبًا.[٢] ثم استشهد ﷺ في أول معركة اشترك فيها بعد زواجه. وعندما انتهت المعركة سأل رسول الله ﷺ.

«هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نعم، فلانًا وفلانًا وفلانًا. ثم قال «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نعم، فلانًا وفلانًا. ثم قال: «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: لا. قال «ولكني أفقد جُليبيبًا. فاطلبوه» فطلب في القتلى. فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فأتى النبيُّ ﷺ فوقف عليه فقال: «قتل سبعة، ثم قتلوه. هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه.»[٣]

نعم! لقد استطاع الرسول ﷺ بفطنته أن يخلص شابا على حافة الزنا من الآثام، ثم رفعه إلى مثل هذه المرتبة السامية في أقصر وقت ممكن. إن هذا لأمر تحتار له العقول!

هب لو أن علماء التربية وعلماء النفس جميعا اجتمعوا وذهبوا إلى شبه جزيرة العرب هل يستطيعون تحقيق التربية والخلق الرفيع الذي حققه رسول الله ﷺ في مثل هذا الزمن القصير..؟ كلا! لن يستطيعوا ذلك. إنهم لن يفشلوا فقط في تحقيق تلك التربية العالية والخلق الرفيع، بل لن يستطيعوا تحقيق مبدإ واحد أو مبدأين فقط من منظومة هذه التربية... وهذا هو ما يشير إليه الواقع العملي.

---

[١] المسند للإمام أحمد، ٥/٢٥٦-٢٥٧.

[٢] المسند للإمام أحمد، ٤/٤٢٢.

[٣] مسلم، فضائل الصحابة ١٣١؛ المسند للإمام أحمد، ٢/١٣٦، ٤/٤٢٢، ٤٢٥.

ولقد عاش رسول الله ﷺ في عهد فشت فيه الأخلاق الذميمة من كل نوع حتى أصبحت طبيعة في النفوس، ولم يكتف رسول الله ﷺ باقتلاع هذه الأخلاق السيئة من النفوس بل زينها بأحلى الأخلاق وأجمل الفضائل، فلم تشاهد البشرية مثل هذه الأخلاق قط ولن تشاهد بعدهم أبدًا. والتاريخ الإسلامي شاهد صدق على هذا بما يحويه من آلاف الأمثلة. ولعل فشل الجهود المبذولة الآن لمكافحة بعض العادات السيئة يعد شاهدا آخر على ذلك. فعلى سبيل المثال تقوم الدول حاليًا بتسخير كل أجهزتها لمكافحة عادة التدخين، ومن ثم نرى الوزارت تشمر عن سواعد الجد، ويقوم المئات من العلماء بعقد الندوات لهذا الغرض وتخرج المطابع سيلاً من الكتب في مضار التدخين وتعلق الدعايات والإعلانات والشعارات... الخ. ولكن ماذا كانت النتيجة..؟ لا شيء.

ولكن لنتأمل الجماعة التي قام رسول الله ﷺ بتربيتها وكيف كانت أقواله تجد طريقها السريع في التطبيق العملي. وإليكم مثالاً واحدًا.

يقول أنس ﷺ: فإني لَقائم أسقي أبا طلحة وفلانًا وفلانًا إذ جاء رجل فقال: وهل بَلَغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال حُرِّمت الخمر. قالوا: أَهرِقْ هذه القِلال يا أنس. قال: فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل.[1]

نعم! لقد فعل كل هذا، والذين لا يرغبون أن يروا هذا نقول لهم ونحن نشير إلى شبه الجزيرة العربية: "إذا أردتم أن تفعلوا شيئا فاعملوا واحدًا من المليون مما عمله رسول الله ﷺ هناك..." ولن يستطيعوا ذلك أبدًا.

٢) تطبيق الدعوة على النفس أولاً

أحد الأساليب الديناميكية التي استعملها النبي ﷺ في دعوته، هو جعل طراز حياته مطابقًا تمامًا للمقام الذي يمثله. وتمثيله الحق لِما كان يقوله ويدعو إليه كان صادقًا إلى درجة أن من يشاهده ويراه كان يؤمن بالله تعالى من غير حاجة إلى دليل آخر، حتى أن رؤيته مرة واحدة كانت كافية للإيمان بأنه رسول من عند الله.

يقول عبد الله بن رواحة:

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان منظره ينبئك بالخبر[2]

---

[1] البخاري، المظالم، ٢١، تفسير سورة المائدة ١٠؛ مسلم، الأشربة، ٤؛ المسند للإمام أحمد، ٢١٧/٣.

[2] الرسول لسعيد حوى، ١٩/١؛ وانظر لرواية أخرى إلى: الإصابة لابن حجر، ٣٠٧/٢.

إن الذين آمنوا به ووهبوا قلوبهم له والذين خاطبوه بـ"يا رسول الله" كانوا هم الذين حكموا العالم وأداروه من بعده. فلم يكن نجاحه محصوراً في إيمان نفر قليل به. فمن بين هؤلاء الذين آمنوا به نجد أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا ﷺ أجمعين، إذ كان كل واحد منهم شخصية كبيرة تستطيع إدارة العالم بأجمعه؛ فما كان أي من هؤلاء من ذلك الطراز الذي يمكن أن يسلم قياده بسهولة لكل من يظهر أمامه. فلو كان أمامهم أحد سوى رسول الله ﷺ ما كان أي منهم ليؤمن به أو يسلس قياده له. إن شخصا في مستوى علي بن أبي طالب ﷺ الذي يقول: "لو كُشف الغِطاء ما ازددتُ يقينًا."[١] والذي وصل في إيمانه إلى مستوى "حق اليقين"، أقول إن إيمان مثل هذا الشخص بالنبي ﷺ يعد دليلاً قائمًا بحد ذاته.

لقد كانت كل أحواله مؤثرة وساحرة بلغت أن العالم اليهودي عبد الله بن سلام ما إن رآه للمرة الأولى حتى قال: "فلما تبيَّنْتُ وجهَه عرفتُ أنّ وجهه ليس بوجه كذاب."[٢]

أجل، لقد كانت رؤيته كافية للإيمان به. والذين أفنوا حياتهم كلها من أجل إيصال صوتهم وآرائهم للآخرين يعلمون مدى صعوبة هذا الأمر أكثر من غيرهم، أي الإيمان بهم من أول لقاء. لأن معظم هؤلاء يقضون حياتهم كلها في جهد متواصل فلا ينجحون إلا في جذب أشخاص بعدد أصابع اليدين. بينما انظروا إلى رسول الله ﷺ، فهل ترون مثيلاً له أو شخصًا آخر يتربع في قلوب ما يقارب مليار شخص؟ وهل هناك شخص آخر غيره يذكر اسمه خمس مرات في اليوم من فوق المآذن في كل أنحاء العالم..؟ إذن، فالإنسانية تحبه وتعلن هذا الحب كل يوم خمس مرات، هذا على الرغم من كل النظم والأشخاص العاملين ضده.

أجل، فعلى الرغم من كل شيء فما يزال الرسول محمد ﷺ متربعًا على عرش القلوب؛ لأنه طبق على نفسه أولاً ما دعا الناس إليه، وعاش مثالاً حيًّا للمبادئ التي دعا إليها، لذا كانت كلماته تنفذ إلى أعماق الجماهير وتجد طريقها للتطبيق العملي.

لقد كان يمثل في نفسه أجمل أنموذج للعبودية لله عندما كان يدعو الناس إلى هذه العبودية. تروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فتصف مبيت رسول الله ﷺ عندها فتقول ثم قال: «ذريني أتعبَّد لربي.» قالت فقلت: والله إني لأحب قربك وإني أحب أن تَعَبَّدَ لربك. فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي، فبكى حتى بلَّ لحيته، ثم سجد

---

[١] الأسرار المرفوعة لعلي القاري، ص١٩٣.

[٢] الترمذي، القيامة ٤٢؛ ابن ماجه، إقامة الصلاة ١٧٤، الأطعمة ١؛ الدارمي، الصلاة ١٥٦، الاستئذان، ٤؛ السيرة النبوية لابن هشام، ١٦٣/٢-١٦٤.

فبكى حتى بلَّ الأرض. ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت: فقال: يا رسول الله ما يبكيك؟ وقد غفر الله لك ذَنبَكَ ما تقدم منه وما تأخر؟ فقال: «ويحك يا بلال! وما يمنعني أن أبكي وقد أُنزِلَ عليَّ في هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:١٩٠).» ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها.»[١]

كان يصلي حتى تتورم قدماه. وعندما ذكر له يومًا أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟.»[٢] لقد فتحت أمامه أبواب الشكر فكان جهده من أجل ذلك.

تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه فتحسستُ[٣] ثم رجعت. فإذا هو راكع أو ساجد يقول «سبحانك وبحمدك لاَ إله إلا أنت» فقلت: بأبي أنت وأمي. إني لفي شأن[٤] وإنك لفي شأن آخر.

وفي رواية أخرى قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعتْ يدي على بطن قدميه وهو في المسجد[٥] وهما منصوبتان وهو يقول: «اللّهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.»[٦]

لو شاء لعاش عيشة رخية وهينة مثل عيشة الملوك. ولقد اقترحوا عليه في مكة مثل هذا العيش في مقابل التخلي عن دعوته، غير أنه فَضّل حياة الضنك والشدة على حياة الرفاهية والغِنى، وذلك في سبيل دعوته.[٧] فَضَّلَ حياة العبد الرسول الذي يجوع فيتضرع أو يشبع فيشكر على حياة المَلِك الرسول.[٨] لقد كان أسلوب حياته البسيطة الخشنة هو الذي ربط الناس به.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يعيش أيضاً حياة بسيطة جدًّا، غير أن ما شاهده من طراز حياة الرسول ﷺ جعل الدموع تملأ عينيه. يقول عمر ﷺ:

وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء وتحت رأسه وسادة من أدم حَشْوُها لِيفٌ وأنّ عند

---

[١] تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ١٦٤/٢؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩٧/٤.

[٢] البخاري، التهجد، ٦؛ مسلم، صفات المنافقين ٨١.

[٣] تحسست: أي تطلبته. (المترجم)

[٤] إني لفي شأن: تعني أمر الغيرة. (المترجم)

[٥] أي في السجود. (المترجم)

[٦] مسلم، الصلاة ٢٢١، ٢٢٢؛ الترمذي، الدعوات ٧٥، ١١٢؛ النسائي، الطهارة، ١١٩، التطبيق، ٤٧؛ أبو داود، الصلاة ١٤٨، الوتر ٥؛ ابن ماجه، إقامة الصلاة ١١٧، الدعاء، ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٩٦/١، ١١٨.

[٧] السيرة النبوية لابن هشام، ٣١٣/١-٣١٤؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٨٠/٣.

[٨] المسند للإمام أحمد، ٢٣١/٢؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١٩/٩-٢٠.

رجليه قَرَظًا[١] مصبوبًا، وعند رأسه أَهَبٌ[٢] معلقة فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت. فقال: «ما يبكيك؟» فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسولُ الله. فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»[٣]

صحيح أن زمام الدنيا يجب أن يكون بأيدينا، وقد كان رسول الله ﷺ يدرك هذا أكثر من غيره، ولكنه كان يعيش حياته الشخصية بشكل بسيط جدًّا.. وفي الحقيقة إنه ما كان يعيش لنفسه بل لغيره. ألم يكن تمثيله لدعوته بهذه الكيفية من أكبر عوامل جذب الأرواح إليه؟

إن في حياة الرسول ﷺ وسلوكه وتصرفاته وطراز حياته دروسًا قيمة للدعاة. أجل، فإن الشرط الأساسي للنفوذ إلى القلوب هو تطبيق الدعوة ومبادئها على النفس أولاً وقبل كل شيء كما فعل ذلك رسول الله ﷺ.

إذا أردت أن تشرح لأحدهم معنى مخافة الله والبكاء من خشيته، فعليك أولاً أن تقوم في الليل وتبلل سجادتك بالدموع. في نهار تلك الليلة وعندما تدعو الناس ستتعجب من مدى تأثير كلامك عليهم، وإلا ستتلقى صفعة من الآية الكريمة ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ (الصفّ:٢) فتلاقيك الخيبة في التأثير على الناس.

٣) عدم انتظار الأجر

كان عدم انتظار أي أجر دنيوي أو أخروي مقابل القيام بمهمة الدعوة والتبليغ كما فعل ذلك رسول الله ﷺ دليلاً آخر على نبوته. لأن هذا من أخلاق النبوة. والدعاة الحقيقيون الذين جاءوا وسيجيئون من بعده هم الذين يتخلقون بهذا الخلق. والقرآن الكريم يأمرنا باتباع أمثال هؤلاء الذين لا يسألون أجرًا من أحد.[٤]

لقد أنفق الرسول ﷺ ثروة السيدة خديجة رضي الله عنها في سبيل الدعوة، ولم يطلب من أحد لنفسه شيئًا. وهذا هو أبو بكر ﷺ من أقرب أصدقائه والذي كان يتهيأ لمرافقته في هجرته إلى المدينة، فأجر راحلة للنبي ﷺ، فأبى النبي ﷺ أن يركبها حتى يدفع ثمنها.[٥] في تلكم الظروف القاسية التي لا يفكر الإنسان فيها إلا في شيء واحد، هو مطاردة الأعداء له

---

[١] قَرَظاً: ورق شجر يدبغ به. (المترجم)

[٢] أَهَب: جمع إهاب وهو الجلد الذي لم يدبغ. (المترجم)

[٣] البخاري، تفسير سورة (٦٦) ٢؛ مسلم، الطلاق ٣١.

[٤] انظر هذه الآية: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسأَلُكُم أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (يس:٢١).

[٥] البخاري، البيوع ٥٧، مناقب الأنصار ٤٥، اللباس ١٦؛ المسند للإمام أحمد، ١٩٨/٦؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٢١٨/٣.

يفكر النبي ﷺ هكذا. ألا يدل ذلك على شدة تجرده وإخلاصه؟ إذ كيف يستطيع إنسان أن يفكر في مثل هذا الأمر الثانوي في ذلك الوقت العصيب. إن هذه الحادثة درس جيد لدعاة هذا العصر، ينبغي عليهم أن يعوها جيدا.

عن أبي هريرة ﷺ قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يصلي جالسًا. فقلت: يا رسول الله أراك تصلي جالسًا فما أصابك؟ قال: «الجوع يا أبا هريرة.» فبكيت فقال: «لا تبكِ، فإن شدة القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب.»[١] كان الجوع ضجيعه الذي لم يتركه أبدًا.

عن أبي هريرة ﷺ: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر. فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «وأنا، والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما»[٢] أجل، الجوع... لقد أنفق ثلاثتهم كل ما يملكون في سبيل الله ولم يبق عندهم ما يسدون به رمقهم، وعندما عضهم الجوع لم يستطيعوا النوم وخرجوا إلى طرق المدينة.

هذه هي السواعد القوية التي حملت عبء الدعوة والتبليغ آنذاك. والدعوة الآن تحتاج إلى مثل هذه السواعد القوية لحملها ونشرها بين الناس.

وهذه هي ابنته فاطمة رضي الله عنها التي قال عنها رسول الله ﷺ «فاطمة بَضْعَة مني فمن أغضبها أغضبني»[٣] والتي كانت تقوم بأعمال البيت من نقل الماء وطحن الحبوب بنفسها إذ لم تكن لها خادمة تعينها على ذلك، حتى بدا الإرهاق عليها ووضح أثره في يديها وعلى كتفيها. وكان زوجها علي بن طالب ﷺ يأسى لهذا الأمر غير أنه لم يكن يملك شيئا حياله. ودامت هذه الحال طويلا، غير أنها لم تشتك، ذلك لأنها كانت تحمل خلق والدها، كما كانت أشبه الناس بوالدها في قيامها وقعودها ومشيتها.[٤]

وعندما أصاب المسلمون في إحدى المعارك غنائم وأسرى، وجلبت هذه الغنائم والأسرى إلى المدينة، ذهب كل من له حاجة إلى الرسول ﷺ فأعطاه ما تيسر له، فأشار علي ﷺ على فاطمة أن تذهب وتسأل النبي ﷺ أن يعطيها خادمًا يعينها. ولنستمع إلى الحادثة من علي ﷺ وهو يروي أن فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى من أثر الرحى، فأتى النبيَّ ﷺ سَبْيٌ، فانطلقت فلم تجده فوجدت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء

---

[١] حلية الأولياء لأبي نعيم، ١٠٩/٧؛ كنز العمال للهندي، ١٩٩/٧.

[٢] مسلم، الأشربة، ١٤٠؛ الترمذي، الزهد ٣٩.

[٣] البخاري، فضائل أصحاب النبي، ١٢، ١٦؛ مسلم، فضائل الصحابة ٩٣-٩٤.

[٤] البخاري، المناقب ٢٥؛ مسلم، فضائل الصحابة ٩٨-٩٩.

فاطمة، فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبتُ لأقوم فقال: «على مكانكما.» فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري. وقال: «ألا أُعلِّمكما خيرًا مما سألتماني، إذا أخذتما مضاجعكما تُكبّران ثلاثًا وثلاثين -وفي رواية أربعًا وثلاثين- وتُسبّحان ثلاثًا وثلاثين وتَحمدان ثلاثًا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم.»[١]

وها هو يرى يومًا عند فاطمة رضي الله عنها سلسلة من ذهب فيقول لها: «يا فاطمة! أيغُرُّكِ أن يقول الناس ابنة رسول الله وفي يدها سلسلة من نار»، فأرسلت فاطمة بالسلسلة إلى السوق فباعتها واشترت بثمنها غلامًا فأعتقته. فحُدّث بذلك فقال: «الحمد لله الذي أنجى فاطمة من النار.»[٢]

ومما تجدر ملاحظته في هذا الأساس الثالث أن رسول الله ﷺ إضافة إلى عدم انتظاره أي جزاء أو منفعة من أحد فإنه كان يتحمل مظاهر العدوان والأذى والخصومة من الآخرين. فكم من مرة حثَوْا على رأسه التراب فلم يسرع له سوى ابنته فاطمة. وكم من مرة دميت رجلاه من الأشواك التي كانوا يرمونها على طريقه. وفي إحدى المرات كان يصلي في الكعبة فتَجَمَّع عليه بعض المشركين وأراد أحدهم أن يخنقه بردائه خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم.[٣]

ولم تثن هذه الأفعال رسول الله ﷺ عن دعوته، لذا نراه يقول لابنته زينب وهي تبكي من أذى المشركين لوالدها: «يا بنية! لا تخشيْ على أبيكِ غِيلةً ولا ذِلَّة...»[٤] ولم يضيعه الله ولم يذله، بل جعل حبه أبديًا في قلوب الملايين من أتباعه.

وقبل أن ننتقل إلى موضوع آخر نورد هنا كلمات حول الدعوة والتبليغ. لقد حاولنا حتى الآن أن نشرح أن الدعوة هي غاية وجود الأنبياء ووجود نبينا، فما خلقوا إلا للدعوة والتبليغ. أما نحن فعند قيامنا بهذه المهمة مهمة الدعوة والتبليغ فإننا نقوم بها كوظيفة معينة ومهمة يجب تنفيذها ومسؤولية ينبغي أداؤها، ولكن الأنبياء يقومون بها لأنهم خلقوا لأجلها، فهي بذلك غاية وجودهم.

كما أننا عندما قمنا بتحليل هذا الموضوع حاولنا بيان كيفية أن الرسالة التي جاء بها رسول الله ﷺ مكتوب عليها "محمد رسول الله". كما قمنا ببيان الطرق والأساليب التي اتبعها

---

[١] البخاري، فضائل أصحاب النبي ٩.

[٢] النسائي، الزينة ٣٩؛ المسند للإمام أحمد، ٢٧٨/٥.

[٣] البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٥؛ المسند للإمام أحمد، ٢٠٤/٢.

[٤] مجمع الزوائد للهيثمي، ٢١/٦.

في تبليغ رسالته هذه، وكيف أن هذه الأساليب دليل قائم بذاته حول نبوته ورسالته، وأشرنا إلى الطرق السليمة التي لا يتيه ولا يضل فيها الدعاة. فنحن على يقين تام بأنه إذا أريد النجاح الدائم الباقي فليس أمامنا إلا اتباع الطرق والأساليب التي اتبعها النبي ﷺ. وقد أثبتت آلاف من الحوادث استحالة النجاح والتوفيق بالطرق الأخرى. لذا، فإننا نؤكد مرة أخرى بأن على الدعاة الذين يريدون أن يكونوا هداة ومرشدين للناس أن يتبعوا الرسول محمدًا ﷺ. فهو المرشد الحقيقي. والطريق الذي خطه هو طريق الهداية الرشيدة، ذلك لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

بـــ كان ﷺ مفطورًا على التبليغ

لقد كان التبليغ لدى سيد المرسلين فطرة وسجية. كانت نفسه تضيق عندما لا يجد قلبًا طاهرًا يبلّغه دعوته، مثلما نضيق نحن إن حُرِمْنا من الأكل والشرب أو عندما نحرم من تنفس الهواء. والحقيقة أنه ما كان يهتم بالأكل والشرب فقد كان يصوم أحيانًا صومًا متواصلاً.[1] وكان يأكل أحيانًا ما يكفي لسد رمقه فقط وإبقائه حيا.[2] فقد كان قلبه المفعم بآلام دعوته لم يدع لديه شهية للأكل. فكما تعيش الملائكة بالتسبيح كان رسولنا ﷺ يعيش بالدعوة. وعندما يجد أمامه صدرًا رحبًا وطاهرًا يفرح وينشط. والقرآن الكريم يصف وضعه هذا فيقول: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٣). وفي آية أخرى يقول القرآن الكريم: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف:٦).

أجل، فلو رأى إنسانًا متمردًا على الله لا يسجد له، لتغلغل الألم في أعماق نفسه، وكان هذا الإنسان مبعث حزن عميق له. فكل إنسان خلا قلبُه من الإيمان كان مصدر حزن عاصف في قلبه. وقد كان هذا مستقرًا في أعماق روحه، وعندما بعث نبيًا ازداد عمقا.

ومع التسليم بكل أوامر الدين وتعليماته وسننه، نسمع هذا الجواب المليء بالمعاني من أحد تلاميذ الرسول ﷺ ممن حمَلوا آلام الأمة الإسلامية وآمالها في هذا العصر،[3] إذ قال لمن سأله عن سبب عدم زواجه:

"إنني من كثرة تفكيري وانشغالي بآلام الأمة الإسلامية ومشاكلها لم أجد متسعًا من

---

[1] البخاري، الصوم ٢٠؛ مسلم، الصيام ٥٦.

[2] البخاري، الأطعمة ٢٣، الرقاق ١٧؛ مسلم، زهد ٢٠، ٢٦.

[3] المقصود هو الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي. (المترجم)

الوقت ولا فرصة للتفكير في الزواج." أجل، فهذا هو حال الأنبياء وورثة الأنبياء. وأنا أعتقد أن العالم بأسره ينتظر مثل هؤلاء الأشخاص الملتهبة قلوبهم بآلام الدعوة ومشاكلها.

وما دمنا وصلنا إلى هنا في هذا الموضوع، فإني أود ذكر مثال طالما كررته، لأن هذا المثال يكسب موضوعنا بُعدا آخر. فقد سكن أحد أصدقائنا الأطهار في إحدى الشقق في ألمانيا، واستطاع بروحه الطاهرة وبسلوكه النظيف -وبعون من الله تعالى- التأثير في نفوس أصحاب البيت وأصبح وسيلة لهدايتهم، فأسلم الأب أولاً ثم تبعته الزوجة ثم الأولاد وأصبح ذلك البيت قطعة من الجنة بالجو الذي أصبح سائدًا فيه. وفي أحد الأيام بينما كان صاحب البيت جالسًا مع هذا الصديق يتسامران إذ قال له صاحب البيت الذي بدأت أحاسيس الهداية ومشاعرها تهبّ على قلبه فتملأه سعادة:

"يا صديقي..! إنني أحبك... أحبك إلى درجة أتمنى معها أن أفتح قلبي وأضعك فيه، ذلك لأنك كنت وسيلة لهدايتي، وأكسبتني أنا وعائلتي حياة أبدية. ولكني غاضب منك في الوقت نفسه غضبًا شديدًا إلى درجة أنني أود لو أقوم فأضربك ضربًا مبرحا، وقد تسأل: لماذا؟ سأشرح لك الأمر، فقَبْل مجيئك بوقت قصير توفي والدي، مع أنه كان لائقًا لأن يكون مسلمًا أكثر منا. كان يملك روحًا صافيةً وعاش حياة نظيفة، فلو أتيت إلى هنا قبل وفاته لكنت وسيلة لهدايته، لذا فإنني غاضب منك غضبًا شديدًا لتأخرك في المجيء."

إن هذا العتاب يبدو مثل أنين من أوروبا... بل من الدنيا كلها... وأنا أخشى جدًّا من أن أُجَرَّ من ناصيتي وأحاسب على هذا... ذلك لأنني لم أستطع تبليغ رسالة الإسلام لهم بالمستوى اللائق.

جـــ الحرص في تبليغ الدعوة

كان الرسول ﷺ حريصًا أشد الحرص في دعوته، إذ كان لا يريد أن يبقى شخص واحدلم تصل إليه دعوة الحق والحقيقة، لذا كان شديد الحرص في تبليغ الناس ودعوتهم بالأسلوب الصحيح والمناسب. فانظروا مثلاً إليه وهو واقف على رأس عمه أبي طالب وهو على فراش الموت يعيش دقائقه الأخيرة.

لقد قام أبو طالب برعاية رسول الله ﷺ وحمايته مدة تقارب أربعين عامًا. وعندما قام النبي ﷺ بإعلان نبوته وجد مشركو مكة أبا طالب سدًّا بينهم وبينه لا يمكن اختراقه. وما كانوا يستطيعون الوصول إلى الرسول ﷺ إلا على جثة أبي طالب.

لقد رضي أبو طالب أن يتجرع كل الآلام ويتحمل جميع المصاعب والشدائد في سبيل

حماية رسول الله ﷺ، وعلى رغم فقره وعمره المتقدم إلا أنه قد اضطر لتحمل مشاق الحصار والمقاطعة التي أعلنها مشركو قريش والتي استمرت ثلاث سنوات.

والآن أبو طالب متمدد على فراش الموت ورسول الله ﷺ واقف على رأسه يقول له كلما سنحت الفرصة: «أي عم! قل لا إله إلا الله، كلمة أُحاجُّ لك بها عند الله» غير أن أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية حالوا دون هداية أبي طالب وخلاصه، وقالا له: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ ولم يزالا يكلماه حتى قال آخِر ما كلَّمهم به: على ملة عبد المطلب... فقال رسول الله ﷺ: «لأستغفرَنَّ لك مالم أُنْهَ عنك.»[1] فنزلت آية منعته من الاستغفار له حيث ذكرت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِي وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُربَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (التوبة:١١٣).

لقد كان أبو بكر ﷺ أكثر الناس معرفة بمدى رغبة الرسول ﷺ في هداية أبي طالب. فبعد فتح مكة جاء بوالده الشيخ أبي قُحافة إلى رسول الله ﷺ ليصافحه معلنًا إسلامه، يقول ابن عباس ﷺ:

جاء أبو بكر بأبي قُحافة وهو شيخ قد عمي فقال رسول الله ﷺ: «ألاَ تركتَ الشيخَ حتى آتيه.» قال: "أردتُ أن يأجره الله، والذي بعثك بالحق لأنا كنتُ أشدَّ فرحاً بإسلام أبي طالب مني بإسلام أبي ألتمس بذلك قرة عينك."[2]

وكما كان الرسول ﷺ يرغب في هداية عمه أبي طالب، فإنه كان يرغب أيضاً في هداية "وحشي" قاتل عمه حمزة ﷺ. والتاريخ حفظ لنا قصة هذا الموضوع.

١) دعوة وحشي ﷺ

عن ابن عباس بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي بن حرب قاتل حمزة يدعوه إلى الإسلام. فأرسل إليه: "يا محمد! كيف تدعوني وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنى يلق أثاما، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا. وأنا صنعت ذلك فهل تجد لي من رخصة." فأنزل الله ﷻ: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَاٰمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الفرقان:٧٠). فقال وحشي يا محمد هذا شرط شديد إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا فلعلّي لا أقدر على هذا. فأنزل الله ﷻ ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ

---

[1] البخاري، الجنائز ٨٠؛ مسلم، الإيمان ٢٤؛ النسائي، الجنائز ١٠٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٥٣/٣.

[2] الإصابة لابن حجر، ١١٦/٤؛ المسند للإمام أحمد، ١٦٠/٣؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٤٨/٤.

يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء:٤٨). فقال وحشي: يا محمد، هذا أرى بعد مشيئة، فلا أدري يغفر لي أم لا، فهل غير هذا. فأنزل الله ﷻ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:٥٣). قال وحشي: هذا نعم فأسلم.[١]

وأصبح ضمن الصحابة الكرام الذين ما نذكر اسم أحدهم إلا ونكتب بعده ﷺ. غير أنه كان قاتل حمزة ﷺ، ولم يكن في مقدوره ولا في مقدور أحد غيره أن ينسى هذا. صحيح أنه لن يحاسب على هذا يوم القيامة، ذلك لأنه عندما ارتكب تلك الجريمة لم يكن مسلمًا والإسلام يجُبُّ ما قبله، فذنوبه السابقة مغفورة له...[٢] ومن ثم فقد كان محظوظًا من تلك الناحية... إلا أنه مع كل هذا كان قاتل حمزة ﷺ.

حمزة الذي كان بمثابة بطل خرافي يصيد الأسود ويبقر بطونها استسلم للنبي ﷺ وأعلن إسلامه، ولأنه رضع من نفس الثدي الذي رضع منه رسول الله ﷺ، فقد احتلّ مرتبة أخ له من الرضاعة[٣] وقد كان المسلمون يعيشون في خوف قبل إسلامه، فلما أسلم رنت جنبات جزيرة العرب بصوت المسلمين ودعوتهم. هذا هو حمزة الذي قتله "وحشي" في عهد جاهليته، إذ رماه في معركة أُحد برمح فأصابه في صدره، فوقع على الأرض وهو يرسم بجسده حرف "لا..." فمنذ إسلامه وهو يقول "لا" لكل شي ما عدا الله تعالى. بعد قليل شاهده رسول الله ﷺ وأحشاؤه مقطعة، فجلس عند رأسه وأجهش بالبكاء. بكى وذرف الدموع عليه. وها هو وحشي يمد يده الملطخة بدماء حمزة ﷺ إلى رسول الله ﷺ ويبايعه. ولتنظروا إلى مفهوم التبليغ والدعوة عند الرسول ﷺ فهو الآن يمسك بيد وحشي ويهنئه بإسلامه... بل هو الذي دعاه للإسلام.

وبعد إسلام وحشي وإيمانه قال رسول الله ﷺ «فهل تستطيع أن تغيّب وجهك عني» ذلك لأنه كلما رآه تذكر حمزة وتجددت آلامه فلا يستطيع أن يُظهِر له الرحمة الواجبة على النبي إظهارها لأصحابه فيكون نكد الحظ ويكون النبي ﷺ غير قائم بواجبه.

ومثل أي صحابي آخر انقاد وحشي لتوصية الرسول ﷺ وأمره ولم يخالفه فحاول ألا يظهر أمامه وأن يكون بعيدًا عنه. ولكنه في الوقت نفسه كان ينتظر كل دقيقة بل كل ثانية

---

[١] مجمع الزوائد للهيثمي، ٧/-١٠١.

[٢] انظر الحديث: "إن الإسلام يَجُبّ ما كان قبله". (المسند للإمام أحمد، ١٩٩/٤).

[٣] الإصابة لابن حجر، ٣٥٣/١؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٥١/٢.

دعوة ثانية من رسول الله ﷺ... كان يقف وراء سارية وينظر إلى النبي ﷺ ويحاول أن يتصيد نظراته... ألا يأتي يوم يقول لي فيه: "آن لك أن تظهر أمامي."

وبينما كان ينتظر هذا اليوم السعيد فوجئ بالخبر المذهل... لقد توفي رسول الله ﷺ وفارقنا... كان خبرًا صاعقًا له... إذن، فلم يبق هناك أمل أن يدعوه أحد.

مضت أيام وحشي بعد ذلك في التكفير عن خطاياه السابقة، إلى أن اشتعلت حرب اليمامة فأسرع والتحق بجيش خالد بن الوليد الذي أرسل إلى اليمامة. كانت هذه فرصة له يجب ألا يضيعها. فقد سبق له وأن تورط في إثم قتل أحد أبطال الإسلام الكبار، ومع أن ذنبه قد غفر له، إلا أن ضميره كان يضطرم بنار ذلك الإثم. والآن سنحت له فرصة كبيرة وهي قتل مسليمة الكذّاب أعدى أعداء الإسلام. أخذ وحشي معه ذلك الرمح الصديء الذي قتل به حمزة ﷺ واشترك في معركة اليمامة. استمرت الحرب عدة أيام... وكانت حرباً ضروساً.

وعندما بدت أمارات الهزيمة حاول مسليمة الكذاب الخروج والهروب من القلعة فلمحه أحد الحراس من الصحابة الكرام فصاح بوحشي: ها هو عدو الله.

وما إن سمع وحشي هذا حتى هز رمحه الصديء وأرسله إلى صدر مسيلمة الكذاب - كما كان قد أرسله من قبل إلى صدر حمزة ﷺ- فاخترق الرمح صدر مسليمة فهوى على الأرض من فوق فرسه صريعاً. ما إن رأى وحشي هذا حتى انكب على الأرض يسجد شكرًا لله.[1] وانهمرت الدموع من عينيه، لقدكان وكأنه يخاطب روح رسول الله ﷺ ويقول له: أأستطيع أن آتي الآن يا رسول الله..؟

نحن لا نعلم بماذا أجابه رسول الله، ولكن من المحتمل أن روحانية الرسول ﷺ التي حضرت إلى معركة اليمامة قد رقت لدعاء وحشي وانكساره وباركته لرجولته وشجاعته وقالت له: "تستطيع من الآن فصاعدًا أن تظهر لي" هذا ما لا نعرفه، لأنها قضية بُعد آخر، ولكن غايتنا من سرد هذه الحادثة هي شرح ماهية الدعوة والتبليغ عند رسول الله ﷺ.

أجل، فنحن نرى هنا شفقته ورحمته لقاتل بطل كبير وحبيب أثير لديه مثل عمه حمزة الذي كان يجله مثل والده ويحبه مثل أخيه. ولكي يدعو وحشي إلى الإسلام جرب طرقًا عديدة، واستطاع أن يجعل من مثل هذا الشخص صحابياً. فلو لم تكن الدعوة والتبليغ جارية منه مجرى الدم وموجودة في فطرته، وقطعة من روحه أفكان من الممكن مشاهدة مثل هذا الإصرار في دعوة شخص مثل وحشي للإسلام؟ كلا... ولكن إصراره وحرصه يدلان على أن الدعوة

---

[1] البخاري، المغازي ٢٣؛ المسند للإمام أحمد، ٥٠١/٣؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٧٦/٣-٧٧.

والتبليغ عند النبي ﷺ صفة من صفاته، لذا فلم يكن من الممكن أن يسلك إلا هذا الدرب.

٢) دعوة عكرمة رضي الله عنه

كانت عداوة عكرمة للإسلام أكثر من عداوة وحشي. إذ كان عدواً للإسلام نفسه، أي كانت عداوته عن سابق إرادة وتصميم. والبيت الذي نشأ فيه عكرمة كان بيت عداء للإسلام؛ وأفراده كلهم فطروا على عداوة الإسلام؛ فرب البيت كان أبو جهل، وقد سرى جهله إلى سائر أفراد البيت فأصبح مباءة للجهل وللظلام المعنوي، فمن أسلم من أفراده تعرض لأذى لا يوصف.

كان عكرمة في عدائه للإسلام وكأنه يتسابق مع والده، فما من أمر اشترك فيه والده ضد الإسلام إلا واشترك فيه عكرمة فقد أعماه الكفر والضلالة. ومع أن المسلمين فتحوا مكة وأسلم أهلها، إلا أن عكرمة بقي معاندًا في خصومته للإسلام وقاتل المسلمين بسيفه، ثم هرب إلى اليمن.

وكانت أم حكيم بنت الحارث بن هشام زوجتُه وبنتُ عمه امرأةً عاقلةً وكانت قد أسلمت، فذهبت إلى اليمن بدافع الوفاء لزوجها وأقنعته بالرجوع إلى بلده. ولكن عكرمة كان يستحي من مقابلة الرسول ﷺ، ذلك لأنه لم يدع خصومة إلا أبداها له، ولم يدع أذى إلا عمله. فإن كان المطلوب نثر الأشواك في طريقه كان هو في رأس القائمين بذلك. وإن كان المطلوب نثر التراب على رأسه ﷺ كان هو في مقدمة الناثرين. غير أن رسول الله ﷺ كما كان حريصًا على إسلام وحشي كان حريصًا على إسلام عكرمة. وعندما دخل عليه عكرمة رحب به النبي ﷺ قائلاً له: «مرحباً بالراكب المهاجر، مرحبًا بالراكب المهاجر. مرحبًا بالراكب المهاجر.» صحيح أن الهجرة انتهت بالمعنى الإسلامي بفتح مكة، إلا أن النبي ﷺ قال هذا إشارة إلى قدومه من بلد بعيد. كان هذا الترحيب كافيًا لإذابة جليد العداوة في قلب عكرمة. وبعد أن نطق بالشهادتين قال للنبي ﷺ وهو مطأطئ الرأس حياء: "يا رسول الله! استغفر لي كل عداوة عاديتكها أو موكب أوضعت فيه أريد فيه إظهار الشرك."

فرفع رسول الله ﷺ يديه بالدعاء: «اللّٰهم اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها أو موكب أوضع فيه يريد أن يَصُدّ عن سبيلك.» فما أن سمع عكرمة هذا الدعاء حتى استولى عليه انفعال شديد... إذ ما كان يتوقع مثل هذا الاستقبال وهذا الترحيب. فقال للنبي ﷺ وهو في أوج الانفعال:

"أما والله يا رسول الله لا أدع نفقة كنت أنفقتها في الصد عن سبيل الله إلا أنفقت ضِعفها

في سبيل الله، ولا قاتلت قتالاً في الصد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله."

وبَرَّ عكرمة بوعده، وفي معركة اليرموك جاد بنفسه واستشهد فيها. اشترك عكرمة في معركة اليرموك مصاحبًا معه زوجته وأطفاله. وعندما جرح جرحًا بليغًا حملوه إلى خيمة. فبدأت زوجته وأطفاله يبكون فقال عكرمة لزوجته: "لا تبك! لن أموت قبل أن أرى النصر" كانت هذه إحدى كراماته... بعد قليل دخل الخيمة عمه الحارث بن هشام قائلاً: "أبشروا! لقد نصرَنا الله تعالى" فحمد عكرمة الله تعالى وقال قبل أن يجود بنفسه: ﴿تَوَفَّنِي مُسلِماً وَأَلْحِقنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف:١٠١).[1]

أجل، لقد كان رسول الله ﷺ حريصًا على هداية الناس، فقد كان يمثل في الدعوة وفي التبليغ قمة لا يمكن بلوغها. إذ مد يده للآلاف ولمئات الآلاف ليقودهم إلى عالم النور والهداية، ولكنه لم يكن يعرف الاكتفاء، لذا نراه يمد يد الشفقة والرحمة حتى لألدّ أعدائه فيبرهن بذلك كيف أن صفة الدعوة والتبليغ لدى الأنبياء قمة سامقة وذروة شاهقة لا يمكن بلوغها.

د- همّ الدعوة يؤرّقه

ما عرفت عينا النبي ﷺ النوم المريح منذ إعلان نبوته، لأنه كان يشارك الإنسانية كلها آلامها ويشاطرها أحزانها، وهذا لا يصح إسناده إلا للنبي ﷺ الذي أنفق حياته كلها في الدعوة والتبليغ.

لقد كان يذهب في السنوات الأولى من مرحلة الدعوة في مكة من سوق إلى سوق ومن حارة إلى حارة، ليدعو الناس في الأسواق إلى الدين الحق. ويتعرض في هذا السبيل إلى صنوف الأذى، فقد يقذف بالحجارة أو يهال التراب على رأسه... وما كان يعبأ بذلك، بل كان يمضي قُدُمًا في سبيل دعوته. وبينما كانت الملائكة تستحي من النظر إلى وجهه المبارك، كان مشركو مكة الغلاظ لا يجدون غضاضة بالسخرية منه. وبينما كانت الغيوم تحجب عن وجهه حرارة الشمس أحيانًا كان الكفار يقابلونه بأحطّ أنواع الانتقاص.

فها هو عندما نزلت آية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤) يجمع كافة أقربائه من أفخاذ وبطون القبائل ويقول لهم: «أرأيتم إنْ أخبرتكم أنّ خَيْلاً تَخرج من سَفْح هذا الجبل، أكنتم مصدِّقيّ؟» قالو ما جرّبنا عليك كذبا، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.»

---

[1] أسد الغابة لابن الأثير، ٤/٧٠-٧٣؛ الإصابة لابن حجر، ٢/٤٩٦، ٤٩٧.

وعندما قال لهم هذا خيم الصمت على الجميع وبدوا وكأنهم قطع من حجارة، ولم يجيبوه بكلمة واحدة فانبرى أبو لهب يقول -ويا ليته ما تكلم- للنبي ﷺ: تبًّا لك! ما جمعتنا إلا لهذا؟..[١] وانتهى الموقف على هذا وانصرف الجميع.

وقد أنفقت السيدة خديجة رضي الله عنها معظم ثروتها في المآدب التي كان النبي ﷺ يصنعها ويدعو لها أشراف مكة لكي تتيسر له فرصة تبليغهم ودعوتهم إلى دين الحق... ولكنها لم تأت بنتيجة.

يصف علي بن أبي طالب ﷺ مجلساً من هذه المجالس فيقول ما معناه: دعا رسول الله ﷺ أشراف مكة إلى بيته فأكلوا الطعام. ثم بدأ رسول الله ﷺ بالحديث فقال إنه رسول الله، وإنهم أقرب الناس إليه. لذا، يجب أن يكونوا عونًا له. وفي ختام كلامه قال:

«فأيّكم يبايعني على أن يكون أخي وصَاحبي؟» قال: فلم يقم إليه أحد قال: فقمت إليه، وكنت أصغر القوم، فقال: «اِجْلِسْ»، قال: ثلاث مرّات، كل ذلك أقوم إليه فيقول لي: «اِجْلِسْ» حتى كان الثالثة ضرب بيده على يدي.[٢]

وهكذا مرت الأعوام ورسول الله ﷺ لا يعرف الكلل ولا الملل بل يستمر في دعوته وفي تبليغه، ولم يعره أقرباؤه أذنًا صاغية أبدًا. فبدأ بالبحث عمن يستجيب له من الناس البعداء عنه. غير أن العثور على أناس ذوي قلوب حية ليس بالشيء الهين. فقد رجموه بالحجارة في الطائف.[٣] وطرد من أكثر الخيام التي زارها في الأسواق المقامة.[٤] ولكن إصراره في الدعوة كان يجذبه إلى عالم المفاجآت. فقد ساقه القدر إلى العَقَبة حيث التقى ببعض الأشخاص الطاهرين. في العقبة الأولى تعرف على اثني عشر نفرًا، وزاد عدد هؤلاء في العقبة الثانية في السنة الثانية إلى بضع وسبعين نفرًا. فأبلغهم رسول الله ﷺ بعض الأمور، فإن كانوا مؤمنين به فعليهم الإيمان به ضمن هذه الشروط. وقبل هؤلاء كل ما قاله رسول الله ﷺ دون أي تردد. وهنا طلب العباس ﷺ منهم أن يفكروا مليًا قبل إعطاء القرار، إذ شرح لهم أن قبولهم هذا يعني أنهم يضعون أنفسهم في مواجهة العرب أجمع، فلم ينكص أحد على عقبيه، وبايعوا النبي ﷺ على أن يفدوه بأرواحهم، فأرسل معهم النبي ﷺ مصعب بن عمير ليعلمهم دينهم.[٥]

---

[١] البخاري، تفسير سورة (١١١) ١؛ مسلم، الإيمان ٣٥٥.

[٢] المسند للإمام أحمد، ١/١٥٩.

[٣] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٦٠.

[٤] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٦٣.

[٥] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٧٣.

كان مصعب ﷺ الابنَ الوحيد لأغنى عائلة في مكة، وكان في السابعة عشر من عمره عندما أسلم. كان هذا الفتى من قبل إذا مر من أزقة مكة لوحت له الفتيات بمناديلهن من النوافذ، فقد كان أنيق الملبس.[١] ولكنه ما إن دخل الإسلام حتى نبذته عائلته، وعندما ذهب إلي المدينة لم يكن يملك سوى ملابسه، وعاش هناك فقيرًا، حتى أنه عند استشهاده في معركة أُحد -وقد تقطعت أوصاله- لم يجدوا ما يكفنونه به ﷺ.[٢]

ما إن وصل هذا التلميذ الجليل -تلميذ رسول الله ﷺ- إلى المدنية حتى شرع في الدعوة والتبليغ، فلم يبق في المدينة باب لم يطرقه. وكان إخلاصه للدعوة وتفانيه في سبيلها يجعل كلامه يدخل إلى القلوب ويأسر الأرواح. فيسرع مستمعه للدخول إلى الإسلام ونبذ الكفر. لقد أحدث مجيئه إلى يثرب موجة شديدة وهزة قوية، فكأنه كان نبع نور صاف يتسرب إلى القلوب فيملكها.

أسكنه أسعد بن زُرَارَة ﷺ في بيته، ومع أن صلاة الجمعة لم تكن قد فرضت بعد، ولم يشرف النبي ﷺ يثرب بمجيئه بعد، إلا أن أسعد بن زُرَارَة ﷺ كان يجمع المؤمنين ويصلي بهم صلاة الجمعة.[٣]

ولم يبق في يثرب رجل ذو شأن إلا أتى إلى بيته واستمع إلى مصعب ﷺ. لقد كان بعضهم يأتي وهو محنق، ولكنه يغادر البيت وهو قرير النفس. كان سعد بن معاذ من بين هؤلاء، فقد أقسم مغضبًا أنه لن يسمح لأحد بإحداث الفتنة في يثرب بعدما حُدّث أن مصعبًا يريد إحداث فتنة فيها. لذا شعر بأن عليه أن يقف في وجه هذه الفتنة ويخمدها. ودخل سعد إلى بيت مصعب ﷺ فرآه وهو يحدث بصوته العذب الرخيم. لم يملك نفسه سعد فقال كلاماً خشناً لمصعب ﷺ، فقال له ﷺ:

"أوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبتَ فيه قبلتَه، وإن كرهتَه عَزَلْنا عنك ما تكره."

فجلس سعد وقد سكن غضبه وبدأ يستمع إليه، وأحس بأنه ينتقل إلى عالم آخر لم يعهده من قبل... عالم ترفرف فيه أجنحة الملائكة. ولم يطل به الأمر فقد أسرع بنطق الشهادتين من أعماق قلبه ودخل في صفوف المسلمين.[٤]

---

[١] رجال حول الرسول لخالد محمد خالد، ص٣٩.

[٢] البخاري، الجنائز ٢٨.

[٣] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٧٧.

[٤] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٧٩.

وكما هز إسلام عمر بن الخطاب ﷺ مكة، كذلك هز إسلام سعد بن معاذ يثرب، فقد انتشر هذا الخبر المذهل فيها وفي القبائل المجاورة لها.

وهكذا فكما كان رسول الله ﷺ مشغولاً بنشر الدعوة، كان أصحابه المخلصون الصادقون يبذلون ما في طاقتهم لنشر الإسلام والحق في أحسن شكل وأجمل صورة. كان العالم كله في انتظار هؤلاء ليرفعوا المشاعل التي تضيء أرجاءه. ولم يكن إرسال مصعب إلى يثرب وطلحة إلى دومة الجندل والبراء وخالد -بعد سنوات- إلى اليمن إلا ثمرة الرغبة نفسها... رغبة تبليغ الدعوة ونشرها في العالم.

وإذا لم يوفق أحد هؤلاء الصحابة في دعوته في مكانه الذي أرسل إليه، كان رسول الله ﷺ يقوم بإرسال غيره ليحل محله. وكان هذا التغيير يأتي دائمًا بنتائج إيجابية. فمثلاً عندما أرسل خالد بن الوليد إلى اليمن لم يوفق خالد هناك توفيقًا يذكر، فأرسل علي بن أبي طالب ﷺ إلى هناك ونقل خالد بن الوليد ﷺ إلى "نَجْران" حيث يوجد فيها النصارى.

يخبرنا البراء بن عازب عن هذه الحادثة فيقول: إن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، ثم إن رسول الله ﷺ بعث علي بن أبي طالب إلى أن يقول: فكنت فيمن عقب مع علي. فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا ثم تقدم فصلى بنا عليّ ثم صَفَّنا صفًّا واحدًا ثم تقدم بين أيدينا قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعا.[1]

أجل، لقد وفق علي بن أبي طالب ﷺ في اليمن، ذلك لكونه يملك تاريخاً طويلاً مع رسول الله ﷺ ولأنه والد الحسن والحسين ﷺ ورئيس السلسلة الذهبية لجميع الأقطاب والمقربين والأولياء والأصفياء الذين سيظهرون حتى يوم القيامة. ولا يزال الحق والحقيقة حتى اليوم تحت أجنحة حمايتهم. فتح علي ﷺ قلوب أهل اليمن بكلماته التي كانت تذيب القلوب. وعندما تم فتح مكة جاء هؤلاء والتحقوا بالإسلام.[2]

هـ- الرسائل إلى رؤساء الدول

بينما كان رسول الله ﷺ يرسل أهل الكفاءات والقابليات إلى هنا وهناك للقيام بوظيفة إرشاد الناس إلى الإسلام كان يقوم بإرسال الرسائل إلى رؤساء وملوك الدول يدعوهم فيها إلى الإسلام، الذي هو الدين الحق. وكان هذا بُعدا آخر في مضمار الدعوة والتبليغ.

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ١٢١/٥.

[2] البداية والنهاية لابن كثير، ١٢٠/٥.

١) النجاشي

كان النجاشي حاكم الحبشة. لم يكن صحابيًا، لأنه لم ير الرسول ﷺ، ولكنه كان شخصًا كبير القدر، أرسل إليه رسول الله ﷺ رسالة بيد عمرو بن أمية جاء فيها:

«من محمد رسول الله إلى النجاشي أَصْحَمَة ملك الحبشة:

سلام عليك فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له.»[١]

في خطاب رسول الله ﷺ للنجاشي نرى أنه سلم عليه "سلام عليك" إذن، فقد كان يأمل منه خيرًا وكأنه كان يرى بعين الغيب أنه سيهتدي. ثم إن الأسلوب الذي استعمله الرسول ﷺ أسلوب رائع جدًّا، إذ نراه يتناول موضوع خطاب النجاشي من زاوية مريم عليها السلام لأنه يعرف مدى توقير النجاشي وحبه لها. ونحن أيضًا نوقر مريم عليها السلام لأنها ولدت نبيًّا كريماً وكانت مظهرًا للإلهام الإلهي.

والشيء الذي يلفت النظر أن النجاشي كان نصرانيا، لذا عندما خاطبه الرسول ﷺ ذكر الآيات القرآنية المتعلقة بالمسيح عليه السلام. فكان هذا أسلم طريق وأفضله للدخول إلى قلب النجاشي... وهكذا كان.

عند ورود الرسالة نزل النجاشي من عرشه. أخذ الرسالة وقبلها ووضعها على رأسه، وبعد قراءتها أعلن إسلامه وأمر كاتبه بكتابة الجواب في هذه الرسالة:

"إلى محمد رسول الله من النجاشي: أشهد أنك رسول الله... فإني لا أملك إلا نفسي وإن شئتَ أن آتيك فعلتُ. يا رسول الله، فإني أشهد أنما تقول حق."[٢]

كان النجاشي مؤمناً واعياً، فقد قال لأحد خلصائه يوماً: "ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أحمل نعليه."[٣] بعد مرور فترة من الزمن قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو يدخل المسجد: «إن أخاً لكم قد مات فقوموا فصلوا عليه.»[٤]

وقد اختلف الفقهاء في موضوع صلاة الغائب، فأصحاب المذاهب -عدا مذهب أبي

---

[١] البداية والنهاية لابن كثير، ١٠٤/٣.

[٢] البداية والنهاية لابن كثير، ١٠٥/٣.

[٣] دلائل النبوة للبيهقي، ٣٠٠/٢.

[٤] مسلم، الجنائز ٦٦-٦٧؛ البخاري، الجنائز ٤، ٦٥.

حنيفة- يجوزون هذه الصلاة. ويقول علماء المذهب الحنفي بأن تابوت النجاشي حضر أمام رسول الله ﷺ بمعجزة إلهية وأنه صلى صلاة الحاضر. وهذا موضوع فقهي لا نريد الدخول في تفاصيله هنا.[١]

٢) هرقل

أرسل الرسول ﷺ رسالته الثانية إلى هرقل إمبراطور الروم بيد دِحْيَة الْكَلْبِي، وكانت الرسالة تقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد فإني أدعوك بدِعاية الإسلام، أسلِمْ تَسْلَمْ يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).»[٢]

أثرت كلمات هذه الرسالة على هرقل، وكان أبو سفيان موجودًا آنذاك في بلده. وجرى الحوار التالي بينه وبين أبي سفيان:

- كيف نسبه فيكم؟
- هو فينا ذو نسب
- فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟
- لا
- فهل كان من آبائه من ملك؟
- لا
- فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟
- بل ضعفاؤهم.
- أيزيدون أم ينقصون؟
- بل يزيدون.
- فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

---

[١] كتاب الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري، ٥٢٢/١.

[٢] البخاري، بدء الوحي ٦؛ مسلم، الجهاد ٧٤.

- لا.

- فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

- لا.

- فهل يغدر؟

- لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.

هذا هو الحوار الذي جرى بين هرقل وبين أبي سفيان الذي لم يكن قد أسلم بعد، ولم يستطع أن يقول شيئًا ضد الرسول ﷺ سوى إبداء التردد في الجملة الأخيرة.

وكرر هرقل ذكر أجوبة أبي سفيان واعتبرها دليلاً على صدق نبوة الرسول ﷺ، ثم أخذ رأي صاحب له برومية، وكان عالمًا مثله، فكان رأيه مثل ما رأى. وفي رواية أنه قال لأبي سفيان: "فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدميّ هاتين" وقد حدث هذا فعلاً كما نعلم.[١]

وعندما وجد عظماء الروم ميل هرقل إلى الإسلام ثاروا وغضبوا، فلما رأى هرقل منهم ذلك أيس منهم وقال لهم: "إني قلت مقالتي آنفًا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيتُ" فسجدوا له ورضوا عنه.[٢] أما صاحبه في رومية فقد أسلم وبايع النبي غيابيًّا.[٣]

٣) وآخرون

أرسل الرسول ﷺ رسائل أخرى إلى جهات مختلفة وإلى أشخاص آخرين، فكان منهم من اهتدى وقبل الإسلام ومنهم من تصرف باحترام تجاه رسول الله وإن لم يسلم، كالمقوقس عظيم القبط، إذ أرسل له الرسول ﷺ حاطب بن أبي بلتعة. ومع أن المقوقس لم يسلم إلا أنه أكرم وفادة حاطب طوال إقامته هناك وأرسل معه هدايا عديدة للرسول ﷺ، وكانت أُمّنا مارية ضمن هذه الهدايا حيث ولدت له إبراهيم، وكان من ضمن هذه الهدايا بغلة[٤] بيضاء اسمها "دُلْدُل" كانت الأولى التي يراها العرب.

أما كسرى فقد مز ق رسالة النبي ﷺ وألقاها على الأرض، فمزق الله ملكه، ولم تلبث فارس أن تمزقت إربًا إربًا.[٥]

---

[١] البخاري، بدء الوحي ٦؛ مسلم، الجهاد ٧٤.

[٢] البخاري، بدء الوحي ٦، تفسير سورة (٣) ٤.

[٣] مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٣٦/٨، ٢٣٧؛ الإصابة لابن حجر، ٢١٦/٢.

[٤] البداية والنهاية لابن كثير، ٣٢٤/٥.

[٥] البخاري، العلم ٧؛ المسند للإمام أحمد، ٢٤٣/١.

قام رسول الله ﷺ بدعوة الحكام ورؤساء الدول ورؤساء مختلف القبائل، أي بتبليغ العالم كله بدعوته. كان كل يوم يمر يزداد نفوذه على القلوب، كان كأنه يملك جاذبية قدسية وسرية تجذب إليه -بخيوط سرية وغير مرئية- القلوب وتشرح له الصدور. وكل فرد أو مجتمع انجذب إليه أصبح يسمو إلى عالم النور. وبعد أن أقر مقعده في القلوب على هذا النحو أصبحت محاربته والاستمرار في عدائه وخصومته عملاً يائساً مثل محاولة طمس نور الشمس وحجبه بغربال.

ولم يلبث الجميع أن أدركوا هذا... أدركوا مدى عقم الوقوف في وجهه وصد دعوته، فألقوا أسلحتهم وطلبوا العفو والغفران منه.

و- صلح الحُديبية من زاوية الدعوة

يشكل صلح الحُديبية بُعدًا آخر في مجال فرص الدعوة والتبليغ. فقبول رسول الله ﷺ الشروط القاسية للصلح قوبل في بداية الأمر من قبل بعض الصحابة أمثال عمر بن الخطاب رضي الله عنه -الذي لا يشك أحد في قوة ارتباطه بالرسول ﷺ وتعلقه به- بردود فعل سلبية وباعتراض، وبدا لفترة قلقة أن فرصة الصلح ستضيع.

ولكن الذي حدث هو أن المسلمين استطاعوا في السنة التالية الدخول إلى مكة بكل حرية... هذا الدخول الذي أصبح موضوع حديث أهل مكة لسنة كاملة، مما فتح مغاليق كثير من القلوب للإسلام شيئًا فشيئا، فأسلم كثير من الشخصيات المهمة في مكة بمحض إرادتهم أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.[1] وقد لعب دخول هؤلاء إلى الإسلام بمحض إرادتهم ودون أن ينخدش كبرياؤهم دورًا مهمًا من زاوية الخدمات الكبرى التي أدّوها فيما بعد للإسلام.

كما أن إظهار الصحابة شدة تعلقهم برسول الله ﷺ في أثناء البيعة لم يغب عن أنظار الوفد المكيّ، مما يَسّر تفتح القلوب للإسلام.

ز- الدعوة الفردية

عندما كان رسول الله ﷺ في ذروة الصعود والانتصار لم يهمل العلاقات الفردية، بل أولاها اهتمامًا كبيرا. فمع أنه كان يعلم أن أهل مكة جميعًا سيطلبون منه الصفح والغفران

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٤/٢٦٩-٢٧٣.

قريبًا وسيستسلمون له إلا أنه مع هذا لم يهمل الترحيب الكبير لمقدم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وإسلامهما بين يديه. فأرسل بعض أصحابه لاستقبال هذين الشخصين العبقريين. وعندما أقبل عليه خالد بن الوليد وسلم عليه بالنبوة ونطق بالشهادتين قال له رسول الله ﷺ:

«الحمد لله الذي هداك! قد كنتُ أرى لك عقلاً رجوتُ أن لا يُسلِمك إلا إلى خَيْر.»[1]

كان كلام رسول الله هذا من أبلغ آيات الفخر لرجل في ذلك الموقف النفسي. ومن يدري ماذا فعلت هذه الكلمات بروح خالد ودورها في إشعال جذوة الإيمان في قلبه.

أما عمرو بن العاص فقد أمسك بيد رسول الله ﷺ لا يريد أن يدعها وهو يقول له: يا رسول الله أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي. فقال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام يَجُبّ ما كان قبله والهجرة تجُبّ ما كان قبلها.»[2]

أجل، كان رسول الله ﷺ قد أخذ بمقاليد القلوب، ولكنه كان يوظف هذا ويستخدمه في صالح الدعوة وفي صالح التبليغ. فأقبل عليه الناس يدخلون في دين الله أفواجا. ومن تلك الأمواج وصلتنا موجة في هذه الأيام. وأنا أومن بأن الرسالة المقدسة لرسولنا ﷺ ستبقى وستستمر حتى قيام الساعة.

وحسبما نقرأ في الصحف فإن آلافًا من الأوروبيين يسلمون، والدنيا بأجمعها مقبلة على الإسلام. أجل، إن أوروبا حامل بالإسلام وستلد يومًا ما، وأما العالم الإسلامي فهو في آلام المخاض وسيلد قريبًا. ثم انظر إلى شرق العالم حيث كان الفكر المنافق والملحد متحكمًا وسائدًا؛ فعلى الرغم من مرور أكثر من نصف قرن على سياسة التذويب ومسخ الشخصية فإن البلدان الإسلامية فيها مثل تُرْكِسْتان وكازاخستان وأَذْرَبِيجان وأوزبكستان وداغستان وقرغيزستان لم تفقد شيئًا يذكر من روحها ومن فكرها، وهي مقبلة بتلهف على عالمها الروحي والفكري الخاص بها. وفي القريب سيرتفع الأذان المحمدي في كافة أطراف الأرض وسيقبل الناس أفواجًا أفواجًا على الإسلام، فلن يدع ممثلو دعوة النبي ﷺ أي بقعة من بقاع الدنيا دون إيصال صوت الدعوة إليها، وهم إذ يفعلون هذا يتخذون المحبة لهم أسلوبا والحنان صفة.

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٢٧٣/٤؛ كنز العمال للهندي، ٣٧٤/١٣.

[2] البداية والنهاية لابن كثير، ٢٧١/٤؛ المسند للإمام أحمد، ١٩٩/٤.

حـــ استحقاق رعاية الله وعنايته

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة:٦٧).

ما خاطب الله تعالى أي نبي من أنبيائه بمثل هذا الخطاب، فعند خطابه لأنبياءه السابقين كان يخاطبهم بأسمائهم المجردة. أما هذا الخطاب بصيغة التعظيم فهو خاص برسوله محمد ﷺ.

فالرسول هو الشخص الذي يحمل رسالة من الحق ﷻ، ويبلغ أخبار عالم الغيب إلى الناس. وخطاب الله تعالى له بهذه الصفة تشريف له من جهة، وتذكير لنا بسمو منزلته عنده من جهة أخرى. فهو يعلن شرف نبوته، والنبي ﷺ يبلغنا رسالة نبوته وهو سيظل تحت ظل هذا الشرف وهذه المرتبة الرفيعة. أي يقول لنا بأن النبي الذي يخاطبكم وتخاطبونه شخص -إن جاز التعبير- يوقّره الله تعالى ويحترمه فلا يخاطبه باسمه: "يا محمد... يا محمد..." بل يخاطبه بـ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾.. أي يا أيها الذي يحيي القلوب والنفوس بالوحي الإلهي... ويا أيها النبي الذي يهرع لنجدة الإنسانية وإنقاذها... وبهذا فقد سما به الله تعالى إلى ذروة نورانية، وشرفه بالرسالة والنبوة وجعله أهلاً لأن يخاطبه مباشرة؛ لذا، نرى أن بعض المحققين يرون أن الله كلمه مباشرة في ليلة المعراج. فكما أن سائر الوحي تم من وراء حجب -وإن كان من قبل الله تعالى- كذلك فقد تم هذا في المعراج ولكن من دون حجاب.[1]

فهذا هو نبينا محمد المصطفى عليه الصلاة والتسليم، وهذه هي المرتبة التي وضعه فيها ربه وقال له: بَلِّغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تجعل أي شيء عائقًا أمامك من خوف أو قلق أو أي مانع آخر كالجوع أو العطش أو حب الجاه والمنصب في الدنيا.

ونحن نشهد أن الرسول ﷺ لم يعقْه أي عائق بل قام بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة حق الأداء. لقد انفرج أمامه باب الرسالة، فقام بفتح الباب على مصراعيه بصورة لم يسبقه بها أحد من قبله. وعلى ضوء ذلك يمكننا أن نفهم قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوسَينِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم:٩) من هذه الزاوية، إذ أنه تخطى جميع الحدود حتى وصل إلى مرتبة يصفه فيها أمير الشعراء فيقول:

حتى بلغتَ سماء لا يُطار لها ... على جناح، ولا يُسعَى على قدم

وقيـــل: كل نبيٍّ عنـــد رتبته ... ويا محمد هذا العرش فاســتَلِم

---

[1] انظر: البخاري، الصلاة ١؛ مسلم، الإيمان ٢٥٩؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٤٢٤/٧.

وهذا يعني تجاوز عالم الإمكان وتخطيه. وبهذه المناسبة أتذكر "اوغست كومت" أحد مؤسسي المدرسة الوضعية والذي قضى حياته في معاداة الدين، لأنه كان يرى أن أي شيء لا يدخل ميدان التجربة العلمية فهو هراء وكلام لا معنى له. غير أن هناك حادثة متعلقة به ذكرت في أحد كتب التاريخ وهو كتاب "تاريخ مراد". فقد ذهب "كومت" إلى الأندلس، وعندما رأى الآثار والفنون الإسلامية الرائعة هناك ذهل وبقي مدة يتأملها بإعجاب كبير، ثم بدأ يسأل هناك بعض الأشخاص عن الإسلام. وعندما أخبروه أن محمدًا ﷺ كان أميًّا ذهل بل صعق ولم يصدق هذا القول. وذهب إلى روما وقابل البابا التاسع وسأله عن هذا الأمر مستحلفًا إياه أن يقول له الصدق. وعندما أكّد له البابا صحة ما قيل له لم يملك نفسه إلا أن يقول: "إن محمدًا ليس بإله... ولكنه ليس بشرًا أيضًا." ألم يقل شاعرنا البوصيري:

فَمَبْلَغُ العِلم فيه أنه بَشَرٌ وأنه خيُر خَلق الله كلِّهِمِ

أجل، كان إنسانًا له أب وأم وله جانبه المادي، ولكن لا يمكن فهمه ولا إيضاحه من جانبه المادي أبدًا. فهو طائر في سماء النبوة، ولكن حديثنا عنه يدور على الدوام عن البيضة التي خرج منها. بينما وصل في المعراج إلى موضع نعجز عن إدراك ماهيته، لأن هذا خارج الإدراك والشعور البشري.

إن التبليغ ضروري إلى درجة أن الله تعالى وظف له أحب خلقه إليه وأحاطه علما بمدى ضرورة القيام به وحذره من التقصير في أي جانب منه.

ومن ثم فإن التبليغ والدعوة هما من أهم واجباتنا نحن الذين ننتسب إلى أمته. ويجب ألا ننسى أن خلاص البشرية لا يتم أبدًا إلا بدعوته وبأنفاسه ثم بأنفاس متبعيه والسائرين في دربه.

الفصل الرابع: الفطنة

الفطنة هي تجاوز العقل بالعقل، وقد بينا سلفا أننا يمكن أن نقول إنها منطق النبوة؛ وهذا المنطق هو النظر إلى الأشياء والحوادث من خلال منظار قد جمع بين الروح والقلب والحس وسائر اللطائف الإنسانية.

إن الفطنة ليست عقلاً ومنطقًا جافًّا فحسب، بل إن إضافة الإسلام إلى العقل والمنطق فحسب والقول بأن "الإسلام دين العقل" أو "دين المنطق"، ليس فقط جهلاً بالإسلام، بل يعد الخطوة الأولى لتحريف كبير. كلاّ! ليس الإسلام دين العقل أو المنطق فحسب كما يدعون... بل إنه دين الوحي الالهي.

وإنّ عدم تناقض المسائل الإسلامية مع العقل والمنطق يعود إلى كون الإسلام آتيًا من العلم الإلهي المحيط بكل شيء، ومفسَّرًا بالمنطق النبوي الشامل بما يليق بمصدره السماوي، أي أنه إلهام نبوي ومنطق نبوي. هذا المنطق الذي له قدرة على تلقي الوحي الإلهي والذي ينفتح للحس والقلب والعقل والفسلفة التي تأتي بمعنى اللطائف والحكم... أي أنه منطق فوق المنطق العادي، لذا نستطيع أن نسميه بـ"الفطنة العظمى".

إن كل وحي إلهي يجب أن ينعكس ضمن هذا المنطق. فهو حاجة وضرورة في الوقت نفسه. غير أن هذه الحاجة حاجة إنسانية فقط، ذلك لأن الوحي الإلهي إن لم يمر من المنطق النبوي ويعيَّر فيه وينظَّم -كما يعيَّر التيار الكهربائي ذو الضغط العالي، أو يتم تبديل التيار المتقطع إلى تيار دائم- ووصل إلى البشرية مباشرة لانصعقت منه ولاحترقت أمام هذا الوحي الإلهي. مثلما يحترق كل شيء إنْ رفع الله تعالى الحجب والأستار عن وجهه.[1]

أجل، إن فطنة الأنبياء تقوم بوظيفة الغلاف الجوي إزاء شهب الوحي الحارقة وهذا هو ما نطلق عليه اسم "الدين". أي التنزلات الإلهية التي تنزل إلى مستوى الإدراك البشري؛ والمنطق النبوي أي الفطنة النبوية هي التي تقوم بهذه المهمة. لذا، كان وجود الفطنة لدى كل نبي أمرًا ضروريًا. ومن الخطأ أن نصف هذا المنطق بكلمة "العبقرية"، لأن منطق الأنبياء فوق كل منطق، ويسمى "الفطنة".

---

[1] عن أبي موسى: حجابه النور -وفي رواية: النار- لو كشفه لأحرقت سبُحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه. مسلم، الإيمان ٢٩٣؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٣؛ المسند للإمام أحمد، ٤٠١/٤.

ولو لم توجد الفطنة لدى الأنبياء لما كان بإمكانهم الإجابة عن كل اعتراضات أعدائهم وعن كل استفسارات وأسئلة أنصارهم وإيضاح جميع المسائل لهم. ولو عجزوا عن القيام بهذا لأدّى ذلك إلى نتيجة حتمية وهي عدم وضوح الدين وصعوبة فهمه، فلا يكون هناك معنى لفروضه. وعندما لا يكون هناك معنى لفروضه أصبح خلق الإنسان عبثًا.

ولكي لا تحصل كل هذه النتائج السلبية كان من الضروري تجهيز الأنبياء بمنطق خارق للعادة، مما مكنهم من حل جميع المشاكل والعقد والمصاعب بيسر وسهولة.

فطنة نبينا ﷺ

لو تأملنا العهد الذي عاش فيه نبينا ﷺ لوجدنا أن الصحابة كانوا يسألونه عن المسائل الشرعية المستعصية عليهم، كما كانت هناك الأسئلة والشبهات التي تدور في أذهان بعض الذين يرغبون في الدخول إلى الدين الإسلامي والتي تنتظر الإجابة عليها إجابة شافية، وإضافة إلى كل هذا كانت هناك الشبه والشكوك التي كان يشيعها بين الناس بعض أهل الكتاب الذين كانوا يحسدون النبي ﷺ ويغتاظون منه. ولم يكن في الإمكان الإجابة عن كل هذه الإسئلة والشكوك إلا بمنطق النبي، أي بالفطنة النبوية.

كما كان الناس الذين كان يخاطبهم النبي ﷺ على درجات مختلفة من الفهم ومن الإدراك. فبعضهم كان من رجال الدين الذين قضوا جزءً كبيرًا من حياتهم في الكنائس والأديرة واكتسبوا علماً في بعض المجالات وعمقًا في فهم النفوس؛ ومنهم من تعمق في الأمور الفلسفية وأصبح رجل عقل ومنطق؛ ومنهم من أصبح له اليد الطولى في التجارة والاقتصاد، أو أصبح قائدًا محنكًا في الحروب أو سياسيًا داهية، أو كان بدويًا لا يعرف شيئا من أمور الدنيا. وكل واحد من هؤلاء كانت له مشكلته التي تنتظر الحل وأسئلته التي تحتاج إلى أجوبة. ومن ثم فقد كان على رسول الله ﷺ إذا تحدث أن يقول كلاماً يفهمه البدوي ويفهمه من هو في الذروة من الفهم، وأن يأخذ كل واحد منهم نصيبه من الفهم على قدر علمه، وأن تستمر هذه الصفة الشمولية للدين حتى قيام الساعة.

إن الإنسان كائن ناطق وكائن عاقل ومفكر. وهو بهذه الصفة يمثل -بشكل جزئي- صفة تعود لله تعالى. فإن انقلبت الأفكار إلى كلام، وإن انقلب الكلام إلى كتابة تم اكتساب الديمومة. إن الأفكار والمبادئ التي لا يتم الحديث عنها، والتي لا تسجل ولا تكتب أفكار تموت بموت صاحبها وتفنى وتزول. فكما أن قابلية التفكير لدى الإنسان نعمة، كذلك فإن

قابلية الكلام والتعبير عن الأفكار نعمة إلهية كبرى للإنسان. لذا، نرى القرآن الحكيم عندما يتحدث عن رحمانية الله تعالى يذكر بعد خلق الإنسان مباشرة ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن:٤).

فالإنسان يفكر ويتكلم منذ عهد آدم عليه السلام، وسيظل يفكر ويتحدث حتى يوم القيامة. فالأفكار والكلام والبيان لا يمكن أن ينتهي، وهذا من الرحمة الشاملة لله تعالى. وتتمثل هذه الرحمة الشاملة وتتجلى أكثر لدى الأنبياء ولاسيما لدى رسولنا محمد ﷺ. وهذا المستوى السامي لهم في هذا الأمر لا يفسر إلا بوجود الفطنة عندهم، فبغير الفطنة ما كان لهم أن يحتلوا هذه المرتبة، إذن، فالفطنة من أهم صفات الأنبياء.

إن كل نبي يملك قدرة إدراك كبيرة، وقدرة علي التعبير عنها، إذ يستطيع حل أعضل المشاكل بسهولة ويعبر عنها بأسهل العبارات وأوضحها. فبيانهم من نوع "السهل الممتنع" أي من النوع الذي يحسب السامع أنه يستطيع قول مثله. ولكنه عندما يحاول أن يتحدث وأن يتكلم مثلهم يرى أنه عاجز عنه. ذلك لأن قدرة شرح وبيان المسائل المعضلة هبة إلهية لهم. فسحر الحديث ورونقه لدى الأنبياء لا يوجد عند غيرهم.

كل مشكلة أو معضلة تعرض على النبي تجد لها حلاً بكل تأكيد. ومهما كانت تلك المشكلة فريدة في نوعها فإن النبي يتحدث عنها ويحلها وكأنه يملك خبرة أربعين سنة في ذلك الموضوع. لهذا نرى "جورج برنارد شو" يقول في حق رسول الله ﷺ: "إن محمدًا يستطيع أن يحل أعقد المشاكل التي يعاني منها عالمنا الحالي وهو يشرب فنجانًا من القهوة."

أجل، فما أكثر المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يزخر بها عصرنا الحالي والتي تنتظر الحلول. ولقد وضح للأصدقاء وللأعداء أن هذه المشاكل لا يمكن حلها أبدًا دون الرجوع إلى نبع بيان الرسول ﷺ. هناك أقوال كثيرة حول فطنته ﷺ؛ ولو جمعت هذه الأقوال لأصبحت مجلدًا ضخمًا. وسنذكر هنا مثلين اثنين فقط حتى ننهي هذا البحث الواسع.

يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنه حبر الأمة وترجمان القرآن: "إن أفضل الناس وأعقلهم هو نبيكم محمد ﷺ." وقال وَهْب بن مُنبِّه، وهو من علماء التابعين، وقد قرأ التوراة والإنجيل بدقة: "قرأتُ في أحد وسبعين كتابًا فوجدت في جميعها أن النبي ﷺ أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً." وفي رواية أخرى: "فوجدت في جميعها أن الله تعالى لم يُعْطِ جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا."[1]

---

[1] الشفاء للقاضي عياض، ٦٧/١؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ٢٦/٤.

أ- أمثلة من فطنته ﷺ

١) تعمير الكعبة

كان الناس في الجاهلية أهل فتنة وفساد. فكأن وظيفتهم في هذه الحياة هي إيقاد الفتنة. فما أن يجتمع منهم ثلاثة، حتى تظهر بينهم فتنة. ولا شك أن القيام بجمع مثل هؤلاء الناس على صعيد واحد وتربيتهم وتهيئتهم ليكونوا أساتذة العالم فيما بعد يعد معجزة خاصة برسول الله ﷺ، وقد أنجز هذه المهمة بفطنته ذات البعد السماوي.

لقد توافق أن بدأ المشركون في تعمير الكعبة قبل نبوة سيدنا محمد ﷺ. وما أن انتهوا من تعمير البناء حتى كادت أن تقوم بينهم فتنة عظيمة وحرب ضروس بسبب اختلافهم على وضْع الحجر الأسود في مكانه. فكل قبيلة تتمنى أن يكون لها هذا الشرف، ومن ثم استلت السيوف من أغمادها وأخرجت السهام من كنائنها وأشرعت الرماح. ولم يكن رسول الله ﷺ قد بُعِث بعد نبيًّا؛ ولكن بذرة النبوة كانت مكنونة في روحه تنتظر مجيء الربيع لكي تزهر وتتفتح. كان الوضع ينذر بقتال مشؤوم، وما كان أحد يدري كم ستطول هذه الحرب الداخلية إن نشبت، ولا عدد الضحايا الذين سيقعون فيها، ولا مقدار الأموال التي ستتلف. ولا يدري أحد كيف خطر ببال أحدهم أن يقترح تحكيم أول من يدخل عليهم من الباب الفلاني، وأن عليهم أن يقبلوا حُكْمه، وكيف قَبِل الجميع هذا الاقتراح. لقد بدأوا ينتظرون بلهفة أول قادم عليهم من هذا الباب... وهنا كان سيدنا محمد ﷺ أول الداخلين من هذا الباب. عندئذ هتفوا بسرور: "هذا الأمين، رضينا، هذا محمد" وعندما أخبروه بالأمر ودون حاجة إلى أي تفكير طلب منهم أن يأتوه برداء، فلما فعلوا وضع الحجر الأسود في وسطه وأمسك كل رئيس قبيلة بطرف منه وساروا حتى موضع الحجر حيث حمله سيدنا محمد ﷺ ووضعه في مكانه.[1]

وهكذا حال دون وقوع حرب داخلية كبيرة بين القبائل. ولم يجد حاجة إلى أي تفكير لحل هذه المعضلة، بل توصل إلى الحل بسرعة وفي سهولة ويسر... أليس هذا منطق النبوة؟ في الحقيقة إنه لم يكن قد بُعث بعدُ نبيًّا ولم يكن الوحي قد نزل عليه. غير أن هذا كان منطق وفطنة الشخص المرشح لوظيفة كبيرة ومهمة صعبة مثل مهمة النبوة... أجل، كان

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٤٢٥/٣؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٢٠٩/١.

عنده منطق فوق المنطق الاعتيادي وعقل فوق العقول وفطنة فوق الفطن. وكان هذا ضروريًّا لشخص سيحمل دعوة كدعوة القرآن الكريم.

٢) إسلام حُصين

لقد جاء حُصين إلى النبي ﷺ ناويا نصحه وإقناعه بترك دعوته. ولقد كان النبي ﷺ يملك قدرة خارقة في معرفة محدِّثه والوقوف على مستواه، لذا نراه يخاطب محدثه بعبارات غاية في الدقة بحيث لو بُدّلت كلمة واحدة منها، أو وُجهت نفس العبارات إلى إنسان آخر له شخصية مختلفة عن الأول لَما وصل إلى الهدف المنشود أبدا. فرسول الله لا يبارَى أبدًا في انتقاء الكلمات المناسبة وفي معرفة مستوى الشخص الذي يخاطبه. ومن المستحيل أن تجد أحدًا آخر له مثل هذه القابلية. لقد كانت هذه ملَكة طبيعية عنده بحيث يَعرِف ويُعيّن بسرعة أينَ ومع مَنْ يتكلم، وكيف يتحدث. ومن ثم كانت كل كلمة ينطقها ضرورية وفي محلها تماما. فكما لا تجد في أي كلام أو حديث له كلمة خاطئة، كذلك لن تجد فيه أي كلمة زائدة ليس لها ضرورة. دققوا إن شئتم كل كلام تحدث به كلمة كلمة فلن تجدوا كلمة واحدة زائدة لا لزوم لها في أي جملة من جمله... فإذا لم تكن هذه فطنة فما هي الفطنة إذن؟

انظروا كيف سحرت هذه الفطنة حُصينًا... فبعد أن أنهى حُصين كلامه سأله رسول الله ﷺ بكل رقة وأدب: «يا حُصين! كم تعبد من إله؟» قال: سبعًا في الأرض وواحدًا في السماء.[1] قال ﷺ: «فإذا أصابك الضر مَن تدعو؟» قال: الذي في السماء. قال «فإذا هلك المال مَن تدعو؟» قال: الذي في السماء. قال: «فيستجيب لك وحده وتُشرِكهم معه، أرضيته في الشكر أم تخاف أن يغلب عليك؟» قال: ولا واحدة من هاتين. قال: «وعلمت أني لم أكلم مثله» قال: «يا حُصين! أَسْلِمْ تَسْلَمْ.» قال: إن لي قومًا وعشيرة، فماذا أقول؟ قال: «قل اللّهم إني أستهديك لأرشد أمري. وزِدْني علمًا ينفعني.» فقالها حُصين فلم يقم حتى أسلم. فقام إليه عمران[2] فقَبّل رأسه ويديه ورجليه، فلما رأى ذلك النبي ﷺ بكى وقال:

«بكيتُ من صنيع عِمران، دخل حُصين وهو كافر فلم يقم إليه عِمران ولم يلتفت ناحيته، فلما أسلم قضى حقه فدخلني من ذلك الرقة»، فلما أراد حُصين أن يخرج قال ﷺ لأصحابه:

---

[1] الإله الذي عناه في السماء هو الله تعالى، الذي لم يستطيعوا إزالته من القلوب. ذلك لأن فكرة الله تعالى فكرة وإيمان راسخ قد امتدت جذوره إلى القلوب، بحيث أن العهد الجاهلي الطويل لم يستطع مسحه وإزالته. ويكفي هنا أن يقوم اللسان بالترجمة الأمينة والصادقة لصوت القلب.

[2] عمران وهو ابن حصين. (المترجم)

«قوموا فشيّعوه إلى منزله.» فلما خرج من سدة الباب رأته قريش فقالوا: صبأ. وتفرقوا عنه.[١]

والحقيقة أن الجمل الواردة في هذا الحوار جمل بسيطة جدًّا وواضحة ومختارة بشكل مناسب لوضع حُصين ولمستواه العقلي، فلم يبق أمام حُصين بعد الجملة الأخيرة للرسول ﷺ سوى التلفظ بالشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

أي أن الشخص المخاطب هنا ليس أمامه سوى سبيلين: إما النطق بالشهادتين والحصول على النجاة الأبدية، أو الاستمرار في العناد وترك مجلس الرسول ﷺ دون النطق بكلمة واحدة... ولم يكن أمامه خيار آخر.

٣) التحدث حسب مستوى البدوي

البدوي إنسان يعيش في الصحراء، قد ينسى حاجاته في مكان، وقد يصادف عاصفة رملية فيجأر بالشكوى... تأملوا حال مثل هذا الإنسان... ماذا يفعل إن ألمّت به مصيبة أو حاصرته ضائقة..؟ لا شك أنه سيقول ما قاله حمزة ﷺ لرسول الله ﷺ... قال حمزة للرسول ﷺ في أثناء اهتدائه للإسلام: "يا محمد، يا ابن أخي..! عندما أجوب الصحراء بالليل أُدْرِك أنّ الله أكبر من أن يوضع بين أربعة جُدران."

أجل، هكذا كان يقول كل من رأى عدم نفع اللات والعُزّى وهُبَل، لأن ضمائرهم كانت تهتف بهذه الحقيقة الموجودة في أعماقهم... وكانت هذه الضمائر تقول الحق. لذا، فكم من أناس جاءوا إلى الرسول ﷺ وهم في هذه الحالة النفسية والروحية؛ وبعد قيامهم بطرح أسئلتهم البدوية وتلقيهم أنسب الأجوبة وأكثرها ملاءمة لحالتهم ولعالمهم الروحي، يعلنون عن اهتدائهم للحق ويصبحون نجومًا متلألئة في سماء الهداية.[٢]

يروي الإمام أحمد بن حنبل عن أبي تميمة الهُجيْمي ﷺ عن رجل من قومه أنه أتى رسول الله ﷺ أو قال: شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله؟ أو قال: أنت محمد؟ فقال: «نعم»، قال: فإلامَ تدعو؟ قال: «أدعو إلى الله ﷻ وحده مَنْ إذا كان لك ضُرّ فدعوتَه كشفه عنك، ومن إذا أصابك عام[٣] فدعوته أَنْبَتَ لك. ومن إذا كنت في أرض قفر فأضللت فدعوته رَدَّ عليك» قال: فأسلم الرجل.[٤]

---

[١] الإصابة لابن حجر، ٣٣٧/١.

[٢] انظر: كشف الخفاء للعجلوني، ١٣٢/١.

[٣] عام: أي جدب ومجاعة وقحط. (المترجم)

[٤] المسند للإمام أحمد، ٦٥/٤، ٦٤/٥؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٧٢/٨.

ما أروع هذا الكلام الموجه للبدوي! فكل جملة فيه تخاطب موضوعًا حيويًّا بالنسبة إليه: الجدب، البلايا، المصائب، المصاعب في حياة الصحراء...

فهو يحدثه عن هذه البلايا والضنك والمصاعب التي يعرفها البدوي عن قرب، ثم يحدثه عن القوة اللانهائية التي لا ملجأ ولا منجى منها إلا إليها. إنه يخاطب ضميره الذي يرتفع فيه صوت هذه المعاني. ولكن البدوي لم يكن قد أدرك بعدُ معنى هذا الصوت. فكأن رسول الله ﷺ قام بتفسير وتعليم معاني هذا الصوت الداخلي عنده بحديثه هذا. كان تأثير حديث الرسول ﷺ قويًّا في نفس البدوي الذي لم يجد بدًّا من إعلان إسلامه.

إن الحديث مع بساطته وخلوه من تكلف البلاغيين إلا أنه كان مطابقًا لحال البدوي وملائمًا لمستواه ومالكًا عليه جوانب نفسه؛ فلم يجد البدوي بدًّا من الاستسلام.

هل غيرُ رسول الله ﷺ استطاع أن يحول أناسًا قاسية قلوبهم إلى ملائكة رحيمة على مدار التاريخ كله؟ إنه استطاع باستخدام الطاقات الموهوبة له من قبل الله تعالى استخدامًا حكيمًا أن يحدث انقلابا عظيما وثورة عظمى لا يزال المؤرخون وعلماء الاجتماع يرون فيها لغزًا مستعصيًا على التفسير. فالجواهر التي أودعها النبي ﷺ أودية الحياة الاجتماعية صنعت أمواجا متلاحقة وصلت حتى ساحل عصرنا الحالي، وسيستمر هذا إلى يوم القيامة بلا شك. فاليوم نرى أن هناك إقبالا على الإسلام في جميع أنحاء العالم؛ وليس هذا إلا نتيجة للأمواج التي أحدثها النبي ﷺ في الحياة الاجتماعية والتي وصلت إلى ساحل عصرنا، وإلا فإلى من يُعْزَى إحداث هذه الجاذبية المقدسة وهذا التأثير الذي دام عصورًا عديدة إن لم يُعْزَ إلى النبي محمد ﷺ؟ وهل هناك إنسان آخر يمكن أن يكون صاحب هذا التأثير وهذه الجاذبية القوية؟ كلاَّ! أبدًا، إنه هو الفرد الفريد في الكون وفي الزمان... نعم، كل شيء كان لوجهه الكريم.

٤) خطابه للأنصار في حُنين

مثلما كان سيد الأنبياء ﷺ يحل أعضل المسائل بكل سهولة ويسر، ويفك عقد أعقد المشاكل بأسرع وقت ودون أي تأخير؛ كان كذلك يحتفظ بهدوئه ورباطة جأشه أمام المشكلات والحوادث الفجائية، فيتعرض لتلك المشكلة ويجد لها الحل الملائم في أقصر وقت. فإن دققتَ كل حركة من حركاته وكل خطوة من خطواته، وكل جملة بل كل كلمة من كلماته وجدتَ أنها جميعًا حُسبت بحساب دقيق ووُزنت بميزان حساس جدا، وأنها كانت في موضعها المناسب وفي وقتها الملائم تمامًا. فلو كان هناك أي خطإ في التوقيت، أو لو أهملت أي جملة من كلامه لما كان في الإمكان تحقيق كل هذا النجاح وهذا التوفيق. علمًا بأن

رسول الله ﷺ لم يطصنع حركاته هذه ولم يكن له الوقت الكافي للتفكير فيها طويلا. إذن، فكيف يفسر مثل هذه الحوادث إن لم يكن صاحب فطنة خارقة..؟ أجل، كان نبيا، وكان منطقه منطق الأنبياء... يفكر كنبي، ويتصرف كنبي فلا يعرف الفشلُ إليه سبيلاً. بل لا يعرف إلا النجاح في أعلى ذروته، فلا يمكن لأحد أن يصل إلى ما وصل إليه أبدا. وهناك الكثير من الحوادث التي تبرهن على هذا ولقد اخترنا منها حادثة واحدة نظرًا لأهميتها.

دارت معركة حُنين بعد فتح مكة، وقام الرسول ﷺ بتوزيع أكثر غنائمها على الأشخاص الذين أراد تأليف قلوبهم. وكان معظم هؤلاء من أشراف القوم ورؤساء القبائل ممن لهم كلمة مسموعة. وكان هذا أمرًا ضروريًا لتأليف قلوب هؤلاء بعد فتح مكة لكي تستمر الفتوحات ولا يتوقف زخمها، لأن قسمًا من هؤلاء أسلموا دون رغبة كافية. فإن لم تُطَيَّب قلوبهم وإن لم تتم إذابة الجليد فيها لكان من المحتمل أن يكون خطرهم أشد من خطرهم وهم في مرحلة الكفر فيُضروا بالإسلام ضررًا بالغاً ويكونوا خطراً عليه. ومن ثم فإن قيام الرسول ﷺ بخطوة تأليف قلوبهم كان نتيجة فطنته عليه الصلاة والسلام. كانت الغنائم المفروض تقسيمها آنذاك تبلغ ٦٠٠٠ أسير و٢٤٠٠٠ ناقة و ٤٠٠٠٠ من الماشية و ٤٠٠٠ أقة من الذهب والفضة.

وعند توزيع هذه الغنائم خص الرسول ﷺ أهل مكة بمعظمها وأعطى بعض الأشخاص عطايا كبيرة. وهؤلاء كانوا -كما قلنا- من الذين يريد الرسول ﷺ تأليف قلوبهم واستمالتها إلى الإسلام، وكان هذا شيئًا مفيدًا وضروريا؛ فمثلاً أعطى آل أبي سفيان ٣٠٠ ناقة و١٢٠ أقة من الفضة، وأعطى حَكيم بن حِزَام ٣٠٠ ناقة ونصير بن حارث ١٠٠ ناقة، وقَيْس بن عَدِيّ ١٠٠ ناقة وصفوان بن أمية ١٠٠ ناقة وحويطب بن عبد العُزَّى ١٠٠ ناقة والأقرع بن حابِس ١٠٠ ناقة وعيينة بن حصن ١٠٠ بعير ومالك بن عوف ١٠٠ ناقة. وعدا هؤلاء خص بعض الرجال المهمين بـ(٤٠-٥٠) ناقة.[1]

كانت الغنائم المقسمة عبارة عن نوق أو ذهب أو فضة... ولكن الغاية كانت منحصرة في الذود عن الدين وتأليف القلوب وتقريبها للإسلام، ذلك لأن فتح مكة كان قريب العهد وكانت بعض قلوب أهل مكة منكسرة. لقد كانت كرامة مكة ومكانتها في نظر أهلها كل شيء، لذا فقد قام رسول الله ﷺ باستغلال فرصة هذه الغنائم أفضل استغلال لجبر الخواطر ومداواة الجروح.

---

[1] كتاب المغازي للواقدي، ٣/٩٩٣-٩٩٦؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٤/٤١٣-٤١٤؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤/٣٥٩-٣٦٠.

غير أن هذا التقسيم أثار حفيظة بعض الأنصار ولاسيما الشباب منهم حتى قال بعضهم: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. لقد كان هذا الكلام بداية لفتنة... لم يكن من المهم أن قائليه كانوا قِلَّة. فلو لم توقف هذه الفتنة لاتسعت وانتشرت كانتشار النار في الهشيم. كما أن أي اعتراض على النبي ﷺ يحبط عمل صاحبه ويجرده من دينه وإيمانه ويجعله من الخاسرين خسرانًا أبديا، وهذه المصيبة لعمري أعظم من مصيبة الفتنة.

قام سعد بن عبادة على الفور بإخبار رسول الله ﷺ بالأمر. ومع أن قائلي هذا الكلام كانوا من الشباب، إذ لم يخطر شيء من ذلك على عقول المسنين، إلا أنه كان من الضروري إطفاء هذه الفتنة بسرعة وإلا اتسعت. أمر رسول الله ﷺ أن يجتمع الأنصار في مكان وحدهم دون غيرهم... ثم خطب فيهم الرسول ﷺ الخطبة التالية.

«يا معشر الأنصار! مقالةٌ بلغتني عنكم وَجِدَةٌ وجدتموها عليّ في أنفسكم.»

هذه البداية بداية مذهلة من الناحية النفسية للحاضرين؛ ذلك لأن أحدًا لم يكن يتوقع هذا الكلام، فمعظمهم لم يكن يعرف سبب الاجتماع، لذا كانت هذه الجملة بمثابة لطمة فجائية ثابت معها النفوس إلى رشدها. ولم يكن في وسع الصحابة حينئذ أن يعترضوا على رسول الله. كل ما هنالك أنه كان من الممكن حدوث غضاضة في بعض النفوس وكان بإمكان النبي ﷺ إزالتها.

أحدثت هذه الجملة الأولى لرسول الله ﷺ تأثيراً كبيراً في قلوب الذين شعروا من قبل بالغضاضة، إذ لَـمُّوا شتات نفوسهم واتجهت عيونهم إلى الرسول ﷺ، فلا ريب أن ما سيقوله بعد ذلك بالغ الأهمية. كان على رسول الله ﷺ أن يديم هذا الزخم حتى يصل إلى النتيجة المرجوة، فقال ﷺ: «ألم آتكم ضُلاّلاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله وأعداءً فألَّف الله بين قلوبكم؟»

فقال الأنصار: بلى يا رسول الله... اَلْمَنُّ لله ورسوله.

عند ذلك حوَّل رسول الله ﷺ دفة الحديث. فبعد أن ثارت المشاعر وهاجت العواطف بدأ رسول الله ﷺ يتكلم باسم الأنصار ويقول بما كان يمكن أن يقوله الأنصار في أسوإ الظروف، علماً بأن أيّ مسلم لو قال مثل هذا الكلام لنبيه لحبط عمله.

استمر رسول الله ﷺ في خطابه فقال:

«ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ وبماذا نجيبك؟ المنّ لله

ورسوله. قال: «واللهِ لو شئتم لقلتم فَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ جئتنا طريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك، وخائفًا فأمَّنّاك، ومخذولاً فنصرناك»

فقالوا: الْمَنُّ لله ولرسوله.

فقال رسول الله ﷺ:

«أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لُعَاعَة[1] من الدنيا تألَّفْتُ بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام. أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رِحالهم بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذى نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شِعْباً وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنتُ امرءً من الأنصار. اللّهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.»

فبكى القوم حتى اخضلّت لحاهم وقالوا: رضينا بالله ربًّا ورسوله قِسْماً. ثم انصرف وتفرقوا.[2]

هذه الخطبة القصيرة المركزة أطفأت فتنة كادت تقع، وكسبت قلوب الأنصار مرة أخرى، ولا أظن أنه يمكن إيضاح هذا الموقف إلا بالرجوع إلى صفة "الفطنة" مرة أخرى.

فلتقوموا الآن بتحليل هذا الخطاب جملة جملة وكلمة كلمة، وضعوا التوقيت في نظر الاعتبار، ثم قوموا بقياس المسافة التي قطعتها أرواح الصحابة ونفوسهم اعتبارًا من الجملة الأولى وانتهاء بالجملة الأخيرة. وضعوا أيديكم على ضمائركم وقولوا بالله أيستطيع أحد - غير رسول الله محمد ﷺ- القيام بإلقاء مثل هذا الخطاب الرائع بصورة ارتجالية ودون تفكير مسبق أو تحضير مسبق؟ إن صاحب كل ضمير حي يسمع الجواب نفسه في أعماق وجدانه بشرط أن يطالع الأمور ويحللها بصورة حيادية وموضوعية وألاّ يكون معاندًا أو صاحب حكم مسبق.

ولنحلل سويا هذا الخطاب بشكل موجز، ولندع التحليل التفصيلي له لعلماء النفس وعلماء الاجتماع في المستقبل، لكي يفسروا جانبا آخر من جوانب الفطنة النبوية على ضوء علمي النفس والاجتماع.

أولاً: كان هذا الخطاب موجهًا للأنصار فقط، ذلك لأنه لم يكن للمهاجرين ولا لأهل مكة أي دور أو ضلع في هذه الحادثة التي استوجبت هذا الخطاب. فلم يكن هذا الخطاب

---

[1] لعاعة: البقية اليسيرة من الشيء.

[2] مسلم، الزكاة ١٣٢-١٤١؛ البخاري، مناقب الأنصار ١-٢، المغازي ٥٦؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤/٤١١.

ليجذب انتباههم أو يعنيهم في شيء. لذا، فوجودهم بين المستمعين كان سيَحُول دون حصول التركيز المطلوب للاهتمام لدى الأنصار، علمًا أن هذا التركيز كان مهمًا آنذاك.

ثانياً: أن السماح للأنصار فقط بحضور ذلك الاجتماع أرضاهم نفسيًّا وجعلهم يشعرون بالفخر وبالمباهاة، فانفرادهم في اجتماع مع رسول الله ﷺ كان له تأثير نفسي إيجابي عليهم.

ثالثاً: كان من الممكن أن يكون في الخطاب ما يمس -ولو قليلاً- مشاعر أهل مكة أو مشاعر المهاجرين مثل تعبير: «أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير.»

رابعاً: في ختام الخطاب كان هناك مدح خاص للأنصار ودعاء لهم. وكان من الممكن أن يجد المهاجرون -وهم الذين تركوا أموالهم وديارهم في سبيل الله- غضاضة من عدم اشتراكهم مع الأنصار في مثل هذا المدح وهذا الدعاء.

خامساً: هذا الخطاب خطاب رائع من ناحية الفصاحة والبلاغة، أي خطاب رائع إن نظرنا إليه من زاوية الأدب والبلاغة فحسب.

سادساً: في بداية الخطاب كانت هناك هِزة لمشاعر المستعمين، ثم ترضية لنفوسهم وتسكين لها. وعندما تكلم باسمهم جعلهم في موقف المستمع والمنصت فقط وهذا شيء رائع.

سابعاً: إن أسلوب الخطاب الذي كان ينضح بالإخلاص الكامل والصدق الخالص والتجرد السامي، والخالي من اللعب بالكلمات أو التزويق المصطنع لم يبق للمستمعين قول أي شيء آخر. وهذا شيء مهم جدًّا من ناحية الوصول إلى النتيجة المطلوبة.

ثامناً: إن إلقاء الخطاب بشكل ارتجالي ودون تفكير مسبق أو تهيئة مسبقة زاد من التأثير الإيجابي له.

هذه الأمور وأمور أخرى أيضًا قد تخطر على البال ترينا أن رسول الله ﷺ لم يكن يحل المشاكل والمصاعب تبعا لهواه الشخصي، بل كان الوحي والإلهام والفطنة المهداة له من رب العالمين.

ب- نبينا ﷺ وجوامع الكلم

البُعْد الآخر لفطنة رسولنا ﷺ هو أنه أوتي جوامع الكلم.

أجل، لقد كان سيد البلغاء. وكيف لا وقد اختاره الله ترجمانًا لكلامه ولكلماته. لقد أبدع الكثيرون حتى الآن الكثير من أروع الكلام وأبلغه وأجمله، كل حسب درجته وموهبته، ولكن هناك عمق آخر ولذة أخرى وحلاوة أخرى في كلام سيد البلغاء ﷺ.

ولقد كان بيانه عذبا، وتعابيره ساحرة تدير الرؤوس وتخلب الألباب وتخفق لها القلوب حتى لتكاد تقف، وتستسلم له العقول، وتحيا به المشاعر الإنسانية وتنمو، وتعلو الأرواح به وتسمو وترفرف. لقد وهبه الله تعالى قدرة بيان جعلت مستمعيه المحظوظين يستمعون إلى بيانه الجامع الآسر للقلوب وكأن على رؤوسهم الطير، تغمرهم مهابته فينصتون له وقد انعقدت ألسنتهم وسحرت نفوسهم. عندما يتكلم ويسرد جواهر الحكم لا يملك أرباب العقول إلا الإنصات إليه. وعندما يصف الخير والجمال والصدق يأسر بحديثه العذب الخلاب الأرواح. وعندما يهاجم الشر والفساد بكلماته النارية يُغرِق الكفر والمنكر في مستنقعه ذاته. أما عندما يزأر ببراهين دعوته ورسالته يفرِّق خفافيش الظلام ويخرس أصحابَ الأرواح المظلمة.

كان ﷺ يدرك أهمية ما خصه الله من ألطاف ونعم إدراكاً واعياً. فكان لا يرى بأسا من إعلانها تحديثًا بنعم الله عليه لذا، نراه يقول: «أنا محمد النبي الأمي.»

«أُوتيتُ فواتح الكَلِم وجوامعه وخواتمه.»[1]

«إنما بُعثت فاتحًا وخاتمًا وأُعطيتُ جوامع الكلم وفواتحه.»[2]

كان ببيانه الذي يشع نوراً وضياء يعلن أنه سيد خطباء الأولين والآخرين.

كان سيد الأنبياء ﷺ بأنفاسه التي تحيي النفوس بلبلاً يشدو في روضة الحق... كلما شدا عبَّر عما في قلبه فتنساب الألحان الإلهية الساحرة من فمه... كلماته الرقيقة الشبيهة بأكمام الورود النضرة وزهوره المتفتحة على أنداء الصباح لم تكن تشبه زهور الآخرين. كانت كل كلمة له على مائدة أقواله نضرة يانعة وجديدة وطرية طراوة قطرة الندى. ولم تتيسر نعمة تذوق بيانه الساحر الأخاذ وفهم معانيه إلا لمن سعد بحضور مجلسه من المحظوظين الأوائل.

لقد حد سيد الفصحاء من جوهر الكلام سيفًا صقيلاً قام -بمجرد رسمه حلزوناً فوق الرؤوس- بمطاردة كل خفافيش البيان الكاذب والمزخرف، وفرت كل الأكاذيب إلى أقصى بلاد العنقاء.

وأسال من أودية البيان ينابيع وعيوناً حَوَّلت صحارى الجاهلية إلى رياض زاهرة، وشلالات هادرة بحيث وجد كل أصحاب القلوب المنفتحة على الإيمان أنفسهم في بحار هذه العيون المتدفقة نحو محيطات الأبدية والأزلية.

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٢/٢٥٠، ٤١٢؛ كنز العمال للهندي، ١١/٤١٢.

[2] البخاري، الجهاد ١٢٢؛ مسلم، المساجد ٦؛ وانظر: كنز العمال للهندي، ١١/٤٢٥.

كانت كلماته نابعة من وراء الغيب... ولولا كلماته المضيئة بنور الوحي لبقيت العوالم في فوضى واضطراب وعماء. لقد أزال بسيف بيانه السِتار عن وجه الطبيعة وزيَّن كتاب الشريعة بنقوش أقواله. الكلام عنده كان بمثابة متاع الفارس، والسهم ذي الريش الذهبي في جعبته. ما زار مكانًا إلا وملأ بالجواهر حجر من يفهم الكلام حق الفهم، وشد قوسه وهاجم بفرسه مواضع الظلام. وعندما شاء الله أن يرسي -وللمرة الأخيرة- قواعد دولة بكلامه جاء بسيد البلغاء ليقوم بهذه الوظيفة وأعطاه ختمه وسكته.

كان كل فرسان الكلام منذ فجر التاريخ ممن تطلعوا إلى ماوراء أستار هذا العالم بمثابة أفراد كورس غنائي في تمجيد الله تعالى... أما هو ﷺ فكان بمثابة قائد هذا الأوركسترا... وبمثابة رئيس الذاكرين في الحلقة القدسية بالأولياء والأصفياء... جاء فدوّى صوته في أرجاء الدنيا وترددت أصداؤه في جنبات العالم فهزته هزًّا عنيفًا.

كانت كل ثمرة من الثمار المتزينة بكلماته والتي قدمها للإنسانية من المائدة السماوية مجنية ومهداة له من حديقة حبيبه وخالقه. ومن أكثر جوانب هذه الحديقة خصوصية وسرية وقدسية والتي لم يطلع عليها أحد من قبل، بل قُدِمتْ له من مولاه كهدية خاصة، إذ لم ير هذه الثمار ولم يقربها ولم يلمسها أحد من قبل.

وعندما كان يجيش قلب هذا العندليب صاحب المكانة السامية ويغمره الوجد والهيام يبدأ بالشدو بأرقّ الألحان وبالغناء بأرق النغمات بأزهار تلك الحديقة الخاصة المقدسة... هنا كانت الألسن الأخرى تصمت... والأرواح تنصت... والقلوب تهيم... والنفوس تذهل أمام قطرات معاني كلماته البليغة الساحرة.

أجل، إن كلماته تشبه البحار التي تنثر اللآلئ على السواحل بأمواجها أو بالشلالات المنهمرة من الآعالي أو بالعيون الفوارة من الأعماق الآخذة بمجامع القلوب... فلا نستطيع قياس غنى أعماق هذه البحار ولا محتوياتها ولا ترجمة هذه الشلالات ولا بلوغ الذُّرَى التي تبلغها هذه العيون الفوارة أو الإحاطة بها.

لقد صرف المئات من الأدباء والمحققين أعمارهم في تدقيق جواهر كلامه والطواف حولها... وتوجه آلاف وآلاف من المفكرين إلى نبع الحياة هذا، وأفنى الكثير من الدهاة حياتهم في الغوص إلى أعماق معاني كلامه... ولكن معاني كلماته بقيت وراء أي نقطة تم الوصول إليها.

أجل، فكما لا تستطيع القطرة الواحدة تمثيل البحر بأكمله، وكما لا تستطيع الذرة الواحدة التعبير الكامل عن خصائص الشمس، لا يستطيع العلماء ولا الأولياء ولا الأصفياء

الذين يمثلون جزءً من الحقيقة المحمدية مهما كانوا كاملي الصفات بالنسبة للناس الآخرين أن يمثلوه التمثيل الكامل، ولا أن يعكسوا صورته بأكملها.

إن رسول الله ﷺ رغم أميته وعدم دراسته في المدارس مرشد كامل، بسبب متانة بنيته المادية والمعنوية وصفاء أحاسيسه ورصانة تفكيره وقلبه الواسع المنفتح والمتوجه نحو المعالي؛ فاستطاع بذلك تسلم الرسالة الإلهية كما هي، وحافظ عليها كما هي، وأبلغها للناس كما هي... فقد كانت فطرته وخلقته ميسَّرة لتنفيذ هذه المهمة، إذ تمت المحافظة على صفاء روحه وصانه الله من أي تأثير سلبي للتربية أو المعرفة البشرية ثم زينه بالوحي وأرسله للناس... هذا هو معنى النبي الأمي والمرشد الكامل الذي لم ير مدرسة ولم يتعلم من الناس.

لقد كانت طبيعته وسجيته وأحاسيسه الظاهرة والباطنة وعقله ومنطقه مهيئاً وصالحاً للقيام بوظيفة النبوة ومهامّها، حيث قام بنقل الوحي حتى أصغر تفاصيله ودقائقه دون تعريضه لأي تبديل أو تغيير، بل ينقل الوحي الإلهي للناس كما ينقل المنشورُ الضوءَ المارّ من خلاله لكي يكون ملائمًا لعقول البشر.

هذه الرسالة الإلهية النابعة من أطهر مكان والمتدفقة إلى أطهر قلب بُلّغت للناس بألطف لسان وأفصحه وأنزهه حسب قدرة العقل البشري واستيعابه. وكما أنها أمارة من أمارات النبوة وإشارة إليها فإنها في الوقت نفسه دليل من أدلتها، وحجة من الحجج الدامغة وزادُه أثناء قطعه لتلك المفاوز الموحشة والطرق الوعرة وبُراقُه[1] فيها.

وعندما كان يقدم للناس رسائل ربه كان يصرح في الوقت نفسه بنبوته ويعلن رسالته؛ وكذلك عندما كان يستعمل جواهر خزائن الوحي وأسراره الإلهية الساحرة في حل معضلات ومشاكل محدِّثيه وأصحابه، كان يستعمل الوحي الإلهي نفسه كسيف ماسي في إلزام خصومه وإفحامهم وإسكاتهم.

كان القرآن بالنسبة إليه كل شيء... كالهواء والماء... سلاحاً ودرعاً... حصناً وقلعة... وراية ترفرف فوق هذه القلعة... كان يتنفس بالقرآن، ويعلو به كالسحاب إلى الأعالي... يسرع به لنجدة الملهوف المحتاج مثلما تسرع قطرات الرحمة لري عطش المخلوقات وظمئها... ينافح به الظلام ويلوذ به من شرور الأشرار... يصول به ويجول، ويكون نوراً ينتشر في الآفاق.

علماً بأن سيد البلغاء، وسلطان الفصحاء وممثل الحكمة إضافة إلى كنز العلم الإلهي الذي لا ينفد كان كثيرًا ما يوجه إليه العديد من الأسئلة، وكان هناك العديد من المسائل

---

[1] البراق: المركب الذي ركبه الرسول ﷺ في أثناء إسرائه ومعراجه. (المترجم)

والمشاكل والمعضلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تنتظر الحل والأجوبة الشافية من لدن رسول الله ﷺ. فكان ﷺ يقوم بإيفاء حق وظيفته النبوية هذه لأن القلب المحمدي الصافي كان المرآة المجلوة لعكس العلم اللانهائي، ومركزه ومنزله ومهبطه وحديقته وبستانه. فكان يقوم بشرح القرآن الكريم فيقيد المطلق، أو يطلق المقيد، أو يخصص العام، أو يعمم الخاص، وذلك باستعمال أسلوبه الخاص وبيانه الفصيح علاوة إلى تبليغ رسالة القرآن. فهذه هي مهمة الرسول المبعوث إلى الناس كافة. وما كان بإمكان أي مصلح ومجدد ومرشد للإنسانية جمعاء ومبلّغ للناس أجمعين إلا أن يكون هكذا.

في العهد الذي شُرِّف فيه النبي ﷺ بشرف النبوة كانت الفصاحة والبلاغة أروج شيء في سوق الجاهلية. فقد كانت هذه الأمة -التي حكمت فيما بعد العالم بذكائها ودرايتها- أمة أديبة. لذا، فقد سحرها ما سمعته من الرسول ﷺ من تلاوة للقرآن الكريم أو من حديث أو خطاب، واستمعت إليه مذهولة مفتونة به ومعجبة بما تسمعه منه. أما هو ﷺ فقد فرض نفسه عليهم في كل فرصة، ولم يجد أعداؤه ما يَصِمونه به أو ما ينتقدونه به. ولو فعلوا هذا أيْ لو قاموا بتقديم أقل اعتراض أو نقد لما تأخر خصومه الموجودون حالياً من تناول ذلك الأمر وتضخيمه وتكبيره وإيصال ذلك إلى كل شخص وإلى جميع أنحاء العالم من أجل إزالة محبته من النفوس. وأمثال هؤلاء لا يتورعون عن تلفيق أحقر الاتهامات وأرذل الافتراءات حوله. ولكنهم مع تفتيشهم هذا لا يجدون شيئًا ضده. وأمام بيان رسول الله ﷺ وفصاحته وقوة تعبيره لم يستطيعوا أن يقولوا له حتى ما قاله فرعون لسيدنا موسى عليه السلام.[1]

إن صوت من قال: «أدَّبني ربي فأحسن تأديبي» يهدر من فوق ذروة سامقة بشكل لا يملك معه الأصدقاء والخصوم سوى الشعور بالاحترام والإعجاب والتوقير له ولبيانه المملوء فصاحة وبلاغة.

كان من بين أصحابه الكرام العديدُ من أصحاب البلاغة أمثال لبيد، والخنساء، وكعب بن مالك وحَسّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، والكثير من الخطباء أمثال أبي بكر وعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاص وابن عباس والعديد من الفقهاء وأصحاب الحكم... كل هؤلاء قبلوا به مرشدًا وأستاذًا وهادياً لهم في كل مسألة وفي كل موضوع.

أما الذين جاءوا من بعده من كبار حفاظ الحديث وشراحه ومن عباقرة مفسري القرآن ومدققيه، ومن أعلام أئمة الفقه والمجتهدين والمجددين الذين سبقوا عصورهم، وآلاف

---

[1] يشير الى خطاب فرعون لموسى عليه السلام : ﴿أَمْ أَنَا خَيرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف:٥٢).

الأولياء العظام والأصفياء والأبرار والمقربين من الذين كان لهم قصب السبق في عالم الأرواح وعلماء الكلام والمنطق، والعديد من العلماء الآخرين في كل فن وعلم، فقد رأوا في أحاديثه وكلامه مرجعاً أميناً وفياضاً صافياً دفاقاً لا يجف ولا ينتهي ولا ينفد، فراجعوه ولجأوا إليه ليشبعوا ظمأهم منه ويطفئوا جوعهم من هذه المائدة الربانية.

أجل، لقد كانت سُنَّته من الأمس حتى اليوم منبع المجتهدين الذي لا يضل وباب العلم الفسيح، والجناح القوي للسابحين في سماء المعرفة والنبع الصافي الرقراق لإلهامات الأولياء والأصفياء. فخلاصة علوم الشريعة، وكل طرق الصوفية وكل العلوم الكونية وأسرار القلب والوجدان نابعة من النبع الصافي لجواهر كلامه النوراني.

لقد بَيَّن بياناً واضحاً كثيراً من المواضيع اعتباراً من بدء الخليقة وخلق الإنسان وانتهاءً إلى يوم القيامة، يوم يساق المرء إما إلى الجنة أو إلى الجحيم... وتحدث عن القلوب المتفتحة للمعارف الربانية، وعن مشاهدتهم جمال الله في الآخرة... عن الإيمان والعقائد... عن أدق تفاصيل العبادات... تحدث في مواضيع عديدة، واستعمل في كل موضوع اللسان المناسب والبيان المناسب إلى درجة أننا إذا استثنينا القرآن فلن نجد بيانًا مثل بيانه ولا فصاحة مثل فصاحته.

تكلم عن الله: ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى بما يناسب هذه المواضيع الحساسة من دقة وتوازن، وعن القيامة والحشر والنشر وعن يوم الحساب وعن الجنة والجحيم فأعطى الأمل الممزوج بالخشية والرهبة المنقلبة إلى سعادة، وعن الملائكة والروح والجن والشياطين وعن أسرار الغيب الأخرى فكأنك تنظر إليها من وراء زجاج بلوري مضبب؛ وتحدث عن الإيمان وعن العمل، وعن الإخلاص في العمل وعن قابلية البذرة للنمو وقابلية التربة للإنبات وعن الحياة التي يهديها المطر وعن جمال الربيع الزاهر والزاخر بالألوان والعطور؛ فكأنك ترى أمامك لوحة مرسومة بريشة فنان عظيم... لوحة تعلم عندما تتأملها كيف تسمو بالإيمان فطرة الإنسان النظيف وكيف تتوسع وتنمو هذه الفطرة بالإسلام، وكيف تنقلب بالإخلاص إلى شجرة طوبى تظلل ما حولها.

تَعْلَم من بيانه أن الصلاة صديق مرافق للإنسان في جلوسه وقيامه، تطرد عنه وحدته وتنير دربه... وأن الوضوء شيء يجري في عروق الإنسان مجرى الروح والدم... نهر أمام بيته يغسله من كل درن. أما الأذان والإقامة فشجرة باسقة... وهدير رعد قاصف يفزع الشياطين ويلقي في قلوبهم الرعب... أما للمؤمنين فروح وريحان يلف أرواح الذاهبين إلى الصلاة.

الزكاة والصدقة كقنطرة توصل بين الجماعات المتشتتة والمتقطعة الروابط، وكمادة تلتحم بها القطع المتكسرة فتصبح قطعة واحدة.

الصيام جنة يحفظ صاحبه فيكون باباً سريًّا في أسوار الجنة يساعده في الولوج إلى الجنة. ويكون لصاحبه ساقيًا يقدم له شراب الكوثر.

الحج مثل خَيّاط يرتق الرتوق... ومثل غاسل يزيل البقع والأوساخ... ومثل مجلس كبير للشورى يجمع الناس على صعيد واحد.

الجهاد مثل فدائي منتصب القامة سد الطرق المؤدية إلى جهنم ومثل موظف استقبال يفتح لك أبواب الجنة ويقول لك مرحِّبًا: تفضل بالدخول. ومثل أب رحيم يقيِّد أيدي المعاندين ويسوقهم إلى أبواب الفردوس. أما الذِكْر والدعاء عنده فمثل هاتف لاسلكي يقيم رابطة وعلاقة وحوارًا بين المخلوق وخالقه. أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمثل موظف ينظم السير... مثل بواب أو حارس واقف على مفترق الطرق وعلى الأبواب ينظم المرور في الطرق أو الدخول من الأبواب.

أما صلة الرحم فمثل أم فتحت حضنها تنتظر، وتتحاسب مع الإنسانية وتتحدث معها وتقف منها موقف المدعي العام، وتبذل لها الوعود، وتمسك بتلابيبها لتحذرها من الانحراف... أي تتشكل هنا لوحة من الموزائيك الحي الرائع تسحر القلوب.

أجل، إن قيامه بشرح كل هذه الأمور وتصويرها تصويرًا فنيًّا موضوع يحتاج إيضاحه إلى كتابة مجلدات في كيفية قيامه بذلك، والمواد الأولية التي استعملها في تصويره وفي نقشه وفي زينته، وطراز حركته وأدائه وقوة تصويره وقدرته البلاغية والموسيقية، كل ذلك دون تصنع ولا تكلف.

إذن، فلندع الشرح الدقيق والعميق لمثل هذه المواضيع المختلفة إلى أربابها والمتخصصين فيها، ولنتناول هنا بعض أحاديثه المباركة التي يعلمها الجميع لكي نشير إلى معانيها العميقة وقوة بيانها ورصانتها.

١) تحليل باقة من الأحاديث

إن أبرز صفة في كلام نبينا ﷺ هو أنه أوجز كلام قيل في موضوعه، وهناك آلاف الأمثلة الممكن إبرازها في هذا المجال، ولا يسعنا هنا إلا إيراد بعض هذه الأمثلة التي يمكن إيرادها في كل عصر كأنموذج على "جوامع الكلم". ولا ننسى هنا أن نذكر ونكرر بأن كل أحاديث الرسول ﷺ بهذه الصفة.

أ. بضع كلمات هي ذروة التوحيد

يورد الترمذي عن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ:

«يا غلام! إني أعلِّمك كلمات: اِحْفظ الله يَحْفظْك. اِحْفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. ولو اجتمعوا على أن يَضرّوك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رُفِعَت الأقلام وجَفَّت الصُّحُف.»[١]

إنه بهذه الجمل الموجزة الفياضة بالمعاني استطاع أن يشرح أعقد مواضيع القدر وتسليم الأمور لله في أسلوب سهل وبسيط. كما أوضح بكلماته القليلة معنى العبادة في مجال الدعوة والحركة.

بـ. الإنسان شخص مسافر

يروى عن ابن عمر ﷺ الحديث التالي:

«كُنْ في الدنيا كأنكَ غريب أو عابرُ سبيل وَعُدّ نفسَك في أهل القبور.»[٢]

إن هذه الجمل الثلاث أوجز كلام في موضوع الزهد والتقوى وفي حفظ التوازن بين الدنيا والآخرة وأكثرها ثراء بالمعنى. ولوكانت هناك جملة أوجز من هذه فلا بد أن يكون هو صاحبها أيضًا.

إن الإنسان غريب في هذه الدنيا، فهو -حسب تعبير جلال الدين الرومي- ناي مقطوع من غابة القصب، ولأنه أبعد عن صاحبه الحقيقي، فإنه في أنين دائم طوال الحياة. الإنسان شخص مسافر... بدأ بسفره من عالم الأرواح إلى رحم الأم ثم إلى الدنيا فمرحلة الطفولة ثم الشباب فالشيخوخة فالقبر ومنه إما إلى الجنة أو إلى النار... ولكن يا ترى أيعي الإنسان أنه مسافر..؟

لو كان واعيًا ومتذكرًا على الدوام أنه مسافر لما تعثر في طريق الحياة ولما تهالك على لذائذ الدنيا التي لا تساوي شروى نقير، بل لسار في طريقه بقدم ثابتة مطمئنة. نعم، إن لم يَعُدّ الإنسان نفسه مَن أصحاب القبور، أي بتعبير القدماء "موتوا قبل أن تموتوا"،[٣] ولم يمزج حياته بهذه الحقيقة السامية لا يستطيع أن يتخلص من دسائس الشيطان وحيله أبدًا.

---

[١] الترمذي، القيامة ٥٩.

[٢] البخاري، الرقاق ٣؛ الترمذي، الزهد ٢٥؛ ابن ماجه، الزهد ٣.

[٣] انظر: كشف الخفاء للعجلوني، ٢/٢٩١.

أجل، يجب على الإنسان أن يموت من ناحية النفس الأمّارة بالسوء ومن ناحية شهوات الجسد حتى يحيا من الجانب الروحي.

أليس الذين يرون الحياة عبارة عن النفس وشهواتها فقط مساكين انسحقوا تحت أثقال الجسد؟

ج. عاقبة الصدق والكذب

يروي البخاري ومسلم وأبو داود عن عبد الله بن مسعود الحديث التالي:

«عليكم بالصدق، فإنّ الصدق يَهدي إلى البر، وإنّ البر يهدي إلى الجنة. وما يزال الرجل يَصْدُق ويَتَحرَّى الصدق حتى يُكتَب عند الله صِدِّيقًا. وإياكم والكذبَ، فإن الكذب يَهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار. وما يزال الرجل يَكذِب ويَتَحرَّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذّابًا.»[1]

الصدق شعار الأنبياء، والكذب شعار الكفار والمنافقين. الصدق أساس مهم يحتضن الحاضر والمستقبل، والكذب لطخة سوداء على جبين الزمن. ليس هناك فرد واحد عاش سعيدًا ووصل إلى السعادة الأبدية في ظل الكذب أبدًا. وليس هناك فرد واحد مشى في طريق الصدق المنير وباتجاه السعادة الأبدية فأصابه نكد الحظ وشقي في الدنيا وفي الآخرة.

الكذب من أبرز أسس الكفر ومن أوضح علامات النفاق، وهو ادعاء مخالف لعلم الله تعالى. لقد خرّب الكذب كل شيء في أيامنا الحالية... خرب الناس وجعل الدنيا دارًا ومسكنًا للكذابين. إنه علة اجتماعية خطيرة ومفزعة إلى درجة أنك لو أعطيته حق الحياة وفتحت له أبواب الوطن والبيت والسوق والبرلمان والمعسكر، وأعطيته حرية التجول فيها لخابت الأمة وما أفلحت أبدًا.

وعلى النقيض من هذا فإن الصدق أهم أسس الإسلام وأبرز صفة في الْخُلُق المحمدي وحجره الأساس والصفة المميزة للأنبياء وللأولياء والمحور الأساس للرقي المادي والمعنوي. الصدق صفة الملائكة والكذب صفة الشياطين. الأول صفة العبيد المكرمين عند الله، والآخر صفة الأرواح الخبيثة. الأول صفة فخر الكائنات عليه أكمل الصلوات وأتم التسليمات والآخر صفة الدجالين.

وكلمة "البرّ" تعني جماع الخير، وهي كلمة شاملة تعني صدق التفكير وصدق الحديث

---

[1] البخاري، الأدب ٦٩؛ مسلم، البر، ١٠٥؛ أبو داود، الأدب ٨٠.

وصدق النية وصدق السلوك وصدق العيش... أي يمكن جمع الكثير من صور الخير تحت عنوانه وإرجاعها إليه.

أما كلمة "الفجور" فعلى عكس الكلمة الأولى تعني جماع الشر، ولأنها ضد كل صفات الخير والصلاح فهذا يعني أنها تعني كل الأفكار المنحرفة وكل الكلام المنحرف والسلوك المنحرف، فكأنها بذرة جهنمية.

وفي الحديث مقابلة بين "الصِّدِّيق" و"الكذاب". ففي الأول نرى الصدق وقد أصبح طبيعة وفطرة لديه فأصبح مثالاً للصدق. أما الثاني فقد عجن الكذب في طبيعته فأصبح من الكذابين المحترفين.

وقد استعملت صيغة المبالغة عند وصف كلتا الصفتين، فالذي نذر نفسه للصدق يكون رمزًا لصدق التفكير وصدق الحديث وصدق السلوك في الدنيا وفي الآخرة ورمزًا للقرب من الله، إن لم يكن اليوم فغدا. أما الذي ترك نفسه للكذب، فسيكون رمزًا لكذب التفكير وكذب الحديث وكذب السلوك في الدنيا وفي الآخرة، إن لم يكن الآن فغدًا.

وهذان الطريقان أحدهما طويل والآخر قصير، أحدهما نير والآخر مضبب، أحدهما خطير والآخر أمين... هذان الطريقان لابد أن ينتهي أحدهما إلى الجنة والآخر إلى الجحيم. في كل محطة من محطات الطريق الأول هناك مكافآت وجوائز لصاحبه ثم ينتهي الطريق إلى الجنة. وفي الطريق الثاني الخيبة والسوء ثم ينتهي الطريق إلى جهنم وإلى الخسران الأبدي.

كنا قد ذكرنا هذا الحديث في موضوع صدق رسولنا ﷺ. غير أننا نريد أن نقف هنا على نتائج الصدق في الدنيا وفي الآخرة، وعلى أضرار الكذب على مستوى الفرد وعلى مستوى الحياة الاجتماعية، وكيف أن الحديث النبوي استطاع أن يغطي كل هذه المعاني في جمل قصيرة ومركزة.

أجل، إن المدقق لهذا الحديث فقط يدرك ويتأكد تمامًا بأن جَمْع كل هذه المعاني الطويلة والمفصلة في مثل هذه الجمل القليلة والقصيرة وإظهار هذه المعاني بهذه الطريقة الساحرة للنفوس ليس إلا ميزة خاصة برسول الله ﷺ. فما من أحد غيره يستطيع ذلك.

د. المرء مع من أحب

يروي البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود الحديث التالي: «المرء مع من أحب.»[1]

---

[1] البخاري، الأدب ٩٦؛ مسلم، البر ١٦٥.

إن شرح وإيضاح معاني هذا الحديث يتطلب مجلدًا كاملاً على الأقل. فالمرء الذي تعثر وظل في منتصف الطريق... الذي لم يستطع السير تمامًا وراء مرشده... الذي لم يستطع إنجاز ما كان يحب أن ينجزه... هذا الحديث هو بمثابة قدح كوثر لمثل هؤلاء المنكسرة قلوبهم. هذا الحديث يوضح أن الإنسان -سواء أكان في جانب الخير أم في جانب الشر- سيكون مع من أحب، فالإنسان هنا أو هناك يكون دائمًا مع من يحب. فمن كان يريد أن يكون مع الأنبياء والصديقين والشهداء عليه أولاً أن يحبهم وبتعبير آخر فإن الذين يكونون يوم القيامة مع الأنبياء والصديقين والشهداء هم أولئك الأشخاص الذين كانوا يحبونهم في الدنيا. كما يسري معنى الحديث فيشمل الذين يمثلون الشر والفساد أيضًا؛ ومن ثم فإن الحديث المكون من جملة واحدة فقط يشمل كل هذه المعاني ومعاني أخرى كثيرة وبكل هذا الإيجاز الشديد. وليس هذا في وسع أحد إلا من كانت فطنته مفتوحة للإلهام الرباني والوحي الإلهي.

لقد كان نُعَيْمان يشرب الخمر أحيانا، وكان الرسول ﷺ يطبق عليه الحد الشرعي. نعم لقد كان ما يقترفه ذنبا، ولكن لـمّا تلفظ أحد الصحابة بكلمة توبيخ في حقه وسمع هذا رسول الله ﷺ قطّب حاجبيه وقال: «لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم فوالله ما علمتُ إنه يحب الله ورسوله»[١] أي موصول القلب بحبهما.

فلمّا كان حب الله ورسوله يثمر المعية، فلا يليق أن يساء إلى المحب وإن زل. لأن قلبه يخفق بحب الله ورسوله. وهذا الحب يكفي لكي يحظى بشرف المعية، بشرط أن يؤدي الفرائض ويتجنب الكبائر كحد أدنى. لأن المرء مع من أحب.

هـ. التقوى

يروي الإمام أحمد بن حنبل عن معاذ بن جبل ﷺ الحديث التالي:

«اِتّقِ اللهَ حيثما كنتَ وَأَتْبِع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها وخالِق الناس بخُلق حَسن.»[٢]

ليس هناك شيء آخر مثل الخلق الحسن يرفع الإنسان. فالخلق الحسن هو خُلق الله، والخلق الحسن هو التخلق بخلق الله تعالى.

فنحن أمام حديث يشرح التقوى وكيفية المحافظة عليها وهو موضوع يمكن أن يكتب في حقه المجلدات. ونظرًا لأن هدفنا هو إعطاء بعض الأمثلة، فإننا لن نشرح هنا هذه الحقائق السامية المتعلقة بالتقوى.

---

[١] البخاري، الحدود ٤-٥؛ أبو داود، الحدود ٣٥؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٢٩٨-٢٩٩.

[٢] الترمذي، البر ٥٥؛ المسند للإمام أحمد، ٥/١٥٣.

و. كما تكونوا يُوَلَّى عليكم

في حديث آخر يقول رسولنا ﷺ: «كما تكونوا يُوَلَّى عليكم.»[١] حسب نوعيتكم يكون نوع رؤسائكم، ومن أي نبع كنتم فرؤساؤكم محصول هذا النبع. هذا كلام يمكن أن تصنف فيه مجلدات وخاصة في موضوع الإدارة. وإذا سمحتم لي فسنتناول هذا الموضوع قليلاً بالشرح طبقا لحديث: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته.»[٢] فلكل واحد حدود لمسؤوليته... ويستمر هذا حتى نصل إلى رئيس الدولة الذي تشمل مسؤوليته كل البلد الذي هو على رأسه. غير أن حديث «كما تكونوا يُوَلَّى عليكم» يكسب هذا الموضوع بُعدا آخر من زاوية القانون الاجتماعي.

أولاً: يقول الحديث منذ البداية للمواطنين إنكم في غاية الأهمية، لأن الذين سيحكمونكم لا بد أن يطرقوا بابكم ويكونوا في حاجة إليكم مهما كان الطريق الذي سيسلكونه في هذا، أي أنتم الذين تقومون برسم الطريق أمامهم.

إن لعلم الاجتماع قوانينه التي لا تتغير ولا تتبدل، فكما توجد لعلوم الفيزياء والكيمياء وعلم الفلك قوانينها الفطرية (أو شريعتها الفطرية) ومبادؤها التي لا تتغير، كذلك توجد لعلم الاجتماع قوانينه ومبادئه التي لا تتغير إلى يوم القيامة. فإذا رأينا الناس يسمحون بتواجد الشر ونموه فما ذلك إلا لأنهم سمحوا لهذا الشر أن يستوطن قلوبهم وصدورهم، فكان من الطبيعي أن يداروا ويحكموا بوساطة الأشرار... لأن هذا ناموس إلهي لا يتغير.

أجل، لنتساءل: هل يعيش الشر في نفوس الناس وهل يجد فيها تربة صالحة للنمو والانتشار؟ وهل ينبت الفساد في هذه النفوس؟ إن كان الجواب "نعم" فإن الله تعالى سيأتي لهؤلاء بحكام من نفس طينتهم، ليقوموا بإدارة هؤلاء الناس وحكمهم.

ثانياً: يقول هذا الحديث أيضًا إن القوانين والأنظمة ما هي إلا مدونات في السطور، وليس لها تأثير كبير، فلو اجتمع الناس وتعاونوا ليكتبوا أفضل القوانين فليس هذا مهمًّا، بل المهم هو مدى تطبيق هذه القوانين؛ لأن أخلاق هؤلاء الناس هي المعيار الأول، لأنهم إن كانوا على خلق وحَلُّوا مسائلهم وما يعرض لهم من مشاكل بصيغة أخلاقية فإن الذين سيأتون لإدارتهم لن يكونوا أشخاصًا سيئين. ولأنقل لكم هنا حادثة واقعية تتعلق بهذا الموضوع:

كان "طاهر أفندي" أحد النواب في المجلس النيابي الأول. وكان عالماً فاضلاً. وبينما

---

[١] كنز العمال للهندي، ٨٩/٦.

[٢] البخاري، الجمعة ١١؛ مسلم، الإمارة ٢٠.

كان النواب الآخرون منهمكين في إلقاء الخطب الرنانة في الساحات، كان طاهر أفندي يفضل لزوم الصمت. غير أن محبيه وأنصاره ألحوا عليه كثيرًا لإلقاء خطبة في أحد الميادين وأقنعوه بذلك. ولكونه شخصًا لا يحب الثرثرة، بل يفضل الكلام الموجز المفيد فقد قال لهم في خطبته تلك:

"أيها الحاضرون! اعلموا أنكم منتخِبون وأننا منتخَبون ومجلسنا هو منتخَب إليه وإن ما قمتم به يدعى عملية الانتخاب. وكلمة الانتخاب مشتقة من كلمة "النخبة". والنخبة تعنى زبدة الشيء فلا تنسوا أن زبدة كل شيء ترجع إلى نوعية ذلك الشيء. ففوق الحليب تتكون زبدة الحليب، وفوق اللبن تتكون زبدة اللبن، وفوق مادة الشب تتكون زبدة الشب."

ويضاهي هذا الجواب الذي أجابه الحَجّاج بن يوسف الثقفي للشخص الذي حدثه عن عدالة عمر بن الخطاب ﷺ إذ قال الحجاج:

"لو كنتم أنتم مثل أصحاب عمر ﷺ لكنتُ أنا مثل عمر بن الخطاب."

ثالثاً: إن على كل إنسان أن يبحث عن التقصير في نفسه. فما دام كل إنسان يحامي عن نفسه ويدافع عنها فقط، ويبحث عن التقصير عند غيره، فلن يمكنه إحراز أي تقدم إيجابي. فلو لم يغير الناس أنفسهم فإن الله لا يغير ما بهم.[1] فإذا كان هناك فساد في الداخل فلابد أن يسري ذلك الفساد إلى كل مكان حتى يصل إلى القمة.

ويمكن أن نقول نفس الشيء حول صلاح الناس الداخلي واستقامتهم. إذن، يمكن القول بأن وضع ولاة الأمور مرتبط بوضع المواطنين ارتباط النتيجة بالسبب. ومن يدري ماذا يحتوي هذا القول الموجز من جواهر أخرى، وربما استطاع أهل العلم استنباط معانٍ أخرى أكثر سعة وعمقًا. فليس هناك قول بشري آخر يشير ويحث إلى وجوب بناء المجتمع بناء صالحًا بكلمات في غاية الوجازة مثل هذا القول. ولا عجب فإنه من صاحب الفطنة العظمى الرسول محمد ﷺ الذي يحلق كل بيان له في سماء الفصاحة والبلاغة.

أجل، إنه يحتل أسمى مكان بين الناس جميعًا في ميدان البيان والفصاحة، فليس هناك من أديب يستطيع أن يبلغ تلك الذروة. صحيح أن أقواله ليست آيات من القرآن، ولكنها بمجملها تحمل صفة الإلهام، ولهذا السبب فإن جميع الأدباء والفصحاء -كما قلنا في بداية الموضوع- لن يصلوا إلى درجة الْخَدَمِ عنده.

لقد كان حَسّان بن ثابت شاعرًا كبيرًا دعا له الرسول ﷺ ومدحه وأيده جبريل عليه السلام. ومع

---

[1] انظر الآية: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حَتّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١).

هذا فقد استطاعت الخنساء أن تجد ثمانية أخطاء في أربع أبيات من شعره... هذه الشاعرة العظيمة التي أسلمت عندما استمعت إلى رسول الله ﷺ، وأصبح كل همها هو الاستماع إلى سلطان البيان الذي سحرها كلامه إلى درجة أنها عندما بلغها استشهاد أربعة من أولادها في معركة القادسية لم تنطق بكلمة شكوى واحدة، وهي نفسها التي أغرقت عهد الجاهلية بأشعار الرثاء لأخيها صَخْر والبكاء عليه. ولكن عندما يبلغها نبأ استشهاد أولادها الأربعة في معركة القادسية لا تشتكي بل تقول: "الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم."[١]

كانت الخنساء من الملهَمات. فكلما سقط ابن لها شهيدًا في المعركة تلوَّتْ من الألم وهي تحس كأن السهم أصاب صدرها هي، ولكن ارتباطها بالرسول ﷺ كان قويا إلى درجة أنها لم تتلفظ بكلمة شكوى واحدة.

ز. الأعمال بالنيات

يروي البخاري ومسلم وأبو داود عن عمر بن الخطاب ﷺ هذا الحديث:

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه.»[٢]

لما كانت الهجرة هي السبب وراء هذا الحديث فقد كانت الهجرة هي صلب الموضوع فيه، ذلك لأن سبب هذا الحديث كان الحادثة التالية حسب إحدى الروايات:

كان الجميع يهاجرون من مكة إلى المدينة في سبيل الله، ولكن صحابيًّا لا نعرف اسمه هاجر من أجل امرأة اسمها أم قيس.[٣] لقد كان هذا الصحابي مؤمنا، غير أن نيته في الهجرة لم تكن مثل الآخرين. كان مهاجرًا أيضًا... ولكن في سبيل "أم قيس"، التي عانى كل مشقات الهجرة في سبيلها، لذا أصبح هذا العمل موضوع حديث رسول الله ﷺ دون ذكر أي اسم. فحكم هذا الحديث عام يشمل كل شيء وكل شخص، لأن العبرة بعموم الحكم لا بخصوص السبب.

١. النية

أجل، إن جميع الأعمال حسب النيات، وليست الهجرة وحدها. فإن كانت نية الشخص

---

[١] الإصابة لابن حجر، ٢٨٨/٤.

[٢] البخاري، بدء الوحي ١؛ مسلم، الإمارة ١٥٥؛ أبو داود، الطلاق ١١.

[٣] فتح الباري لابن حجر، ٢٤/١-٢٥.

المهاجر متوجهة إلى الله ورسوله وجد قبالته الله ورسوله. والشيء نفسه نجده في الصلاة وفي الصيام والزكاة. وكما ورد في حديث سابق فمن يحفظ حقوق الله يجده تجاهه «اِحْفَظ اللهَ يَحفظْكَ»؛ وهذا يعني أنه سيجد أمامه عناية الله وكرمه ورحمته. وعندما يجد الإنسان أمامه هذه العناية والكرم تجيش عواطفه ويخر ساجدًا لربه فيزداد قربًا منه. وكلما ازداد قربًا من الله كلما صفت نياته في جميع أعماله وأفكاره. وفي ظل إخلاص النية هذه وعندما ينتقل إلى العالم الآخر الذي يتبدل فيه كل شي، أي في القبر وفي البرزخ وفي الحشر وفي الصراط سيجد الله تعالى أمامه، فإن استطاعت أعماله أن توصله إلى درجة "لواء الحمد" فسيجد أمامه رسول الله ﷺ وسيسعد بصحبته فيلقى صحبة وراء كل تصور أو خيال.

أما من كانت نيته لغير الله، بل كانت هجرته وتعبه ومشقته من أجل امرأة، أي أن نيته كانت للذة مادية، فهذا يعني في نهاية الأمر أن جميع جهوده والمشقات التي عاناها تكون هباء منثورًا.

إن من يعيش لجسده، ولملذات بدنه، ولا يستمع لصوت روحه ووجدانه سيقضي حياة فارغة لا معنى لها، ولن يجني أبدًا النتائج التي يجنيها من نظم حياته في سبيل مرضاة الله تعالى. وقد ورد في حديث آخر: «نية المؤمن خير من عمله.»[1] ذلك لأن الإنسان مهما جهد فلن يصل إلى الهدف الذي نوى الوصول إليه. فكان من رحمة الله الواسعة أن يعامل المؤمن حسب نيته، لأن نيته ستكسب المؤمن أكثر من عمله. ومن ثم كانت نية المؤمن خيرًا من عمله من هذه الجهة.

وأنا أود لفت نظركم إلى حديث آخر له علاقة بهذا الموضوع إذ يقول الرسول ﷺ: «ألا وإن في الجسد مُضْغَةً إذا صلَحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب.»[2]

إذا كنت خالص النية ووجدت تربة صالحة، فإن كل بذرة تبذرها ستنبت نباتًا حسنًا. ومع أنها ستكون نبتة ضعيفة في بداية الأمر إلا أنها ستصبح فيما بعد شجرة باسقة نتفيأ ظلالها في الدار الآخرة. وكلما كانت نيتنا صافية كلما بسقت هذه الشجرة ووهبتنا ثمارها في الجنة. بالنية تنقلب عادات الإنسان وحركاته الاعتيادية إلى عبادة خالصة. فالشخص الذي ينام ناويًا قيام الليل تكون أنفاسه وهو يغط في النوم بمثابة ذكر لله. ولولا ذلك كيف كان يمكن للإنسان وهو بهذا العمر القصير وبهذه الأعمال القليلة أن ينال الجنة؟

---

[1] مجمع الزوائد للهيثمي، ١/٦١، ١٠٩.

[2] البخاري، الإيمان ٣٩؛ مسلم، المساقاة ١٠٧؛ المسند للإمام أحمد، ٤/٢٧٠.

أجل، إن كانت الحياة الأبدية مهداة إلى المؤمن، فهي لطف ونعمة مهداة لنيته في العبودية الأبدية مما يكسب بها الجنة الخالدة. والشيء نفسه وارد في القطب المقابل أي قطب الكافر الذي يستحق النار الأبدية. أجل، إننا نكسب الجنة بسبب نيتنا في العبودية الأبدية. ويكسب الكافر النار بسبب الجحود الأبدي الموجود في نيته.

إن النية وحدها هي التي تكسب الأعمال قيمتها بلا أي استثناء سواء أكانت هذه الأعمال كبيرة أم صغيرة، وتنفخ فيها الحياة فتحييها. بل إن النية وحدها في أعمال الخير والبر تكسب الإنسان الكثير من الأجر؛ فمثلاً إنْ همّ الإنسان بحسنة مّا ولم يعملها فِعْلاً فإنه يكتسب أجرًا من جراء نيته، فإنْ عملها اكتسب أجر عشر حسنات أو مائة أو أكثر كما يشاء الله تعالى. أما إن هم بسيئة ثم لم ينفذها فلا تكتب له سيئة من جراء نيته السيئة تلك، وإن قام بها كُتبت له سيئة واحدة فقط.[١] ولا شك أن كل سيئة لها عقاب من جنسها.

٢. الهجرة

ومن الجدير بالملاحظة مدى إشارة الحديث لأهمية الهجرة. صحيح أن الهجرة بمعناها الخاص قد انتهت، لأن رسول الله ﷺ يقول: «لا هجرة بعد الفتح»[٢] ولكن الهجرة في معناها العام مستمرة حتى يوم القيامة، ذلك لأن الهجرة توأم للجهاد، وُلِدا معًا ويعيشان معًا. والنبي ﷺ يخبرنا بأن الجهاد مستمر حتى يوم القيامة إذ يقول: «الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة.»[٣]

أجل، إن الشخص الذي يترك أباه وأمه ودياره ووطنه قاصدًا ديار الغربة من أجل إيصال دعوة الله إلى الناس... هذا الرجل الداعية وكل إنسان مؤمن هو في هجرة دائمة وسينال ثوابها.

ومن جهة أخرى لم يعيّن الله ثوابا محدَّدًا للهجرة في سبيل الله ورسوله، مما يشير إلى أن ثواب مثل هذه الأعمال تعطى يوم القيامة على شكل مفاجأة سارة. فالملائكة تسجل هذه الأعمال كما هي، والله ﷻ هو الذي يقدر ثوابها.

إن أداة "إنما" الواردة في بداية الحديث تفيد الحصر، وهذا معناه أن العمل لا يكون عملاً إلا بالنية. فأي عبادة دون نية لا تعد عبادة، لذا فإنْ صلَّى أحدهم ركعة دون نية، أو بقي جائعًا لسنوات أو وهب جميع أمواله، أو قام بجميع مناسك الحج دون نية لا يعد هذا الشخص

---

[١] البخاري، الرقاق ٣١؛ مسلم، الإيمان ٢٠٦-٢٠٧.

[٢] البخاري، الجهاد ١؛ مسلم، الإمارة ٨٥.

[٣] أبو داود، الجهاد ٣٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١٠٦/١.

مصليًا أو صائمًا أو مزكيًا أو حاجًّا؛ لأن النية هي التي تحول جميع هذه الأعمال إلى عبادة.

أ- الهجرة من الذنوب

وعندما ندقق النظر في الحديث نرى أن رسول الله ﷺ شرح موضوع النية وهو موضوع واسع بثلاث كلمات، ثم أشار إلى موضوع الهجرة وهو موضوع متشعب بجملتين أو ثلاث مبتدئًا بذكر الهجرة التي تعني ترك المعاصي والذنوب ومتناولاً جميع الهجرات في سبيل الحق حتى يوم القيامة بجملتين أو ثلاث وبأسلوبه "السهل الممتنع"، وهذا لا يتيسر إلا لسيد الفصحاء والبلغاء. ومن المفيد القول بأن أفضل المهاجرين هو من هجر المعاصي والذنوب وأخلى قلبه من جميع أنواع الحب عدا حب الله تعالى.[1]

دعا إبراهيم بن أدهم ربه يومًا فقال:

"يا رب! لقد فَنِيتُ في حبك، هجرتُ كل شيء وجئت إليك، لم تَعُدْ عيوني ترى شيئًا غيرك..." وبينما كان مستغرقًا في جو هذا الدعاء الحار، رأى ابنَه بجوار الكعبة، ورآه ابنُه كذلك، فدَفعتْ لَوعة فراق السنين كلاً منهما نحو الآخر. وفي لحظة العناق الحار سمع إبراهيم بن أدهم هاتفًا:

"يا إبراهيم..! لا يجتمع حبان في قلب واحد" فصرخ إبراهيم: "خذ إليك يا رب من كان حائلاً بيني وبين حبك" فهوى ابنه تحت قدميه ميتا.[2]

ب- الهجرة إلى الرحمة الإلهية

من الهجرة الفرار من المعاصي إلى باب الرحمة الإلهية، ولزوم هذا الباب حتى مجيء العفو الإلهي. وما أحسن قول القائل معبرًا عن هذا المعنى:

إلهي عبدك العاصي أتاك مُقِرًّا بالذنوب وقد دعاك
وإن تغفر فأنت أهل لذاك وإن تَطْرُدْ فمن يرحم سواك

إن الإنسان الذي يكره العودة إلى المعاصي والذنوب التي تاب منها، أكثر مما يكره إلقاءه في النار هو الإنسان الذي يسلك طريق الهجرة بحق وصدق.

إن الإنسان الذي ينظر إلى حمى الله في أرضه نظرته إلى ساحة ملغومة بالمتفجرات، والذي يصون يده ورجله وعينه وأذنه وفمه وشفته عن المعاصي يعد مهاجرًا في سبيل الله

---

[1] الحديث الذي يذكر هذا هو المهاجر من هجر ما نهى الله عنه. انظر: البخاري، الإيمان ٤؛ النسائي، الإيمان ٩؛ أبو داود، الجهاد ٢؛ ابن ماجه، الفتن ٢.

[2] تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار (ترجمته باللغة التركية) ص١٤٦-١٤٩.

طوال حياته سواء أكان بين الناس. أم كان منزويًا ومعتكفا. فالهجرة مستقرة في أعماق قلبه وهي رفيقته، غير أن الهجرة في الاعتكاف لها طعم آخر وبعد آخر، إذ يصل الإنسان فيه إلى "الأنس بالله" ويستقبل النفحات الإلهية.

وإذا أردنا تلخيص هذا الموضوع يمكنا أن نقول إن هذا الحديث الشريف يومئ إلى عدة مسائل:

أ. أن النية هي روح العمل، والعمل يعد ميتًا إن كان بغير نية.

ب. أن النية إكسير نوراني حافل بالأسرار يحول الحسنات إلى سيئات والسيئات إلى حسنات.

ج. أن ارتباط العمل بالنية هو الذي يجعله عملا، فالهجرة دون نية تعد سياحة، والجهاد دون نية يعد بغيا، والحج دون نية نزهة، والصلاة دون نية رياضة، والصوم دون نية حمية لغاية صحية. ولكي تكون كل هذه العبادات أجنحة تطير بالإنسان إلى الجنة فلابد من النية الخالصة.

د. أن الجنة الخالدة الأبدية نتيجة لنية العبودية الأبدية، والنار الأبدية نتيجة لنية الجحود والإنكار الأبدي.

هـ. أن الإنسان يستطيع بنيته الحصول على نتائج كبيرة وجوائز ثمينة بجهد صغير وبثمن قليل.

و. إن من يستثمر جوهرة النية بحق يستطيع أن يملك بها الدنيا وما فيها.

ز. أن الدنيا والمرأة رغم كونهما من نعم الله إلا أن سوء استعمال هذه النعم، وعدم مراعاة الموازين الشرعية عند التعامل معهما يعني إقامتهما بديلين لرضا الله ورسوله، وذلك يجر إلى خسارة الإنسان كل شيء في مجال الكسب.

وفي النهاية لقد استطاع هذا الحديث في ثلاث أو خمس جمل أن يضم كل هذه المعاني الكبيرة وغيرها والذي يحتاج كل معنى فيها إلى كتاب كامل لشرحه. أي استطاع سيد البيان ﷺ أن يرينا الشمس في ذرة، والبحر الزاخر في قطرة.

ح . بلاء اليد واللسان

يروي البخاري من صاحب جوامع الكلم ﷺ هذا الحديث:

«المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه.»[1]

---

[1] البخاري، الإيمان ٤؛ النسائي، الإيمان ٩؛ أبو داود، الجهاد ٢؛ ابن ماجه، الفتن ٢.

١. المسلم المثالي

والآن لنحلل هذا الحديث باختصار:

للام التعريف في كلمتي "المسلم" و"المسلمون" هنا معنى محدد. فالمسلم المثالي هو الذي دخل إلى جو السلم والسلامة والثقة وأذاب كيانه فيه. وهو المؤمن الذي لا يمد لسانه ولا يده بالأذى للمؤمنين من أمثاله، وليس الذي مكتوب في هويته أو بطاقته الشخصية أنه مسلم أي المسلم بالجنسية، فالموضوع هنا يتعلق بصفات المسلم الحقيقي والمؤمن المثالي.

فلام التعريف هنا للعهد، والقاعدة تقول: إن إطلاق الذكر يصرف نحو كمال الوصف. لذا، فعندما ترد كلمة المؤمن فإن الذهن ينصرف إلى معنى "المؤمن الكامل". والمؤمن أو المسلم المذكور في الحديث الشريف هو من هذا النوع.

والإنسان لا يعلم عادة هذه الأمور اللغوية الدقيقة، فلا يعلمها سوى من تعلم في المدارس أو في حلقات التدريس أو عند أحد العلماء فيتعلم دقائق النحو ودقائق اللغة. ولم يكن هذا واردًا بالنسبة لرسول الله، فكلامه لم يكن من عنده، بل من عند المعلم الأزلي. لذا، نرى في بيان الرسول ﷺ جميع دقائق اللغة، وإضافة إلى هذا لا نجد فيه أي قصور أو مخالفة أو خطإ لغوي.

والآن لنرجع إلى الحديث. المسلم هو إنسان السلام والأمن إلى درجة أن المسلمين الآخرين يستطيعون أن يديروا له ظهورهم بكل أمن، لأنهم يعلمون بأنه لن يؤذي أي أحد. وعندما يضطرون إلى إيداع أهلهم أمانة عنده يستطيعون ذلك دون أن يخالجهم أي خوف، لأنهم يعلمون عدم صدور أي أذى منه، لا من لسانه ولا من يده. وعندما يتركون مجلسًا ضمهم معه، فإنهم يتركونه وهم مطمئنون بأنه لن يغتابهم في غيابهم، ولن يستمع إلى غيبتهم من أحد الحاضرين. وهو يراعي كرامة الآخرين وعرضهم كما يراعي كرامته وعرضه تمامًا. قد لا يأكل ولكنه يُطْعِم. قد لا يشرب ولكنه يسقي، وقد يفتدي الآخرين بروحه، بل قد يضحي بأحاسيس فيوضاته الروحية من أجل الآخرين. ونحن نستخرج كل هذه المعاني من لام التعريف التي تفيد معنى الحصر.

٢. السلم والمسلم

من جانب آخر هناك جناس بين هاتين الكلمتين. فكلمة "المسلم" وفعل "سلم" يأتي كلاهما من جذر "س ل م". ونظرًا لوجود بعض التشابه بين حروفهما فالجناس هنا جناس

ناقص. غير أن صيغة كل من هاتين الكلمتين مختلفتان، فهذا التشابه والاختلاف يذكرنا بالمعنى التالي:

المسلم هو الإنسان الذي تجري جميع الأمور عنده في "سلم" وفي "سلامة" و"سلام". فقد ترك نفسه إلى الشوق الإلهي بحيث أصبحت جميع حركاته وسكناته حول هذه القوة المركزية. هو يسلِّم على الجميع، على من يعرفه وعلى من لا يعرفه... لذا، تستقر محبته في القلوب.[1]

عندما ينهي صلاته ينهيها بالسلام فتتلقى الكائنات العاقلة جميعها هذا السلام من إنسها وجنِّها وملائكتها. فهو يسلم على هذه الكائنات وإن لم يكن يراها. وليس هناك عدا المؤمنين من أفشى السلام بهذه الصورة الواسعة.

يتم الدخول إلى الإسلام بأداء أركان الفرائض: الصلاة والصوم والزكاة والحج والنطق بالشهادتين، وهذا يتم بالدخول إلى السلم حسب أوامر الآية الكريمة: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ (البقرة:٢٠٨). أي ينشر شراعه في بحر السلم ويبحر فيه. ومثل هذا الشخص يفوح سلماً وسلاماً في كل حركة من حركاته، ولن يجد أي أحد فيه شيئا سوى الخير ولن يتوقع أو ينتظر منه سوى الخير.

٣. لِـــمَ اليد واللسان ؟

كما هي العادة في كلام رسولنا ﷺ فإن جميع الكلمات المتعلقة بالموضوع مختارة بعناية فائقة. وكما يلاحظ فإن الحديث يشير إلى اليد وإلى اللسان، إذن، فلا بد من وجود حكم عديدة في ذكرهما دون سائر الأعضاء، ذلك لأن الإنسان يستطيع أن يضر إنسانًا بطريقتين... إما يضره وجهاً لوجه، أو يضره غيابياً أي من وراء ظهره. فالضرر الذي يقترفه وجهًا لوجه يمثله الضرر باليد، والضرر الذي يقترفه غيابياً يمثله الضرر باللسان. أي إما أن يعتدي الإنسان بنفسه على حقوق الشخص الموجود أمامه أو يعتدي على حقوقه في غيابه بأن يغتابه ويهينه ويحقره. وكلا الأمرين قبيحان ولا يمكن صدورهما من المؤمن أبدًا، لأنه يتصرف دائما بمروءة حيال الآخرين سواء أكانوا في حضوره أم لم يكونوا.

ثم إن رسولنا ﷺ يذكر اللسان قبل اليد، ذلك لأن من المحتمل أن يقوم الشخص الآخر بمقابلة الاعتداء اليدوي، غير أن الغيبة الصادرة في غياب الشخص أو الافتراءات الواقعة عليه تبقى في معظم الأحوال دون مقابل. لذلك فإن مثل هذا التصرف يؤدي إلى زرع العداوات بكل سهولة بين الأفراد بل حتى بين الأمم. فتعقب أضرار اللسان أصعب من إزالة

---

[1] البخاري، الإيمان ٢٠؛ مسلم، الإيمان ٦٢.

الأضرار التي تحصل وجهًا لوجه، لذا قدم الرسول ﷺ اللسان على اليد. ومن ناحية أخرى تجد في هذا الحديث قيمة المنزلة التي يحتلها المسلم عند الله، بحيث أن أي مسلم آخر لا يستطيع أن يمد له لسانه أو يده.

إن أحد الأبعاد الخلقية المهمة للدين الإسلامي الذي جاء لتأسيس الأمن والسلام هو أن الفرد المسلم مثلما يجب عليه الابتعاد عن كل ما يضر شخصه ماديا أو معنويا، كذلك يجب عليه الابتعاد عن الإضرار بالآخرين. وليس هذا فحسب بل عليه أن يكون ممثلاً للأمن والأمان في كل شريحة من شرائح المجتمع. أجل، إن المسلم مسلم حقيقي بدرجة شعور الأمن والأمان الذي يضمه في جوانحه. وهو في غدوه ورواحه وحركاته وسكناته وقيامه وقعوده ترجمان للشعور النابع من "السلام"[1]: فعند مقابلته للمؤمنين يسلِّم عليهم، وعندما يفارقهم يتمنى لهم السلامة... يزين تحيات صلاته بالسلام، ويختم صلاته بالسلام على المؤمنين قبل مغادرة الحضور الإلهي. لذا، فإن من المحال لمثل هذا الشخص الذي أرسى حياته حول محور السلام أن يسير في طريق معاكس لفكره الأساسي، ومضاد للأمن وللسلام المادي أو المعنوي، الدنيوي أو الأخروي. وبعد هذه النظرة من شاهق على هذا الحديث، لنذكر هذه الخصائص المنبثقة من روح الحديث:

أ - إن المسلم الحقيقي أفضل ممثل للسلام العالمي في الأرض.

ب- إن المسلم أينما وجد ينشر حواليه روح السلام، هذا الذي تشربت به أعماق نفسه.

جـ- لا يبتعد المسلم عن إلحاق الأذى أو الضرر بالآخرين فحسب، بل يكون رمزًا للأمن والاطمئنان في كل مكان يُذكَر فيه.

د- لا فرق عند مثل هذا المسلم بين الاعتداء الذي يتم باليد، أو الاعتداء الذي يتم باللسان غيبة ونميمة، أو بالافتراء والبهتان أو بالإهانة والتحقير. بل يكون ذنب الاعتداء باللسان أكبر من ذنب الاعتداء باليد.

هـ- إنْ اقترف المؤمن بعض هذه الذنوب فسيبقى مؤمنا ولا يخرج عن ملة الإسلام، أي لا تكون هذه الذنوب حدًّا فاصلاً بين الإيمان والكفر حسب عقيدتنا.

ويشير هذا الحديث ذو البيان المعجز في سطر واحد فقط إلى أن الإنسان يجب أن يسعى في موضوع الإسلام والإيمان -كما في غيرهما من المسائل- ليس إلى الإسلام أو الإيمان الاعتيادي بل إلى مراتبها العليا، ويضع الحب والشوق في القلوب لبلوغ هذه الغايات.

---

[1] "السلام" هنا اسم من أسماء الله تعالى. (المترجم)

ط . من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه

ننتقل إلى حديث مضيء آخر لرسولنا ﷺ حيث يقول ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تَرْكُه ما لا يَعْنِيه.»[١]

يبين الحديث سر وصول المؤمن بإسلامه إلى درجة الإحسان والإتقان، أي الوصول إلى إسلام متين ودون شروخ أو قصور من ناحية المظهر الخارجي وإلى درجة سر الإحسان من ناحية الباطن. فالواصل إلى هذه الدرجة عليه أن يترك ما لايعنيه... وهو لا بد تاركه.

١. الوقار الداخلي ينعكس على المظهر

إن عبادات الأشخاص المتسمين باللامبالاة وعدم الجدية تكون كذلك أيضًا غير جدية. وشخص من هذا الطراز قد يقوم للصلاة مُظْهِرًا الجدية والوقار، ولكن إن لم تبلغ الجدية والوقار أعماق قلبه ووجدانه وعالمه الداخلي كيراعة تحاول أن تظهر نفسها نجمة لامعة، لا ينجح في الاستمرار في مثل هذا التمثيل، وذلك لاستحالة إخفاء الخُلق والسلوك. فكل إنسان سيتصرف -إن عاجلاً أو آجلاً- حسب طبيعته وحسب خلقه، إلا إذا أصبحت الجدية والوقار طبيعة ملازمة له. ولا يمكن الوصول إلى هذا المستوى إلا بالتمرين والتدريب والرياضة الجادة للنفس. فإن كانت هذه الرياضة موجودة أصبح الجد خلقاً وتراجع "التظاهر". ولكن الإنسان ابن لاشعوره، ولا يستطيع التخلص منه، فالعصفور لا يستطيع تقليد مشية الطاووس مدة طويلة. ونستطيع جمع أطراف هذا الموضوع كما يأتي:

حتى يبرز الإتقان خارج النفس فلا بد أن يوجد داخلها الإحسان، أي أن المظهر الخارجي يجب أن يستمد العون من الداخل... فيجب أن يكون داخل النفس جادًّا وقورًا لكي يسري ذلك إلى المظهر الخارجي.

عندما ذُكِر أحد الصحابة الكبار أمام عمر بن الخطاب ﷺ بأنه يستحق أن يكون خليفة قال عمر ﷺ: "إنه أهل للخلافة، غير أنه فيه بعض المزاح، والخلافة جِدٌّ لا هزل فيها."[٢]

فإذا كانت الخلافة التي تقتضي إدارة الناس تتطلب الجدية، ألا تتطلب خلافة الله في الأرض جدية؟ إن الإنسان الذي لا يتسم بالجد والوقار وهو بين يدي خالقه ومولاه، كيف يستطيع أن يكون شخصا جادًّا في المواضع الأخرى؟

---

[١] الترمذي، الزهد ١١؛ ابن ماجه، الفتن ١٢.

[٢] عمر بن الخطاب: جوانبه المختلفة وإدارته للدولة لِشِبْلي النعماني ٢٩٩/١.

٢. شعور الإحسان والجد

إن كلمة "مِنْ" الواردة في بداية الحديث تفيد الحصر، أي هنا شرح للطريق الذي يوصل المسلم إلى مرتبة الإحسان، وهو تركه اللامبالاة. فطالما لم يكتسب الإنسان الجد ولم يترك اللامبالاة فلا يمكنه البلوغ أبدًا إلى مرتبة الإحسان.

في حديث جبريل عليه السلام يتم تناول مرتبة الإحسان في المرحلة الأخيرة. فعندما جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ سأله أولاً عن الإيمان ثم عن الإسلام وبعد أن صدّق أجوبة رسول الله ﷺ سأله: ما الإحسان؟ فأجابه نبينا: «أن تَعْبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».[1]

والوصول إلى هذه المرتبة لا يتم إلا بعميق التقوى والزهد والولاية. وعلى الإنسان أن يعيّن الوصول إلى هذه المرتبة كهدف مثالي وأن يجرب الطرق المؤدية إليها. إن الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد. أجل، إن قلب الإنسان بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء، وكل شيء تجلٍّ من تجلياته، فمن العبث البحث عنه في الخارج، ذلك لأنه أقرب إليه من نفسه، وانكشاف هذا السر يكون في مرتبة الإحسان.

٣. الإتقان في كل شيء

عندما يغمر الإحسان قلب الإنسان ووجدانه يسود الإتقان جميع تصرفاته. والله تعالى يحب العمل المتقن، إذ يقول في القرآن الكريم: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُم وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلى عَالِمِ الْغَيبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة:١٠٥).

أي أن جميع الأعمال ستعرض على الله وعلى رسوله وعلى المؤمنين من ذوي القلوب النيرة والعقول الأريبة وتمر من تدقيقهم وتفتيشهم. لذا، يجب أن يضع الإنسان نصب عينيه أن كل عمل يؤديه سيمر من خلال التفتيش والتمحيص، ولذا، فعليه أن يعمل عملاً لا يستحيي ولا يخجل منه. ولا يتأتى ذلك إلا بإتقان ذلك العمل. ولكي يوفَّق الإنسان لأداء مثل هذا العمل عليه أن يكون واصلاً لمرتبة الإحسان. وعندما يتعمق العالم الداخلي للإنسان ترتفع درجة الإتقان في عمله، فلا يسقط في وهدة اللامبالاة، وهكذا يحصل على محاسن الإسلام، أو بتعبير آخر يعيش الإسلام الحقيقي، ويصل إلى منزلة ملائمة للإسلام الحقيقي الجميل في ذاته.

و"ما لا يعنيه" هي الأمور التي لا علاقة له بها وغير الضرورية وغير المفيدة له لا في حاضره ولا في مستقبله، بحيث لو انشغل بها فلن يستفيد منها لا هو ولا عائلته ولا أمته أي

---

[1] البخاري، الإيمان ١؛ سنتناول باختصار هذا الحديث فيما بعد.

فائدة. وهكذا فالذي استطاع إدراك جمال الإسلام والوصول إليه يكون قد ابتعد في الوقت نفسه عن اللامبالاة وعدم الجدية.

فهذا الحديث يعلّم الإنسان ما ينبغي. إذ أن عليه أن ينشغل فقط بالمسائل العلوية، بحيث أن كل مسألة منها تكون ذات فائدة له ولأسرته ولمجتمعه، وهذا في الحقيقة هو تعريف للإنسان الجدي.

ولا أتمالك نفسي هنا من عرض أمر دقيق أتحسسه من خلال هذا الحديث: ما المقصود بـ"ما لا يعنيه"؟

إن الشخص المشغول بما لا يعنيه لا يجد الفرصة أمامه لكي ينشغل بما يعنيه حقا، إذ لا يجد الوقت الضروري والكافي لذلك. إن الشخص الذي لم يكتشف حقيقة نفسه بعد، ولم يجد الجو والاتجاه المناسب، لا يمكن أن يقدم على إنجاز إيجابي أو عمل جيد. فالإنسان المغمور حتى ذقنه بما لا يعنيه لا يمكن أن يكون منفتحا على ما يعنيه، لأن قلبه ورأسه مليئان بأمور تافهة وعرجاء، فكيف ننتظر من مثل هذا الشخص الانشغال بشيء ذي قيمة؟

وهكذا استطاع رسول الله ﷺ التعبير عن كل هذه المعاني بجملة واحدة مؤلفة من بضعة كلمات. وعندما قمت بشرح معانيه لم أقل شيئا. كل ما قمت به هو أنني حاولت أن أهوي بمعول التعبير على البنية الرصينة الصلبة لذلك الحديث، فكان كل ما وصلكم عبارة عن بعض القطع المتناثرة منها. وقد لا أكون موفقًا في شرح تلك المعاني كما يجب. غير أن عجزي وعجز أمثالي ليس إلا برهانًا لمدى قوة التعبير عند رسول الله ﷺ وقوة بيانه وفصاحته، ذلك لأننا لا نحيط علمًا بكل معاني أقواله ﷺ التي كان يرسلها ارتجالاً دون تحضير سابق. فالمعاني التي يضيق عنها عالمنا الفكري كانت المعاني الاعتيادية التي يتحدث بها كل يوم. فهل يمكن تفسير هذا إلا بالفطنة؟ إن كلمة العبقرية تبقى هزيلة وعاجزة في شرح هذه الخصلة.

يـــ . الصبر

يتفق مسلم والبخاري في رواية هذا الحديث: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى.»[1]

عندما شاهد رسول الله ﷺ استمرار بعض العادات الجاهلية عند زيارة القبور، منع المؤمنين من هذه الزيارة. ولكنه عاد بعد ذلك وأباحها ودعا إليها إذ قال: «قد كنت نهيتكم

[1] البخاري، الجنائز ٣٢؛ مسلم، الجنائز ١٤، ١٥.

عن زيارة القبور، فقد أُذِنَ لمحمد في زيارة قبر أمه، فزوروها فإنها تُذَكِّر بالآخرة.»[١] ذلك لأن أفضل نصيحة للإنسان وأكثرها تأثيرًا في إنقاذه من طول الأمل موجودة في القبر. ولقد كان رسول الله ﷺ الذي كان رمزًا للوفاء يزور القبور كثيرًا ويزور شهداء أحد مرة في الأسبوع على الأقل.

عن أنس بن مالك ﷺ قال مرّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال: «اِتَّقي الله واصبري»، قالت: إليكَ عني فإنك لم تُصَب بمصيبتي ولم تعرفه. فقيل لها إنه النبي، فأخذها مثلُ الموت، فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوّابين. فقالت: لم أعرفك... فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى.»[٢]

فقد شرح في أربع كلمات بليغة معجزة مسألة يحتاج بيانها إلى مجلدات.

إن للصبر أنواعا متعددة: الصبر على المصيبة، والصبر في مقاومة الذنوب والآثام، والصبر على العبادة والاستقامة عليها. فأداء الصلاة خمس مرات في اليوم وصيام شهر واحد كل عام على الأقل وأداء الزكاة وإيفاء حق الأوامر الأخرى المتعلقة بالعبودية... كل هذه الأمور تتطلب الصبر وتنظم حياة الإنسان وتصبغ حياته صبغة أخروية. وتنقضي مثل هذه الحياة في درب نوراني وجو تغمره البركة مثمرًا الجنة في نهاية المطاف. لذا، كان على الإنسان أن يعض بالنواجذ على هذه العبادات ويصبر عليها لكي ينور حياته ويضيئها.

فالصبر مُرّ مثل تناول "عشب الصبار" المرّ المذاق الذي يستعمله الأطباء في تحضير بعض الأدوية. غير أن هذه المرارة ليست إلا في البداية، ثم تكون نتائجها بعد ذلك حلوة على الدوام.

إنه ليس من السهل الصبر على الحوادث المرة الأليمة والصرُّ على الأسنان وتَحمُّل كل المصائب دون فقد للأعصاب ودون اهتزاز أو شلل للفكر وللإرادة. غير أن تحمل هذه الآلام يكون عند الصدمة الأولى. ذلك لأن أي تغيير أو انتقال إلى وضع آخر يؤدي إلى تغيير في الحالة النفسية للإنسان ويخفف عنه ويؤدي إلى نسيانه للحوادث التي هزته.

لنفرض أن مصيبة مّا أصابتنا... سنعتقد في الوهلة الأولى استحالة تحملنا لها. ولكن علينا أولاً أن نزيل أثر الصدمة الأولى، وهذا لا يكون إلا بتغيير وضعنا. فإن كنا وقوفًا علينا أن نجلس، وإن كنا قاعدين علينا أن نتمدد، أو نغير شيئا في نوع فعاليتنا... أن نتوضأ مثلاً أو

---

[١] مسلم، الجنائز ١٠٦؛ النسائي، الجنائز ١٠٠؛ أبو داود، الجنائز ٧٧؛ الترمذي، الجنائز ٦٠؛ ابن ماجه، الجنائز ٤٧.

[٢] مسلم، الجنائز ١٥؛ البخاري، الجنائز ٣٢.

نصلي أو نبتعد عن موضوع الحديث الذي كنا نتحدث فيه، أو أن نترك موضعنا ونذهب إلى أي موضع آخر أو إلى أي مكان آخر للالتجاء إلى جو آخر. وأحيانا يكون أخذ سِنة من النوم مفيدًا في التخلص من أثر الصدمة الأولى. وعلى أي حال فإن تغيير الوضع أو الحال أو المكان يقلل من تأثير الصدمة ويخفف من أثر المصيبة التي حسبنا أننا لن نستطيع تحملها.

كما أن الصبر ضروري في موضوع الاستقامة على أداء العبادات. فالصلاة مثلاً قد تبدو للمبتدئ عبادة صعبة جدا، ولكن ما إن يصبر قليلاً وما إن تمتزج الصلاة بروحه، حتى يكون عدم أدائه لصلاة وقت واحد جحيمًا لا يطاق. ويمكن ذكر نفس الشيء بالنسبة للعبادات الأخرى كالصوم والزكاة والحج.

تأملوا معي كيف أن الشخص المؤدي لعبادة شاقة مثل الحج يملأه شوق عارم كل سنة لأداء الحج مرة أخرى، حتى أنه ليكاد يجن من التحديدات التي توضع في موضوع الحج.[1] فمثل هذا الحب للعبادة يعني تجاوز صعوبة الصدمة الأولى... وهذا ينطبق على سائر العبادات الأخرى تقريبًا.

وعلى الإنسان أن يتذرع بالصبر نفسه أمام المحرمات أيضًا. لأن المقاومة المعلنة عند الصدمة الأولى لهجوم الإثم على النفس تخمد شرارته وتضعف طاقته، فيتخلص الإنسان من صدمته. لذا، قال رسولنا ﷺ لعلي ﷺ: «يا عليّ! لا تُتْبِع النظرةَ النظرةَ، فإن لك الأولى وليست لك الآخِرة.»[2] أي إن نظر الإنسان قد ينزلق إلى الحرام، فإذا حوَّل الإنسان وجهه ونظره حالاً فلا يُعَدّ ذلك ذنبا له بل يعد حسنة لأنه لم ينظر إلى حرام. ولكن النظرة الثانية والنظرات الأخرى تنغرز في قلب الإنسان وروحه كسهام مسمومة فتعكر صفو خياله وتضعف القوة المعنوية لإرادته، لأن كل نظرة إلى الحرام إنما هي بمثابة دعوة لتيسير الولوج إلى دروب الإثم والمعصية. فكل نظرة تشوق وتدعو إلى نظرة أخرى، وهنا يبدأ الإنسان بفتح أشرعته للإبحار نحو الحرام ويبدأ رحلة يصعب الرجوع عنها. فقبل الوصول إلى هذه المرحلة يجب الصبر عند الصدمة الأولى للحرام وعدم التوجه إليه، بل إغماض العين عنه، وهذا من الوصايا الذهبية لرسول الله ﷺ لنا.

وقديما قال "أبكتيتوس": "عندما تحيط بك الخيالات الضارة حاول الهروب منها في

---

[1] المقصود هو التحديدات التي أصبحت توضع في تركيا وفي غيرها من البلدان الإسلامية حول عدد الأشخاص المسموح لهم بالحج في كل سنة ويكون هذا العدد عادة أقل من عدد الراغبين في الحج مما يولد في نفوسهم الألم. (المترجم)

[2] أبو داود، النكاح ٤٣؛ الترمذي، الأدب ٢٨؛ الدارمي، الرقاق ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٣٥٣/٥، ٣٥٧.

أول فرصة. وإلا فلن تستطيع الرجوع من الموضع الذي ستقودك إليه." وهذا قول ملهم، ولو عاش هذا الرجل بعد رسول الله ﷺ لقلنا إنه أخذ إلهامه منه ﷺ.

وعندما يبدي الإنسان هذا التصرف تجاه الحرام على الدوام، يصبح هذا طبعه وديدنه، ذلك لأن النور الذي يتولد في قلبه من جراء هذه التمارين التي يمارسها يكون سترًا له من الذنوب والمعاصي التي هي بمثابة شرارات من جهنم، إلى درجة أن غضه البصر عن الحرام يدخل ضمن سلوكه الفطري الأصيل. ولو هجس بباله هاجس مخالف لَغمس يدَه في خلية عسل الإيمان الموجودة في قلبه ونأى بنفسه في ظل هذه اللذة الإيمانية عن كل ما يبعده عن هذا الجو الإيماني والمعنوي.

لذا، يمكننا القول بأنه من المستبعد جدًّا أن يدخل مثل هذا الشخص ساحة الحرام بإرادته.

لكل مصيبة صدمة خاصة بها. وعندما يتم تجاوزها تنقلب المصيبة إلى رحمة، والألم إلى لذة، والهموم إلى أذواق، وآلام مثل هذا الإنسان تكون قد سكنت وهدأت وتركت مكانها للنشوة. غير أن كل هذا مرتبط بتجاوز الصدمة الأولى بنجاح. وهكذا عبَّر رسول الله ﷺ عن هذا الموضوع العميق بأربع كلمات فقط «الصبر عند الصدمة الأولى.»

ك . اليد العليا

يقول نبينا ﷺ في حديث رواه البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل ﷺ: «اليَد الْعُلْيَا خير من اليد السُّفْلَى.»[1]

واليد العليا هي التي تنفق وتعطي، واليد السفلى هي اليد التي تأخذ، وذلك كما فسره النبي ﷺ في أحاديث أخرى.[2] وكما أن اليد التي تعطي هي في الحقيقة أعلى من اليد التي تأخذ، كذلك فإن في الحديث إشارة إلى أن الثواب الناتج من الإنفاق يجعل اليد التي تنفق أعلى من اليد التي تأخذ. كما أن فيه استثارة للكرامة الإنسانية لحث وتشجيع ذوي النفوس السليمة على العطاء وتنفيرهم من الأخذ. وقد بيّن الحديث كل هذا بأسلوب رائع وموجز لا تنبو كل كلمة فيه عن موضعها، فكل كلمة في مكانها وفي موضعها الصحيح.

وحتى لا تبقى عملية الإعطاء والإنفاق معلقة في الهواء فقد جعل هناك يدا تأخذ مقابل اليد التي تعطي، وقد وصف الحديث اليد المعطاء بالخير، ولم يصف اليد التي تأخذ بالشر،

---

[1] البخاري، الوصايا ٩، الزكاة ١٨؛ مسلم، الزكاة ٩٤؛ النسائي، الزكاة ٥٢؛ أبو داود، الزكاة ٢٨؛ الدارمي، الزكاة ٢٢؛ المسند للإمام أحمد، ٤/٢.

[2] الدارمي، الزكاة ٢٢؛ البخاري، الزكاة ١٨.

ومع هذا فإن في الحديث إشارة من طرف خفي إلى أنها "أقل خيرا" وتنبيه إلى عدم ضرر الأخذ في بعض الظروف.

ومع ورود كل هذه المعاني فإن حديث «اليد العليا خير من اليد السفلى» لا يعني مجرد اليد المادية، فالرسول ﷺ قد استعمل الكلمات بمعانيها المجازية.

أولاً: لقد عبر بالجزء وأراد الكل، فالمقصود من اليد هنا الإنسان نفسه أي أن معنى الحديث هو "الإنسان المعطي خير من الإنسان الآخذ."

ثانيًا: إن الذي ينفق هو المعطي والذي يُنفَق عليه هو الآخذ، فلو كان الرسول ﷺ قد استعمل هذه الكلمات لشرح صفات اليد لكان يجب أن يقول "اليد التي تعطي خير من اليد التي تأخذ"، غير أنه لم يستعمل كلمة "المعطي" ولا كلمة "الآخذ" بل استعمل كلمة "العليا" وكلمة "السفلى" في وصف كلمة اليد. لذا، يرد إلى الخاطر نكتة دقيقة وهي أن اليد التي تعطي ليست أفضل من اليد التي تأخذ في جميع الأحوال. ففي بعض الأحيان قد تكون اليد الآخذة أفضل بكثير من اليد المعطية، وذلك إذا كانت مضطرة أو كانت تحمل نية إثابة اليد المعطية بإنفاق هذا المال في مواضعه الصحيحة، أو عندما يكون صاحب اليد المعطية منانًا، ففي كل هذه الأحوال تكون اليد الآخذة هي اليد العليا، وإن كانت اليد المعطية هي العليا في الظاهر غير أنها تكون السفلى في الحقيقة.

فقد ترى البعض من الفقراء الصابرين... شُعثًا غُبرًا... لا يوقرهم الناس في المجالس... وتغلق في وجوههم الأبواب... هؤلاء يصفهم الرسول ﷺ فيقول: «لو أقسموا على الله لأبرّهم» كان البراء بن مالك من هؤلاء.[1] وكان المسلمون إذا وقعوا في ضيق في أي معركة، ذهبوا إلى البراء وطلبوا منه أن يقسم بأن ينتصروا، فيقسم فينتصر المسلمون،[2] وقد تكون يد مثل هذا الشخص يدًا آخذة.

وكان ثَوْبانُ من فقراء الصحابة، ومع ذلك أوصاه الرسول ﷺ بألا يسأل الناس شيئا، ومن ذلك اليوم لم يسأل ثوبان من أي إنسان شيئا حتى إن السوط كان يسقط منه وهو يسير بناقته فينزل عنها ويأخذ سوطه بنفسه لكي لا يسأل أحدًا شيئًا ثم يركب ناقته.[3] فقد يكون من الناس من أعطى لمثل هذا شيئًا، وذلك كمن يعطي جبريل عليه السلام المتمثل في شكل إنسان شيئا أو

---

[1] الترمذي، المناقب ٥٥.

[2] الإصابة لابن حجر، ١/١٤٣، ١٤٤.

[3] أبو داود، الزكاة ٢٧؛ ابن ماجه، الزكاة ٢٥؛ المسند للإمام أحمد، ٥/٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨١.

صدقة. فمثل هؤلاء الأشخاص لا يكونون أبدًا في وضع أقل أو مرتبة أدنى من مرتبة المعطين والواهبين، ذلك لأننا نعلم من حديث يرويه أبو هريرة أنه عندما يتم إعطاء صدقة لمثل هؤلاء الأشخاص فكأنما أعطاها لله تعالى، وكأن الله تعالى هو الذي أعطى هذه الصدقة لهم.[١]

١. الوصايا

كأن رسول الله ﷺ يوصينا بعباراته هذه الوصايا:

كونوا أعزاء النفوس، ولا تذلوا أنفسكم بالتسول. ولا تهبطوا أبدًا أفرادا كنتم أو أمة إلى مستوى اليد الآخذة، بل كونوا دائما اليد المعطاء. وبمثل هذا تُبقون على مكانتكم المرموقة وتحافظون على عزتكم. ولا تنسوا بأن اليد العليا تكون دائمًا في أمن وهي تعطي وتبذل، واليد السفلى تكون دائمًا في قلق وهي تلتقط العطايا. كونوا أنتم اليد الحاكمة، ولا تكونوا اليد المحكومة، فإن كنتم فوق كنتم اليد العليا.

٢. المقياس الدولي

يشكل هذا الحديث مقياسًا وقسطاسًا لنا لا يخطئ في المناسبات الدولية. فإن كنا يدًا عليا كانت لنا مكانتنا في التوازن الدولي. عند ذلك تجد جماهيرنا الفرصة السانحة للتخلص من استغلال القوى العظمى لها ولثرواتها، وإلا لما تخلصت من وضع الجماهير المهانة والمستغلة. والمنظر العام الذي نراه اليوم في عالمنا هو مصداق ما نقول. فالقوى العظمى تقوم بامتصاص دماء الأمم والشعوب مقابل ما تعطيه لهم من دراهم معدودة غايتها الدعاية، تسترجع فيما بعد أضعاف أضعافها. ونحن الآن نعيش ذلة كوننا "اليد السفلى"، لذا، فواجبنا الآن هو السعي على المستويين الفردي والجماعي لتحقيق ما ينتظره العالم الإسلامي بل الإنسانية كلها منا.

هذه المعاني -ومعانٍ أخرى قد لا نعلمها- موجودة في هذا الحديث الوجيز والبليغ لرسولنا ﷺ.

لـــ. زمر ثلاث لا تُزَكّى

يقول رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلِّمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم: الْمُسْبِل إزارَه، والمنّان الذي لا يعطي شيئًا إلا مَنَّه، والمنفِق سِلْعته بالحَلِف الكاذب.»[٢]

---

[١] البخاري، الزكاة ٨؛ مسلم، الزكاة ٦٣-٦٤.

[٢] مسلم، الإيمان ١٧١-١٧٤؛ الترمذي، البيوع ٥؛ النسائي، الزكاة ٦٩؛ أبو داود، اللباس ٢٥؛ المسند للإمام أحمد، ١٦٢/٥، ١٦٨.

كلمة "ثلاثة" ذكرت مطلقة، أي قد تعني ثلاثة رجال أو ثلاث نساء أو ثلاث جماعات، وقد يكون هؤلاء الرجال علماء أو جهلاء. لأن هوية هؤلاء الأشخاص ليست مهمة بل أوصافهم هي الأهم، لذا أطلقت هذه الكلمة ولم تقيد. و"ثلاثة" هنا كلمة نكرة، والتنوين في آخرها يفيد النكور أي أن هولاء الأشخاص مجهولون وغير معروفين ولا يملكون هوية يُعرَفون بها، لذا فهم وضيعون ومحتقرون إلى درجة لا يستحقون إعطاء أي قيمة أو منزلة لهم. فكما لا ينظر الله إلى وجوههم ولا يكلمهم، كذلك لن تجدوا أنتم فيهم قيمة أو فضلاً لكي تتعرفوا عليهم وتتحدثوا معهم. هؤلاء لم يسقطوا بأجسادهم بل سقطوا وهزموا بأرواحهم وقلوبهم. فانسحق وجدانهم تحت ثقل أجسادهم فلا يملكون أي استعداد للارتقاء، فهم يتدحرجون إلى الدركات السفلى.

وبعد كلمة "ثلاثة" هذه تأتي ثلاثة أفعال تشير إلى المستقبل وترسم أمام الأنظار لوحة قاتمة لهذه الزمر الثلاث.

١. محروميات ثلاث:

أ. المحرومية من التكلم

الفعل الأول هو الفعل المضارع الموجود في بداية جملة "لا يكلمهم الله". والفعل المضارع كما يدل على المستقبل فإنه يدل على الحال. والمصيبة تبدأ بخبر أن الله تعالى لن يكلم هذا الإنسان الذي أعطاه ومنحه قابلية الكلام، ولن يخاطبه. هذه هي المصيبة الكبرى التي تبدأ بالجملة الأولى. ومع أن الله تعالى يَمُنّ على الإنسان في سورة الرحمن بتعليمه البيان ويُعدّ ذلك من نعمه، إلا أنه لا يكلم مثل هذا الإنسان، مع أن تكلم الإنسان وتحدثه دليل على صفة الكلام عند الباري ﷻ. ولكن هذا الإنسان هبط إلى مستوى لا يقبل فيه الله تعالى التوجه إليه بالخطاب، ولا يعطيه هذا الشرف. أهناك عذاب أكبر من عذاب الإنسان الذي يمنع من الكلام والذي لا يُستمع إليه في يومٍ هو فيه في أشد الحاجة إلى الكلام وفي أشد الحاجة إلى شرح حاله والدفاع عن نفسه..؟ إنه يطلب النجدة والغوث... ويتقلب ألمًا وهو يبحث عمن يشرح له حاله... غير أن الواحد الأحد الذي يستطيع أن ينجده ويغيثه لا يستمع إليه أبدًا. وعندما يشرح القران الكريم هذا المنظر يقول ﴿قَالَ اخْسَؤُا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ (المؤمنون:١٠٨). ذلك لأن الدنيا كانت هي محل وموضع كلامكم... كنتم تستطيعون التكلم هناك والوصول إلى الأنس بالله... لم تأنسوا بالله في الدنيا، واليوم لا يكون هو أنيسكم.

ب. المحرومية من النظر الإلهي

المنظر الثاني أو اللوحة الثانية هي لوحة "ولا ينظر إليهم" إذ لا ينظر الله تعالى إليهم نظرة الرحمة في ذلك اليوم الذي هم فيه في أشد الحاجة إلى نظرة عطف ورحمة. وبينما تشرق بعض الوجوه النضرة فرحًا وبشاشة، تعبس بعض الوجوه وتقتم، وهذه هي الوجوه التي لا ينظر الله تعالى إليها يوم القيامة. ويوم يُدعى كل إنسان باسمه ويصل كل إنسان إلى بَرّ النجاة... في هذا اليوم ما أتعس حال هؤلاء الذين لا يُنظر إليهم. إن الجلود لتقشعر من هول هذا المصير المفجع. لقد علمنا مدى الألم الفظيع لهذا الأمر من حادثة كعب بن مالك عندما قاطعه النبي ﷺ والمؤمنون لمدة قصيرة نوعًا ما، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم،[1] أما هؤلاء فسيستحقون هذا العقاب إلى أبد الآبدين... رُحْماك يارب! إن هذا لأفظع من عذاب جهنم... فما أفظع عاقبة من لا ينظر إليه الرب الرحيم ولو نظرة واحدة، وما أشد عذابه!

ماذا نستطيع أن نقول..؟ لا نستطيع إلا أن نقول بأن الإنسان سيجني ما زرعه، وسيلقى ما عمله... إن خيرًا فخير... وإن شرًّا فشر.

ج. المحرومية من التزكية

الوضع الثالث أو المحرومية الثالثة هي "ولا يزكيهم". عملية تزكية الإنسان، أي عملية تنظيفه وتطهيره من الذنوب تكون في الدنيا، لأن على الإنسان أن يذهب الى الآخرة وهو نظيف طاهر، أما في الآخرة فلا ينظف الإنسانَ سوى جهنم... لذا، فإن الله تعالى لا يزكيهم أيضًا.

إن للإنسان فرصة امتحان واحدة. فرصة واحدة يستطيع أن ينتهزها وينجح فيها نجاحًا باهرًا. من استغل هذه الفرصة جيدًا ربح وكسب، ومن أهملها خاب وخسر، فليس هناك احتمال ثالث.

إن الإنسان المسكين الذي تلوّث وتقرّح قلبه ووجدانه وروحه ومشاعره وجميع اللطائف الربانية الممنوحة له مثل تقرّح جسد النبي أيوب عليه السلام... هذا الإنسان المسكين سينظر إلى حاله يوم القيامة ويسائل نفسه: أأستطيع أن أطهر نفسي..؟ قد تبرق له بارقة أمل، غير أن الله تعالى لن يطهر هذه الزمر الثلاث.[2]

---

[1] البخاري، المغازي ٧٩، تفسير سورة (٩) ١٤، ١٩؛ مسلم، التوبة، ٩.

[2] انظر: اللمعات لبديع الزمان سعيد النورسي، ص١٠.

٢. العاقبة: عذاب أليم

والعاقبة هي «ولهم عذاب أليم...» فما أن يخطو هؤلاء خطوة واحدة حتى يجدوا العذاب الأليم أمامهم... عذاب يحرق النفس ويسري إلى جميع أوصال الإنسان، فلا يلبثوا أن يجدوا أنفسهم وقد انحدروا إلى هوة وادي العذاب. من هؤلاء الذين تنتظرهم مثل هذه العاقبة المرعبة؟ من هؤلاء الذين لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم؟ ومن هؤلاء الذين أعد لهم هذا العذاب الأليم؟ سيبلغ الفضول مداه لدى قارئ هذا الجزء من الحديث، وسينقلب كيانه كله ويتحول إلى كتلة من الاهتمام ليرى من هم هؤلاء الزمر الثلاث.

يستمر الرسول ﷺ في حديثه فيقول: "المسبِل إزارَه" وهذا كناية عن الغرور والكبرياء. لقد رأيتم ولا شك صور الرومانيين واليونانيين وهم يجرون أرديتهم وأثوابهم. ويمكن مشاهدة هذا بشكل أوضح في الأفلام المتعلقة بهؤلاء القوم. غير أن المهم هنا ليس في إسبال الإزار، بل جعل هذا الشيء رمزًا للغرور والكبرياء، فهذا هو القصد من الحديث.

٣. الغرور والكبرياء

تناولت العديد من الآيات والأحاديث الغرور والكبرياء وشرحت كيف أنهما من الأمراض السيئة التي تؤدي إلى عواقب وخيمة. فمن أحاديث الرسول ﷺ في هذا الخصوص قوله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر.»[1] ذلك لأن الله تعالى قد سد طرق الهداية أمام من كان في قلبه ذرة من الكبر والغرور إذ قال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ اٰيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ اٰيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِاٰيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف:١٤٦).

الكبر ستار يعمي العيون، والقلب الذي داخله الكبر لا يستطيع رؤية المعجزات التي يحفل بها الكون، ولا يدركها ولا يستطيع فهمها، ذلك لأنه عندما تعمى البصيرة فإن البصر الذي يأتي بمعنى الإدراك لا ينفع أبدًا.

العظمة والكبرياء لله وحده. وهذه الحقيقة التي تتكرر خمس مرات فوق كل مئذنة في كل يوم كيف يمكن نسبتها إلى أحد آخر؟ يقول الله تعالى في حديث قدسي: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار.»[2]

---

[1] مسلم، الإيمان ١٤٩؛ الترمذي، البر والصلة ٦١؛ أبو داود، اللباس ٢٦؛ ابن ماجه، الزهد ١٦.

[2] مسلم، البر والصلة ١٣٦؛ أبو داود، اللباس ٢٦؛ ابن ماجه، الزهد ١٦.

والكبر والكبرياء والعظمة صفة من صفات الله تعالى. فما يعنيه اللباس والرداء بالنسبة للإنسان يعنيه الكبر والكبرياء والعظمة لله، ولكن بصفة وكيفية لا نستطيع إدراكها. فالذي يريد مشاركة الله تعالى في واحدة من هاتين الصفتين وبخه الله وقذفه في جهنم. فالقلب المتكبر لا يجد الإيمانُ إليه سبيلا، وبتعبير آخر فإن القلب المشغول بغير الله لا يستطيع الإيمانُ أن يتربع فيه. فهذا هو وضع الشخص المتكبر المغرور، والحديث يصف مثل هذا الشخص بأنه الذي يجر ثوبه خيلاء.

٤. المنّان

الزمرة الثانية أو النوع الثانى من الناس هو "المنان". هذا الشخص أعطاه الله تعالى مالاً وملكًا لكي يستفيد من نعمه وينفق أيضًا على الآخرين فيجازيه الله تعالى مقابل هذا الإنفاق ألف ضعف. غير أن هذا الشخص غافل عن هذا الأمر... غافل ولاهٍ... وإذا أنفق مرة فإنه يبطل هذا الإنفاق لقيامه بالمنّ على من أنفق عليه، وما علم أن هذا المال الذي أنفقه ملكٌ لله تعالى وهو عبد له. فكان من المفروض عليه القيام بإنفاق مال الله تعالى ولكننا نراه ينحرف إلى طريق المن وكأن المال ماله. فما أعظم هذه الغفلة وما أفظع هذا السقوط !

لقد أعطاه الله تعالى مالاً وملكا، وجعل للآخرين حقًّا في هذا المال. فإذا به يبخل فلا يعطي، وإذا أعطى منّ على الناس بما أعطاه. وقد كان خيرًا له أن يقول معروفًا وكلامًا طيبًا بدلاً من القيام بإنفاق أو صدقة يتبعها بالأذى، والقرآن الكريم يقول ﴿قَولٌ مَعرُوفٌ وَمَغفِرَةٌ خَيرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ (البقرة:٢٦٣). والمنّان بخيل في الوقت نفسه، والبخل يبعد الإنسان عن الله وعن الجنة وعن الناس الآخرين ويقربه من جهنم. يقول الرسول ﷺ في حق البخيل: «البخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار.»[1]

٥. الجزاء من جنس العمل

في هذا الحديث قاعدة من قواعد البلاغة، وهي قاعدة "اللفّ والنشر المرتّب"، ويستفاد منها ما يلي:

إن قوله "ولا ينظر إليهم" يقابل قوله "المنان"، وقوله "ولا يكلمهم" يقابل "المسبل إزاره"، وقوله "ولايزكيهم" يقابل "المنفق سلعته بالحلف الكاذب". ومن خلال تلك المقابلة نستطيع أن نستخرج النكتة التالية:

إن هذا المنان الذي لم ينظر إلى الناس نظرة رحمة في الدنيا ولم يهتم بهم، بل إنه كان

---

[1] الترمذي، البر ٤٠.

يمن عليهم بعطائه إن أعطاهم شيئًا، ومن ثم أبطل حسنته بهذا المن سيلقى في الآخرة جزاء من جنس عمله، وسيعامله الله تعالى بنفس هذه المعاملة فلن ينظر إليه.

وذلك الذي يختال في مشيته ويجر إزاره المسبل بغرور ولا يكلم الناس إلا من طرف أنفه، عليه أن يعلم أن الله تعالى لن يكلمه يوم القيامة. ومن ثم فليمسك عن هذا السير وعن المضي في هذا السبيل الخطر الذي يفضي به إلى تلك العقوبة المرعبة.

ثم هذا الذي تعود أن يروّج سلعته بالحلف الكاذب لكي يجر من ورائها منافع دنيوية أو يصرّف بضاعته مستهينا بهذا الحلف فإنه ينساق إلى عاقبة وخيمة حيث يتحقق في حقه وعيد "ولا يزكيهم". والرسول ﷺ رسم له هذه اللوحة بقوله "والمنفق سلعته بالحلف الكاذب". فهو يكذب في حياته التجارية لكي يربح ويجر نفعا دنيويًا، وهو يرى بذلك أنه يستطيع غش الناس وخداعهم بالحلف الكاذب، فهؤلاء هم الزمر الثالثة المستحقة للعذاب.

فلننظر إلى جوامع كلم رسول الله ﷺ. نعم، فهذا القول دِيْن في أعناقنا عند قراءة كل حديث، لأن كل عبارة من عباراته تشير إلى أنه رسول الله حقا وصدقا، اللّهم صل على سيدنا محمد بعدد أوراق الأشجار وأمواج البحار وقطرات الأمطار وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

م . العفة وبلاء الألسنة

في حديث صحيح يرويه الإمام البخاري والترمذي وأحمد يقول رسول الله ﷺ. «من يضمَن لي ما بين لَحْيَيْه[1] وما بين رجليه أضمن له الجنة.»[2] إن القائل هذا هو رسول الله ﷺ الذي يعرف معرفة أكيدة وأكثر من أي شخص ما يَضمن وما لا يضمن. فإن قال إنه يضمن الجنة كان هذا ضمانًا أكيدًا. ومما يدل على ذلك ما جاء في رواية للبخاري عن امرأة عثمان بن مظعون عندما وقفت ترثي زوجها فقالت: رحمة الله عليك أبا السائب. فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال النبي ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقالت: بأبي أنت يا رسول الله فمن يكرمه الله؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير. والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» قالت: فوالله لا أزكي أحدًا بعده أبدًا.[3]

إذن، فعندما يضمن رسول الله ﷺ الجنة لمن يضمن ما بين لحييه وما بين رجليه فإنه لم

---

[1] لحييه: فكيه، أو منبت لحيته. (المترجم)

[2] البخاري، الرقاق ٢٣، الحدود ١٩؛ الترمذي، الزهد ٦١؛ المسند للإمام أحمد، ٣٣٣/٥.

[3] البخاري، الجنائز ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٤٣٦/٦.

يضمن هذا عن هوى في نفسه، بل لا بد أن يكون هذا إخبارًا من الله تعالى في هذا الموضوع، وأنه لم ينطق بذلك أبدًا عن هوى، ولم يُنطقه الله تعالى حسب هوى نفسه بل صانه عن مثل هذا الأمر. إذن، فما قاله كان على الدوام حقا وحقيقة، ويتحقق ما قاله عندما يأتي أوانه دون ريب. فإن حفظت لسانك وحفظت ما بين رجليك وعشت عفيفًا فإنني أقول لك دون أي تردد بأن الزبانية إن ألقت القبض عليك يوم القيامة وأرادت سوقك إلى جهنم فإنك تستطيع أن تصرخ بكل ما أُوتيتُ من قوة بأن رسول الله كفيلك وضامنك، فلا تلبث أن تأتيك شفاعة رسول الله وتنجدك.

١. الكلام نعمة

لسان الإنسان عضو مهم، وله قيمة كبيرة لأنه مظهر لنعمة البيان، ولكن إن استعمل هذا العضو المبارك في السوء انقلب إلى أكثر الأعضاء ضررًا وفسادًا وجرّ صاحبه إلى الهلاك. بهذا اللسان نفسه يسبح الإنسان ربه، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتلو القرآن الكريم الترجمان الأزلي لكتاب الكون ويفسره للآخرين، ويقوم به أحيانًا بهداية الملحدين إلى الإيمان فيكون قد حقق عملا أفضل من كل ما طلعت عليه الشمس وغربت، فيسمو بمثل هذا إلى أعلى عليين.

ولكن هذا الفم نفسه قد يُودِي بالإنسان إلى الهلاك أيضًا. فاللسان هو السبيل إلى جميع أنواع الكفر والضلالة. فالذين يشتمون الله ورسوله يفعلون هذا الشيء القبيح المقزز للنفس بألسنتهم، كما أن الكذب والغيبة والافتراء تكون باللسان فيسقط الإنسان إلى هوة الكذب التي سقط فيها مسيلمة الكذاب.

إذن، فرسول الله ﷺ يقول كلمة واحدة ويشير بالتحذير إلى عضو واحد فيطوي في كلمته هذه المعاني التي ذكرناها باختصار ومئات المعاني الأخرى. فكأنه يقول لنا استعملوا أفواهكم في سبيل الخير لكي أضمن دخولكم الجنة. ولا يقول لنا سُدّوا أفواهكم واقعدوا في زاوية، بل استعملوها في مجال الخير والمعروف.

٢. أدب الحديث

لا يصرّح الرسول ﷺ بذكر العورة بل يكني عنها بقوله "ما بين رجليه"؛ وهذا مظهر من مظاهر أدبه الرفيع. فقد كان دأبه هذا الأدب السامي والرفيع الخاص به حتى وهو يحدثنا عن أمور طبيعية وفطرية بل إنه عندما يتناول مواضيع غير محببة إلى النفس يصورها بصورة تبدو كلوحات محببة. لقد كانت نفسه مرآة لكل الأخلاق الرفيعة والسجايا السامية والجمال

الدائم. فانظر مثلا إليه يتحدث عن عضو يخجل الناس من ذكره فيلمح إليه رسول الله ﷺ بأسلوبه الجميل فيقول: "ما بين رجليه"؛ نعم إن أثر الجميل جميل كذلك.

٣. ما بين رجليه

ما بين الرجلين مهم جدًّا. إذ كان وسيلة لخروج آدم من الجنة بعدما ذاق الفاكهة المحرمة. ولأن شرح وتحليل الآيات حول إخراج آدم من الجنة خارج موضوعنا فإننا لن نتناوله هنا، إلا أننا سنكتفي هنا بإشارة موجزة إلى أهمية "ما بين الرجلين"، فبه بقاء النسل وحفظ النسب، كما يؤدي الزنا والفحش إلى خراب النسل، وذلك بسبب اختلاط الأنساب عند سوء استعماله وانهدام كل الأمور التي يجب على النظم القانونية حمايتها.

مَن أبُ مَن؟ من يترك ميراثه لمن؟ من يطالب بحقه مِن مَن؟ كيف يمكن صيانة العائلة والأمة؟ كل هذه الأسئلة وأشباهها مرتبطة بعفةِ ما بين الرجلين. فبينما يتمكن الأفراد العفيفون والمجتمعات المتكونة منهم من الحفاظ على بنيتهم الداخلية حتى يوم القيامة، لا يستطيع الأفراد الساقطون في مستنقع الزنا والفحش ولا المجتمعات المتكونة منهم من إبقاء وجودهم أكثر من نسل واحد.

وكما في المواضيع الأخرى فإن دائرة الحلال هنا أيضًا دائرة واسعة تكفي للنفس فلا حاجة للتوجه نحو الحرام إذ يمكن إشباع تلك الرغبة الموجودة في الإنسان بأفضل شكل في دائرة الحلال، لذلك يقول الرسول ﷺ: «تناكحوا تكثُروا فإني أباهي بكم الأمم.»[١]

فالرسول ﷺ سوف يباهي بأمته الأمم الأخرى، وستكثر أمته إلى درجة أن الأمم الأخرى ستبقى بجانبها شيئًا لا يذكر. وتكاثر أمته بهذه النسبة يرجع إلى ما بين الرجلين. فالذين لهم أنساب والذين لا يملكون أنسابًا سيظهرون عن هذا الطريق، إذن، فما بين الرجلين منبت خصب يؤدي إلى هذين الضدين.

والإنسان الذي يفتش عن الطريق الحلال في هذا الموضوع يكتسب ثواب القيام بالواجب. وعندما شرح النبي ﷺ هذا الأمر لأصحابه تعجبوا واندهشوا: كيف يمكن هذا؟ فتبسم النبي ﷺ وقال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر.»[٢] ذلك لأن ترك الحرام واجب، إذن، فمباشرة المرأة عن طريق الحلال يكسب الإنسان ثواب القيام بالواجب.

---

[١] فيض القدير للمناوي، ٢٦٩/٣؛ كنز العمال للهندي، ٢٧٦/١٦.

[٢] مسلم، الزكاة ٥٣؛ المسند للإمام أحمد، ١٦٧/٥، ١٦٨.

وهذا موضوع قد يستحي من ذكره بعضهم مع أنه طريق ولجه حتى الأنبياء، فلو حُرِم آدم عليه السلام من هذه الرغبة فكيف إذن، كان سيأتي فخر الكائنات سيدنا محمد ﷺ إلى الوجود. إذن، فإن الغاية الأصيلة من تلك الفاكهة المحرمة هي مجيء النبي ﷺ. وقد سمعتُ من أحد وُعَّاظِنا المتحمسين يقول: "لو علم آدم عليه السلام العلاقة الموجودة بين مدّ يده إلى تلك الفاكهة المحرمة ومجيء محمد ﷺ إلى الدنيا، لم يكتف بمد يده بل قلع تلك الشجرة بجذورها."

٤. الولاية العمودية

أرجو أن أسترعي انتباهكم هنا إلى موضوع مهم جدا، فالرسول كما ذكرنا قد ضمن الجنة لمن ضمن ما بين لحييه وما بين رجليه. ونحن نعرف قدر الذين بشرهم الرسول ﷺ بالجنة، إذن، فهناك خارج هؤلاء أشخاص استطاعوا الوصول إلى الجنة بما حصلوا من مقام وقرب. وحصولهم على هذا يعني أن ضمان ما بين اللحيين وما بين الرجلين أمر صعب وغير سهل، ذلك لأن الشهوة عندما تسيطر على الجسم كله وتأخذ بزمام النفس وتهز الروح وتحل الإرادة وتضعفها، عندها تكون نفس المرء مفتوحة لكل أنواع السوء. في مثل هذه اللحظة تكون السيطرة على النفس من أجل مخافة الله وفي سبيله مهمة جدا، إلى درجة أنها تكون وسيلة إلى السمو العمودي للإنسان. والذي يوفق إلى هذا يستحق دون شك ضمان رسول الله ﷺ له دخول الجنة.

أجل، إنني أقول بإصرار بأن من يستطيع لجم فوران نفسه وهيجانها وضبطها ومنعها من الولوج إلى الآثام ومقاومتها على الدوام بصبر لا ينفد.. مثل هذا الشخص قد يحصل في لحظة واحدة على فيوضات لا يحصل عليها شخص قضى سنوات من عمره في تكية، أو شخص يصلي كل ليلة مئات الركعات... يحصل على هذه الفيوضات وعلى رتبة عالية قد تصل إلى رتبة الولاية... ولا يذهبن بأحد الظن بأننا نهوِّن من شأن صلاة النوافل أو من صوم النوافل... فهذه النوافل وسائل مهمة في التقرب إلى الله وستبقى كذلك، إنما نريد التذكير بوسيلة أخرى تساعد على ارتفاع الإنسان نحو الكمالات.

لنفرض أن الله تعالى أودع فينا قوة خمسة أو عشرة أشخاص وجهَّزَنا بكل ما يلزم الإنسانَ للوصول إلى أوج الكمال الإنساني، ولكنه صاننا أيضًا من كل ما يؤدي إلى الإثم... ولكن المهم هنا هو قدرة الشخص على المحافظة على نفسه مع وجود الدوافع إلى الإثم في فطرته. أجل، فالمَثَل يقول "بحسب المغرم المغنم"، أي على حسب المشاق يكون الأجر والغنيمة. وكذلك بحسب المخاطر يكون العلو والسمو. فكلما زاد جو الخطر الذي

تعمل فيه، وكلما تحملت مسؤولية في مجالات الخطر كلما زادت مكافأتك. لنوضح أكثر:

إن الله تعالى وضع مثلا بعض الصفات المضرة في فطرتك كالغضب والحقد والنفور والشهوة.. الخ، ولكن إن لم تستطع أيٌّ من هذه الصفات المضرة أن تتحكم فيك في أيّ وقت، بل على العكس من ذلك كنتَ قادرًا دومًا على التحكم فيها بإرادتك القوية، وعشت رجل إرادة وروح مؤدياً الفروض والسنن متبعًا طريق القلب والروح دون أن تتصيَّدك المظاهر البراقة الجذابة الداعية إلى طريق جهنم، كما استطعتَ تحمُّل مصاعب سلوك طريق الجنة، إذا بك تَرى نفسك وقد حشرت مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين. وأنا أعتقد بأن هذا هو السر في نظرة العطف لرسول الله ﷺ لهذه الجماعة المسلمة التي تمثل حركة البعث الإسلامي الجديد التي تعتصم بالإسلام وتتمسك به في مثل هذا العصر العاصف بالفتن والذي أصبحت فيه الأسواق والشوارع والميادين وكل المظاهر الاجتماعية الأخرى تموج بالفتن وتبتلع الإنسان وتذيبه في جوفها. لذا، فإن الشخص الذي يصر على أسنانه ويرفض أن يذوب في مثل هذا المجتمع ويحافظ على كيانه وعلى هويته يستحق أن يكون في معية الصحابة يوم القيامة. والصحابة هم رفقاء النبي ﷺ وأصدقاؤه، أما هؤلاء فإخوته، ذلك لأن النبي ﷺ قد اشتاق إلى هؤلاء الناس المؤمنين به والذين سيأتون بعده بعدة عصور وأرسل لهم سلامه وتحياته وأشواقه.[1]

أجل، فرسول الله ﷺ يخاطب إنسان جميع العصور ولاسيما إنسان هذا العصر ويقول لهم «من يضمَن لي ما بين لَحْيَيْه وما بين رجليه أضمن له الجنة»، وهذا القول موجه إلى الأشخاص المشتاقين إلى الجنة والمشتاقين إلى لقاء رسول الله ﷺ أشد الشوق. وسيقوم هؤلاء -بإذن الله- بالتصرف بشكل ملائم وموافق لبشارة الرسول ﷺ وينجحوا فى هذا الأمر إن شاء الله.

وهكذا يشرح رسول الله ﷺ الطرق الموصلة إلى الجنة بأوجز وأبلغ عبارة ويرسم لوحة للفرد المثالي وللمجتمع المثالي. وإن حَشْد كل هذه الحقيقة الكبيرة في مثل هذه العبارة الوجيزة لا يمكن إيضاحه إلا بكونه ﷺ صاحب فطنة كبيرة. أجل، فهو سلطان الكلام، وكلامه كله من جوامع الكلم.

وفي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات.» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخُطا إلى

---

[1] مسلم، الطهارة ٣٩؛ النسائي، الطهارة ١١٠؛ ابن ماجه، الزهد ٣٦؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٣٠٠.

المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط.»[١]

لنقف ونمعن النظر في عقد لآليء هذا الحديث حسب قدرتنا. فالرسول ﷺ يبين الطرق التي تنقذ الإنسان من الأخطاء التي تؤدي به إلى أودية جهنم.

يقوم الرسول ﷺ بتنبيه مستمعيه من بدء كلامه باستعمال كلمة "ألا"؛ لأن الأمور التي سترِد في الحديث أمور تستوجب الانتباه. إذ أن تنفيذها يتطلب الانتباه واليقظة. فهناك تصرفات يستطيع الإنسان إتيانها حتى وهو نائم؛ فمثلاً يتجنب الإنسان الوقوع في إثم الزنى أو في إثم الغيبة لكونه نائمًا. ولكن التصرفات التي نحن بصددها الآن أعمال تتطلب اليقظة، ولا يستطيع إتيانها إلا المتيقظون. لذا، تم إيراد كلمة "ألا" في بداية الحديث.

وكلمة "الخطايا" تجلب انتباه المستمعين؛ لأن كل إنسان يخطئ، ومن يزعم أنه لا يخطئ فهو من أكبر المخطئين؛ فالعصمة وعدم الوقوع في الخطأ من صفات الأنبياء والنبي ﷺ يقول في حديثه: «كل بني آدم خطّاءٌ، وخير الخطائين التوابون.»[٢] ولكن رسول الله ﷺ يريد أن يرشد الإنسان إلى حلول للخلاص من الأخطاء التي ستسوقه إلى أودية جهنم.

إن الخلاص من الأخطاء فحسب لا يكفي؛ لأن على الإنسان أن يرقى ويسمو درجات وأن يقطع بعض الأشواط في سبيل ذلك. إلا أننا يمكن أن نقول إن محو خطايا الإنسان يعد بذاته ارتفاعا؛ فإذا ما قام ببعض أعماله الأخرى قد يصل إلى شواهق أخرى. وهكذا فبهذه الأعمال الإيجابية يتقدم إلى الأمام على الدوام، وأنا أعتقد أن هذا هو معنى السير في درجات المعرفة الإلهية. وإن أول هذه الأعمال هو إسباغ الوضوء على المكاره وضوءً تام الأركان والسنن دون عيوب أو قصور.. الوضوء في البرد وفي الشتاء وفي الثلج، وفي ظروف يبدو أن الوضوء فيها غير ممكن. والثاني قضاء العمر في طريق المسجد.. مثل هذا العمر يكون مثل بذرة تتحول في الآخرة إلى شجرة باسقة ضخمة تعطي ثمار الجنة.. إذن، فهذا هو العمل الثاني: التوجه إلى المساجد البعيدة وعدم الانقطاع عن المساجد.

١- الهدف: الصلاة

والعمل الثالث هو انتظار الصلاة القادمة في شوق بعد الانتهاء من الصلاة، وهذا -كما جاء في حديث آخر- يعنى تعلق القلب بالمسجد.[٣] الصلاة هي راحة الروح ونزهة القلب.

---

[١] مسلم، الطهارة ٤١؛ الترمذي، الطهارة ٣٩.

[٢] الترمذي، القيامة ٤٩؛ ابن ماجه، الزهد ٣٠؛ الدارمي، الرقاق ١٨؛ المسند للإمام أحمد، ١٩٨/٣.

[٣] البخاري، الأذان، ٣٦؛ مسلم، الزكاة ٩١؛ الترمذي، الزهد ٥٣.

إن لكل إنسان رغبة شديدة في شيء ما، أما رغبة الرسول ﷺ الشديدة فقد كانت في الصلاة.[١] لذا، كان يقول لبلال: «يا بلال! أرحنا بالصلاة.»[٢] ويشير إلى هذا بقوله: «وجُعل قُرّة عيني في الصلاة.»[٣] وأنا أظن بأن الشوق الذي سيغمرنا ونحن ندخل الجنة هو الشوق الذي كان يحسه الرسول ﷺ في كل مرة وهو يقوم للصلاة، لذا فإنه كان بعد كل صلاة ينتظر الصلاة الأخرى بكل شوق.

مع أن هذا الحديث يتناول أمورا ثلاثة، إلا أننا إن دققنا النظر نجد أن جميعها تدور حول محور واحد هو الصلاة؛ فالصلاة عامل مهم في حياة الإنسان، وهي معراج المؤمن، وهذه الصلاة التي تمتد وتسمو إلى مدارج المعارف أفضل منبّه للإنسان للحقائق الإنسانية. الصلاة عماد الدين،[٤] وهي التي تقود سفينة الدين؛ ولولا وجودها لما استطاع الدين البقاء طويلاً. وبما أن الصلاة عملية تنبيه، لذا، يجب أداؤها بحيث تؤدي وظيفة التنبيه هذه. فعلى الإنسان أن يصلي وقد أفرغ قلبه من أمور الدنيا ومشاغلها. ولهذا السبب لا تقبل صلاة من يدافعه الأخبثان.[٥] أجل، فعندما يكون عقل الإنسان مشغولاً بمثل هذه الأمور عليه ألا يقوم للصلاة؛ لأن عقل الإنسان يكون آنذاك مشغولاً بشيئين. وفي مثل هذه الأوضاع تضيع أمور كثيرة في معظم الأحيان، كما أن القيام للصلاة بهذه الكيفية يعد إهانة للصلاة. ذلك لأنها ليست من الأمور البسيطة التي يمكن أداؤها كيفما كان. فالصلاة موجودة لكي تقوم بإنارة حياتنا ولا يصح الخروج منها بسرعة وبأي شكل من الأشكال.

٢- التهيؤ للصلاة

من جهة أخرى فإن كل الترتيبات المتخذة لأداء صلاة بحضور قلب تكسب الإنسان الثواب، مثلها في ذلك مثل الصلاة. لذا، يجب على الإنسان أن يطرح عنه جميع مشاغله قبل أن يدخل ساحة العبادة، وأن يدخلها بشعور العبادة وحدها وأن يخلص نفسه من جميع المشاغل والمؤثرات الأخرى. في هذه الحالة يكتسب الإنسان في فترة الاستعداد للصلاة أجرًا وثوابًا، لأن نية هذا الإنسان كانت معقودة لأداء صلاة باطمئنان وحضور قلب، ونية المؤمن خير من عمله.[٦] أليس من العجيب أن الآخرين عندما يذهبون للخلاء يقومون فقط

---

[١] مجمع الزوائد للهيثمي، ٢/٢٧١.

[٢] أبو داود، الأدب ٧٨؛ المسند للإمام أحمد، ٥/٣٦٤، ٣٧١.

[٣] النسائي، عشرة النساء، ١؛ المسند للإمام أحمد، ٣/١٩٩.

[٤] كنز العمال للهندي، ٧/٢٨٤.

[٥] انظر: ابن ماجه، الطهارة ١١٤؛ المسند للإمام أحمد، ٥/٢٥٠.

[٦] مجمع الزوائد للهيثمي، ١/٦١، ١٠٩.

بدفع حاجة طبيعية، بينما المؤمن عندما يذهب إلى الخلاء وهو يتهيأ للوضوء وللصلاة فإنه عندما يدفع حاجته يؤجر على ذلك أيضًا.

والحقيقة أن دفع الحاجة ثم التوضؤ لأداء الصلاة أمور مهمة لتهيئة الإنسان روحيا للصلاة. ومهما قيل في تفسير التهيؤ للصلاة بالوضوء من أن الوضوء يعادل الكهربائية الستاتيكية المتراكمة في الجسم في أثناء غسل ودلك الأعضاء، أو أي تفسير آخر فإن النتيجة لا تتغير. وفي الواقع فإن المؤمن عندما يتوضأ لا يخطر بباله مثل هذه الحكم أو التفاسير. فهو يفكر فقط في السبب الذي يتوضأ من أجله وهو الصلاة. والتهيؤ للوضوء هو التنبيه الأول، أما الوضوء فهو التنبيه الثاني وسماع الأذان هو التنبيه الثالث للصلاة. والحقيقة أنه في أثناء الوضوء، وفى ختامه يسنّ له الشرب من ماء الوضوء وقراءة بعض الأدعية؛ وهذا كله يدفعه إلى عالم ما وراء الطبيعة، فإذا أتبع هذا بصلاة السنة فإنه يكون قد تهيأ تمامًا لصلاة الفرض.

أجل، كل شيء فى جو الصلاة يذكرنا بالصلاة بدءً من الأذان المرتفع من فوق المآذن الذي يمس قلوبنا ويذكرنا بعظمة الله.. فنقوم ونسرع إلى المسجد تلبية لنداء الأذان، وعندما تنتهي آخر كلمة في الأذان نحس وكأن قلوبنا وأرواحنا قد ذابت معها، ثم نذهب إلى المسجد ونصلي النافلة، وهي بمثابة فتح أبواب صلاة الفرض.. ذلك لأننا نتوجه إلى الله في صلاة النافلة وكأن كل فرد منا يقول لله تعالى: يا رب!. إنني أريد أن أتوجه إليك وحدك.. أن أجد مثيل ما أبحث عنه... أن أراك وأن أسمعك.. وأن أعيش بك وحدك، ذلك لأن النظر إلى ما سواك، ومشاهدة غيرك والانشغال بسواك جهد ضائع وعمل خاسر، بينما أرغب أن أبتعد عن الأمور الفارغة وأتوجه إلى الأمور المهمة المثمرة.

وهكذا فإن صلاة النافلة تكون وسيلة مهمة في الاقتراب من باب الله والتهيؤ لصلاة الفرض بوعي كامل وتركيز كاف. الوضوء يؤدي دوره.. والأذان كذلك.. والخطوة الثالثة التي تؤديها هي صلاة النافلة.. في هذه الأثناء يقوم مؤذن جميل الصوت متوجها إلى الله ويقيم الصلاة.. هنا يكون الانفعال قد بلغ مداه واشتعلت العواطف والتهبت المشاعر. إن لم تلتهب هنا العواطف؛ ولم يتم التوجه الكامل لله تعالى ولم يحن الإنسان إلى محرابه فمعنى ذلك أن هناك نقصًا ما في مكان ما. عندما تتم الإقامة يكون المؤذن قد أنزل الضربة الأخيرة على كل ما يشغل الإنسان عن الله فيدخل العبد إلى الصلاة بقول: "الله أكبر" في مثل هذا الجو وبهذه النية، ويكرر هذا القول وهو يركع وهو يسجد فيعلن في كل ركوع وفي كل

سجود عظمة خالقه: يا رب..! أنت كبير عظيم الشأن وأنا ضعيف عاجز. أي يقف أمامه وقفة العبد المعترف بعبوديته وبضعفه. فيصل إلى لب العبودية وجوهرها.

يصل الإنسان في الصلاة إلى الله.. يصل إلى درجة أنه يوجه التحية إلى الله تعالى مباشرة.. هذه التحية التي وجهها الرسول ﷺ إلى الله تعالى في أثناء المعراج.

٣- محو الخطايا

عندما يذكر الحديث الشريف إزالة الخطايا يقول "يمحو الله". وكلمة "يمحو" تستعمل في إزالة شيء مكتوب. إذن، فالخطأ أو الخطيئة موجودة في الطبيعة البشرية بشكل نواة. والإنسان يستطيع أن يسقي هذه البذرة وينميها إن أراد، أو لا يعطي الفرصة لها لمثل هذا النماء. وعندما يقوم الإنسان باتباع وصايا الرسول ﷺ يمحو الله الخطايا ويحوّل قابلية الشر إلى قابلية خير. والآية الكريمة ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد:٣٩) تشير إلى هذه الحقيقة. فهناك استعداد في الإنسان لمقارفة الخطأ؛ لأن طبيعة فيه لا يمكن فصلها عنه؛ وهذه صفة مهمة في الإنسان، لذا فإن التوجه والاهتمام بتطهير النفس شيء يهم كل إنسان.

يمكن أن يقع كل إنسان في الخطأ، وقد يقضي حياته وهو منحرف عن الطريق القويم، غير أن الفرصة موجودة دائماً أمام الإنسان لكي يصلح هذه الأخطاء ويمحوها، وأن يرتفع في الدرجات العلى للخير. وإحدى الطرق الموجودة لتحقيق هذا هي الوضوء مهما كانت الظروف صعبة، والطريق الثاني هو السعي بشوق إلى المساجد وتعلق قلبه بها، وعقد النية على الرجوع للمسجد وهو يغادره. والطريق الثالث انتظار الصلاة بعد الصلاة.. هذه الطرق تؤدي إلى محو الخطايا من ناحية وإلى رفع الإنسان في مدارج الخير والكمال من ناحير أخرى.

٤- الرباط

وصف رسول الله ﷺ هذه الأعمال بكلمة "الرباط" وكرر هذه الكلمة ثلاث مرات، وكما تطلق كلمة الرباط على كل نوع من أنواع البركة الفياضة المادية منها والمعنوية، فإنها تأتي بمعنى الحذر والانتباه لكل نوع من أنواع البلايا والمصائب، كما تطلق على ارتباط المرء بعمل ما أو نذر نفسه له. لذا، أطلقت كلمة "المرابط" على الجندي الذي يحرس مواضع خطرة ينذر نفسه لمثل هذه الحراسة.

وتشير الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:٢٠٠) إلى هذه المرابطة وتأمر بها. وفي آية أخرى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيلِ﴾ (الأنفال:٦٠) يأتي معنى الرباط من زاوية أخرى. وبما أن

الرباط يأتي بمعنى حصر المرء نفسه لوظيفة ما ونذر نفسه لها، فإن الوظيفة المقصودة في الحديث هي الوضوء والرواح والغدو بين البيت والمسجد، وتعلق قلبه بالمسجد حتى وهو في بيته أو في وظيفته.. فإنْ عمل هذا فمعنى ذلك أنه نذر نفسه لله.

وعبارة رسول ﷺ تفتح هنا باباً في الجناس إذ يقول: إن الرباط في الأصل يطلق على قيام الجنود في نقاط الحدود بنذر أنفسهم للدفاع عن بلدهم ضد الأعداء. فكما أن التهيؤ ضد الأعداء وحشد الحشود لهم في الأماكن التي يخشى دخول الأعداء منها يعد رباطا، كذلك فإن هناك معركة بين الإنسان وبين الشيطان والنفس، أي بينه وبين أعدائه، وتعد هذه المعركة من بعض الوجوه جهادا أكبر من ذلك الجهاد. والإنسان مكلف للقيام بكلا هذين الجهادين، أحدهما هو "الجهاد الأصغر" والآخر هو "الجهاد الأكبر"، وعندما يشتبك الإنسان في معركة مع أعدائه فإنه لا يجد فرصة لكي يفكر في أهواء نفسه، لذا فهناك احتمال ضئيل جدًّا أن ينهزم مثل هذا الشخص أمام نوازع جسده، ذلك لأن نفسه أصبحت مشغولة ومملوءة بفكرة الجهاد. ولكن ما إن يدع نفسه للراحة وللتراخي حتى تبدأ الأهواء بمهاجمة نفسه ويزداد احتمال التفافها حول روحه؛ لذا، فعليه بمراقبة نفسه وصيانتها جيدا، وهذا جهاد أيضا، وأهم سلاح مستعمل في هذا الجهاد هو الصلاة. والجهاد يكون تارة فرض كفاية وتارة فرض عين. وهناك مشابهة بين الجهاد المادي والجهاد الداخلي من ناحية فرضيتهما، لذا قال رسول لله ﷺ وهو راجع من إحدى المعارك: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.»[1]

إن تعلق قلب المرء بالمساجد، أي كونه مشغولاً بالصلاة -أو حسب الفهم النبوي الارتباط بالصلاة ارتباط عشق وشهوة وأن تكون الصلاة قرة عينه- فإن هذا يعادل عمل الفرد المرابط على جبهة القتال. إن أردنا إيراد خلاصة لملاحظاتنا حول هذا الحديث نقول: هناك ثلاثة أعمال يتعلق إثنان منهما بالتصرف ويتعلق الثالث بالنية بحيث تحيط هذه الأعمال بفكر الإنسان وأحاسيسه، لذا فحسب القاعدة الكريمة والمليئة بالبشارة ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٤) فهي تطهر الإنسان من آثامه الماضية وتجهزه بوجد العبادة وبالارتباط بالله تعالى والنية الصالحة لكي يستطيع مواجهة أخطاء المستقبل وذنوبه.

الأول: عندما تكون الظروف الجوية غير مساعدة لوضوء سهل ومريح، كأن يكون الجو باردًا والماء باردا، أو لا يكون متيسرًا بل نادرًا بحيث يصعب استعماله للوضوء -طبعًا إن

[1] كشف الخفاء للعجلوني، ١/٤٢٤.

استثنينا الحالات الضرورية والمتعلقة بالحياة- عند الأشخاص العاديين، عندما يتوضأ الإنسان في مثل هذه الظروف الصعبة فإن هذا يكون مؤشرًا على عمق إخلاص ذلك المرء وشدة ارتباطه بالله، وعلى رغبة عميقة عنده لنيل الثواب وشوق كبير لأداء وظيفة العبودية حتى عند أصعب الظرورف؛ والقاسم المشترك هنا هو الارتباط بالله تعالى. في مثل هذه الظروف عندما تمس بعض الذنوب مثل هذه القلوب فإنها لن تثبت فيها. أما المواضيع الأخرى المتعقلة بالوضوء كقيامه مثلا بتأمين التوازن الكهربائي.. أو مساعدته للإنسان للتغلب على توتره النفسي، أو تجدد الإنسان روحيًا خمس مرات في اليوم فلن نتناولها هنا -مع أننا نسلِّم بها- لأنها خارج موضوعنا.

الثاني: أن الصلاة نوع من المعراج.. وأن التعود على التوجه للمساجد هو توجه لله تعالى وتمرين للبدن ومحافظة على نشاطه وحيويته.. وجيشان الروح جيشانًا يجاوز إدراك العقل، وولوج القلب إلى جو الصلاة قبل الصلاة وتأمينها للتركيز الواجب الوصول إليه قبل المثول بين يدي الله، وسلوك هذا الطريق الذي رمز إليه رسول الله ﷺ بكلمة "كثرة الخطا".. سلوك هذا الطريق والتحول فيه والتغير فيه والتطهر فيه من الذنوب السابقة السوداء بمشاعر الندم الصادقة، وبالبكاء والأنين لكي تصبح صحيفته بيضاء ناصعة، ويدخل في دائرة صلاح يكون فيها الخير وسيلة لخير آخر وهو ضد الدائرة المفرغة. والذي يعزم على السياحة في هذه الدائرة يكون مَظهراً للآية الكريمة التي تمثل الوفاء ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ (الفتح:٢) من ناحية ماضيه، ثم يُدخله إلى حصن حصين بقوله "وما تأخر" من ناحية مستقبله. لذا، فإن الأعين شاخصة دائمًا في كل منزل من منازل هذه السياحة إلى "يمحو الله به الخطايا" وتهفو القلوب إلى "ويرفع به الدرجات"

الثالث: أن انتظار الإنسان أوقات الصلاة بلهفة تَقرُب من لهفة العاشق إلى الوصال، وتنظيم أوقات حياته ونشاطه حسب أوقات الصلاة مفهوم خاص للزمان يستطيع به الإنسان أن يملأ الفراغات الموجودة بين مختلف أوقات أعماله، وينقل الهدوء والاطمئنان والارتباط بالله تعالى الموجود في الصلاة إلى خارج أوقاتها، ويربط كل مشاغله الدنيوية بالله تعالى فيحول كل هذه المشاغل إلى عبادة، فتتحول العبادة المحدودة إلى عبادة غير محدودة فيكون أداء الصلاة بروح الانتظار عنوان ارتباط العبد بربه وبمثابة الجهاد المادي والمعنوي المعبر عنه بكلمة "الرباط".

وهذا الحديث الذي يقدم مقطعًا عميق المعنى من الحياة النيرة للمؤمن، هذا المقطع الذي يتزين بالوضوء ويرتفع في الصلاة إلى السماء... هذا الحديث مثال للحديث الموجز

ذي الدلالات العميقة الشاملة. وبدلاً من إطالة الحديث أود الانتقال إلى بيان نبوي مضيء آخر. وهو في هذه المرة حديث قدسي. والأحاديث القدسية كما هي معروفة من قبل الجميع هي الأحاديث التي تكون معانيها من الله وأسلوبها من قبل الرسول ﷺ ومروية عن الله تعالى من قبل الرسول ﷺ.

س . مفاجآت للعباد الصالحين

يقول الله تعالى في هذا الحديث القدسي الذي يرويه البخاري ومسلم:

«أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عَيْنٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَر.»[1] يتناول الحديث أخبار مفاجأة، إذ يفاجأ الإنسان هناك بمفاجآت لم تخطر على باله وفي أوقات لم يتوقعها. صحيح أن القرآن تحدث عن بعض نعم الجنة. إلا أنها ليست سوى خطوط عريضة وعناوين وإشارات، وإلا فإن من المستحيل فهم حقيقة هذه النعم في الدنيا. يقول ابن عباس في تفسيره لآية ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ (البقرة:٢٥) "لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء" وفي رواية أخرى: "ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء."[2] فعندما تذوقون نعمة هناك ستقولون "إنها تشبه الشيء الفلاني" ولكنها ليست أبدًا ذلك الشيء . ذلك لأن نعم الجنة -مثلها في ذلك مثل الجنة- مخلوقة لكي تكون متلائمة ومتوافقة مع الحياة الأبدية والخالدة. لذا، فإن من السذاجة أن نتوقع هناك رؤية البطيخ أو التفاح... الخ من فواكه هذه الدنيا.

الجنة هي دنيا المفاجآت، تندهش فيها العقول وتحار فيها الأنظار وتنتشي فيها القلوب وتثمل فيها النفوس، حتى يكاد الإنسان يحتار ماذا يفعل أمام كل هذه النعم، لأن الجنة معرض للنعم المتنوعة المتسلسلة والمتعاقبة للحياة الأخروية. ثم إن رؤية جمال الله تعالى -التي لا تعادل فرحتها فرحة آلاف من سنين الجنة- هي من مفآجات الجنة. أي أن المؤمنين بعد دخولهم الجنة سيرون هناك ربهم وإلا فإن الله تعالى منزه عن الزمان وعن المكان حتى ولو كان المكان والزمان مكان الجنة وزمانها. أجل، فقد هُيِّئَت مفاجأة مشاهدة جمال الله تعالى للعباد الصالحين في الجنة.

و"الصالح" معناه الشخص الذي يعمل عملاً لا عيب فيه ولا قصور ولا خلل، أما "الصالحات" فهي الأعمال التي عملت دون عيب أو قصور أو خلل. ولا يمكن تعيين عما

---

[1] البخاري، التوحيد، ٣٥؛ مسلم، الجنة، ٤-٥.

[2] تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٩١/١.

إذا كانت أعمال معينة تعد من الصالحات إلا بقياسها بالقسطاس الإلهي. أي أننا نعلم وحسب المقاييس الإلهية كيف تؤدى الصلاة ويتم الصوم وتؤدى الزكاة ويتم الجهاد وكيف تتم المراقبة والعالم الداخلي للإنسان ويُهَذَّب الضمير وتثار الروح وتقوى الإرادة وتنمى العواطف والمشاعر. إننا نعلم كل هذه الكيفيات بعرض هذه الأعمال على المقياس الإلهي لنستطيع تقييمها. وبهذا الاعتبار يجب على الإنسان تعيير نفسه حسب البيان الإلهي وبالشكل الذي يستطيع به الحصول على مرضاة الله تعالى، فيكون بذلك قد خطا الخطوة الأولى في عمل الصالحات.

أجل، فكما يقوم الموسيقيّ قبل العزف بتعيير آلاته الموسيقية، كذلك يجب عليكم إن أردتم الحصول على مرضاة الله أن تضبطوا أنفسكم حسب القرآن، وإلا لا ينظر إلى وجوهكم. أجل، إن الله تعالى سميع وبصير. يسمع كل صوت ويرى كل شيء، ولكن إن كان صوتكم غير ملائم للمقام الالهي فلن يسمعكم، وتكونوا قد فشلتم في إيصال صوتكم.

والصالحات في معنى آخر، هي الأعمال التي تؤدى بكل عناية وبكل دقة. وذلك بناء على معرفة القائم بهذه الأعمال أن الله تعالى يراقب عمله ويلاحظه. إذن، فعلى الإنسان أن يؤدي كل الأعمال الخيرة التي يقابلها بعناية ودقة. ذلك لأنه لا يعلم أحدٌ أيَّ عمل من أعماله سيكون وسيلة لإنقاذه، لذا نرى رسول الله ﷺ يقول: «اِتق الله ولا تَحْقِرَنّ من المعروف شيئًا.»[1] وفي الحديث القدسي الذي نحن بصدده ترد عبارة "لعبادي الصالحين"، ومن ثم فإن أصحاب الأعمال الصالحة لهم قربتهم من الله تعال التي جعلتهم عبادًا محبوبين من قبله تعالى. وفي حديث قدسي آخر يشرح موقف الذي يحبه الله تعالى: «فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يَسمع به وبصره الذي يُبصِر به ويده التي يبطش بها ورِجْله التي يمشي بها.»[2]

أي إن العبد يكتسب بأعماله الصالحة قربًا من الله تعالى بحيث ينصبغ بصبغته ويصبح الله تعالى هو المحرك له.. أي يصبح كالميت في يد المغسل يحركه كيفما يشاء، فما ألذ هذا الإجبار الذي يتم من قِبل الرب الذي يدفعه إلى طريق الخير. ومثل هذا الشخص يستحيل عليه أن يعرض عن الله، ذلك لأنه أحرز مرتبة كبيرة بحيث يقول الله عنه "لعبادي" أي يصفه

---

[1] مسلم، البر والصلة ٤٣؛ أبو داود، اللباس ٢٥؛ الترمذي، الأطعمة ٣٠؛ وانظر: فيض القدير للمناوي، ١٢١/١؛ كنز العمال للهندي، ٥٧٦/٦.

[2] البخاري، الرقاق ٣٨.

بالعبودية له، فقد وصل إلى درجة المقربين. ومثل هذا الشخص يقول ضارعًا: "خذ بيدي يا رب! خذ بيدي، فإنني لا أستغني عنك."

مثل هذا الشخص يعمل كل ما هو جميل، وفي كل عمل يعمله يبحث عن وسيلة لخلاصه، وبما أنه لا يعلم أي عمل صالح سينقذه، فإنه لا يدع أي عمل خير يفلت من يده، وكل هذه الأعمال ستكون بمثابة صندوق مفاجآت له، وعندما يدخل الجنة يوم القيامة تفتح هذه الصناديق أمامه واحدًا إثر آخر فيرى مفاجآت لم ترها عين ولا تسمع بها أذن.

أحيانًا يكون حتى إرواء كلب سببًا في دخول الجنة[1] وأحيانا يكون حبس قطة حتى الموت سببًا في دخول جهنم.[2] فإذا أخذنا هذه الحقائق بنظر الاعتبار علمنا أن الجنة وما يعطى فيها إنما هي مفاجأة على الدوام. ثم إن الإنسان لا يمكنه إدراك إلا ما يستطيع مشاهدته أو سماعه أو ما يستطيع تصوره. ولكن الإنسان لكونه محدودًا فإن أحاسيسه هذه محدودة أيضا، ومن ثم فإنه لا يستطيع بحواسه المحدودة هذه إلا إدراك الأمور والأشياء المحدودة. أي إنه لا يستطيع إدراك ومعرفة النعم الموجودة في عالم لا نهائي بأحاسيسه القاصرة والمحدودة هذه. يقول الشاعر ضياء باشا:

"لا يمكن لهذا العقل الصغير إدراكُ المعاني العالية

ذلك لأن هذا الميزان لا يستطيع وزن هذا الثقل"

وقد يكون أحد التوجيهات ما يأتي: يضاعف الله تعالى أجر الأعمال الصالحة، فيعطي أحيانًا عشرة أضعاف وأحيانًا مائة أوسبعمائة أو ألفًا أو مائة ألف أو مليونًا وأحيانًا بعدد لا يعد ولا يحصى. وليس هناك من عبد يعرف بالضبط نوعية المكافأة المعطاة له، لذا فإنه عندما يجازى بمكافآت هي أضعاف أضعاف عمله بشكل يفوق التصور يوم القيامة يكون ذلك مفاجأة كبرى لم تخطر بباله قط.

ورسول الله ﷺ يخبرنا بهذه الحقائق العميقة بكلمات قليلة وبشكل فوري ودون تفكير مسبق ودون تهيئة مسبقة وبشكل ارتجالي. هذا الكلام فقط يكفي لإثبات كيف أنه كان صاحب فطنة كبيرة تفوق الإدراك البشري. ولأننا مفتونون بكلامه ﷺ لذا، لا نملك أنفسنا من الإشارة إلى بعض أحاديثه الأخرى.

---

[1] البخاري، الأنبياء ٥٤؛ مسلم، السلام ١٥٣، ١٥٤.

[2] البخاري، المساقاة، ٩؛ مسلم، السلام ١٥١؛ الدارمي، الرقاق ٩٣؛ المسند للإمام أحمد، ٥٠٧/٢.

٤ . الجنة محفوفة بالمكاره، والنار بالشهوات

يقول رسولنا ﷺ في حديث ينقله مسلم والبخاري: «حُفّت الجنة بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات.»[1] جهنم محفوفة بالشهوات وبالأهواء وبالأجواء التي تماشي رغبات النفس، أما الجنة فهي محفوفة -حسب المنطق الظاهري للعقل- بالمكاره وبالصعوبات. والذين يرون كل شيء في المادة ويفسرون كل شيء بالمادة يتوهمون أن الذين يسلكون الطرق الواصلة إلى الجنة لا يتصرفون تصرفًا جيدًا.

والحقيقة أن كلا من الجنة وجهنم تعدان نعمة لنا.. ففي عملية سلوك الطريق تقوم الجنة بتشويقنا لسلوك الطريق المستقيم وتقوم جهنم بتحذيرنا من سلوك الطريق المعوج. فكلما نظرنا إلى الوجه المشرق للجنة اشتقنا للوصول إليها، وكلما تطلعنا إلى الوجه المرعب لجهنم بذلنا جهودنا لمنع أنفسنا من الوقوع في هاويتها فنتشبث بالجنة ونتمسك بها، وهكذا يكون كلاهما رحمة لنا. غير أن الله تعالى عرض علينا الجنة وجهنم كمتاع، وقدمهما في سوق العمل، والإنسان بالإرادة المعطاة له يستطيع أن يختار أحد هذين المتاعين، فمن استعمل إرادته اختار الجنة وكان من السعداء، ومن أراد اختيار جهنم سلك طريقها وكان من الأشقياء.

أجل، إن جهنم محفوفة من كل جوانبها بجو من الشهوات، ويبدو هذا الجو من الخارج في منظر جذاب فيه كل شيء: الطعام والشراب والنوم وكل شهوات النفس وكل ما يشبع رغبات الجسد، وتحيط هذه الشهوات وهذه الرغبات بجهنم إحاطة السوار بالمعصم. والخلاصة أن طريق جهنم طريق كل أنواع الرغبات والشهوات النفسية والجسدية.

أما الجنة فهي لؤلؤة محاطة بصدفة من المكاره.. الوضوء وأداء الصلاة والذهاب إلى الحج وإيتاء الزكاة والجهاد ومواجهة المتاعب والمصاعب في سبيل الله، وأن يعامل الإنسان معاملة الأسير في وطنه، ويجرد من كل حقوقه الإنسانية وينقل من سجن إلى سجن، ويعرض للإيذاء وكل صنوف التعذيب دون أن يكون له ذنب سوى قوله "ربي الله"، ونفيه من وطنه بل حتى تعرضه لحكم الإعدام.. الخ من المكاره والمصاعب التي يتعرض لها، والتي تبدو للعقل الظاهري أمورًا كريهة وصعبة على النفس. أجل، فالمكاره والمصاعب هي التي تحيط بالجنة وتسترها بستارها. والذين ينظرون من الخارج لا يرون إلا هذه الأستار. وطبقا لهذه الأستار فإن جهنم تبدو مدغدغة لشهوات النفس، والجنة تبدو

---

[1] البخاري، الرقاق ٢٨؛ مسلم، الجنة ١.

مفزعة. وهذا هو السبب في أن معظم الناس خدعوا بهذه المظاهر الخارجية لأنهم اكتفوا بمطالعة الوجه الخارجي لهما. لذا، كان طالبو جهنم كُثُرًا وطالبو الجنة قلة.

يركض أكثر الناس وراء الحسابات القصيرة الأمد. فهذا الذي يقول "نعم إن الصلاة شيء جميل، ولكن أداءها خمس مرات في اليوم يبدو لي أمرا صعبا" قد قصر نظره على المشقة القليلة الموجودة في الصلاة. وكما أن صعوبة الوضوء في أيام الشتاء أصبحت سببًا عائقًا أمام البعض، غير أن هذا الوضوء أصبح سببًا لتقريب الجنة إلى الذين تحملوا مشقته القليلة خطوة فخطوة. ويمكن إيراد الشيء نفسه بالنسبة للصوم والزكاة والحج والجهاد ولكن ما أكثر من منعتهم عقولهم من التصرف بعقلانية فتعثروا بهذه العقبات الصغيرة ولم يستطيعوا القفز فوقها فأصبحت المكاره المحيطة بالجنة حائلاً بينهم وبينها.

أما جهنم فتشبه الساحرة الشريرة التي وضعت الشهوات البسيطة مصائد للناس يهرعون إليها وهم لا يعلمون أنها خطر مميت، فهم مثل الذباب الذي يهرع إلى العسل فيكون فيه مهلكه... أجل، فالشهوة عندهم عسل سام. أو يمكن أن نشبه هؤلاء بالفراشات التي تحوم حول النار فتحترق فيها وكذلك يجد هؤلاء أنفسهم في جهنم، عندما يقبلون نحو الشهوات المحيطة بها. ذلك لأنهم لا يرون ما وراء هذه الشهوات التي تشكل ستارًا حول جهنم فيقبلون عليها مستجيبين لدواعي رغبات أجسادهم.[1]

أما الذين تعرفوا على رسول ﷺ في مفترق الطرق وسلكوا في حياتهم طريقهم حسب إرشاده ﷺ والذين تفتحت قلوبهم للحقائق فإنهم لا ينخدعون أبدًا بمظاهر المكاره المحيطة بالطرق الموصلة إلى الجنة بل يعرفون حقيقتها. ذلك لأن الجنة موجودة في قلوبهم بذرة تنمو شيئًا فشيئًا حتى تستولي على عوالم أرواحهم. وبينما يبحث الآخرون عن الجنة في الخارج يسعد هؤلاء بالجنة الموجودة في قلوبهم، بينما لا يستطيع الذين يعيشون جنتهم المادية في الحياة الدنيا أن يعيشوا طوال حياتهم دقيقة واحدة من السعادة التي يشعر بها هؤلاء الذين يضمون الجنة بين جوانح قلوبهم. "الإيمان بَذْرة تحمِل الجنة في داخلها، والكفر بذرة أخرى تحمل جهنم في داخلها. وهاتان البذرتان بعد نموهما تنقلبان في الآخرة إلى جنة وإلى جهنم حقيقيتين؛ لأن المؤمن يعيش حياة الجنة حتى

---

[1] يشرح لنا ﷺ هذا الموضوع بالتشبيه التالي: إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ استَوقَدَ نَاراً فَجَعَلَتِ الدَّوَابّ وَالفِرَاشُ يَقَعنَ فيه، فأنا آخذُ بحُجَزِكمْ وأنتم تقحمون فيه. (البخاري، الرقاق ٢٦؛ مسلم، الفضائل ١٨؛ الترمذي، الأدب ٨٢).

وهو في الدنيا ولكن الشكل الظاهري لحياته يبدو وكأنه محاط بالمكاره والمصاعب."

إن الأرواح التي تخفق شوقًا إلى الجنة عندما تسير في طريق الجنة وتقطع هذه المنازل - هذه المنازل التي تعد كل واحدة منها سعادة خاصة- ستواجه بما تكرهه النفس والجسد - رغم الروح- من أداء العبادات البدنية كالوضوء والصلاة والصوم والحج، والتكاليف الصعبة الأخرى مثل الزكاة والصدقة وغيرهما من الكلف المالية أو الكلف المادية والبدنية كالحج والجهاد.. هذه التكاليف والأعباء قد تجعل طريق الجنة لبعضهم طريقًا يصعب سلوكه. فبعضهم يشق عليه الوضوء والصلاة، وبعضهم يشق عليه الجوع والعطش في الصوم، وبعضهم يؤثر عليه حب المال والنفس، وبعضهم بمجموع بعض هذه الصعوبات أو كلها فلا يصلوا إلى الجنة بكل مباهجها وزينتها وروعتها وهي على بُعد بضع خطوات منهم.

أجل، فكما أن الجنة عالم للسعادة التي لا يستطيع العقل تصورها ولا بلوغها حتى في الأحلام إلا أن طريقها مملوء بالمكاره والمشقات والصعاب والمسؤوليات، وكذلك جهنم هي بئر غائرة وواد مهلك ولكن طريقها مملوء بالشهوات الجسدية والأهواء النفسية والرغبات الدنيوية التي تسترعي إليها الأنظار وتسحر بها الأرواح الضعيفة وتجذب إلى مركزها مثل ثقب أسود كل من يمر بالقرب من ساحتها بقوة عنيفة. ما أكثر من تسحرهم أستار جهنم الكاذبة فيتركون أنفسهم لتهوي في أوديتها، كما تخيفهم المصاعب التي تبدو في أستار الجنة فينكصون على أعقابهم ويخسرون السعادة الأبدية. أجل، فكيف يوجد من يعرف الجنة ولا يشتاق ويسعى إليها، ومن يعرف جهنم ولا يجتهد في الابتعاد عنها، ولكن سر التكليف والإيمان بالغيب والامتحان في الدنيا اقتضى كل ذلك أن تضع الجنة على وجهها قناع الصعوبة والمشقة والمكاره وأن تلبس جهنم فستانًا من الشهوات والرغبات.

ولكن انظر هنا إلهذا السحر وتلك القوة في كلام رسول الله ﷺ الذي وصف محتويات وحقيقة هذين الطريقين الطويلين العظيمين بكل الانشراح والسعادة الموجودة في أحدهما، والمخاطر والمخاوف الموجودة في الآخر بأسلوب راعى فيه منتهى الإيجاز كعادته دائمًا، فاستعمل في شرح هذا الأمر العظيم بضعة كلمات. ولا ننسى هنا أن نستطرد فنقول إننا نشير فقط إلى جواهر من كلام سيد المرسلين ونكتفي بذلك ولا نتعرض إلى النواحي البلاغية ولا إلى قوتها اللغوية، ولو تناولنا هذه النواحي بالتحليل والدراسة لشاهدنا معاني وأمورًا دقيقة أخرى كذلك. ولكن هذا موضوع آخر لا نتعرض له هنا.

ﻫ . حقوق ثلاثة: حق الله، حق الدولة وحق الدين

ينقل الإمام الترمذي الحديث الآتي: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإنْ تَأَمَّر عليكم عَبْدٌ حبشيّ، وإنه من يَعِشْ منكم فسيري اختلافًا كثيرًا فعليكم بِسُنّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضُّوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومُحْدَثات الأمور فإنّ كل بِدْعة ضلالة.»[1]

يتحدث هنا رسول الله ﷺ عن ثلاثة حقوق. أولها التقوى التي هي حق الله، والثاني هو السمع والطاعة وهو حق الذين يديرون الدولة، والثالث هو الارتباط بالسنة، وهو حق الدين. التقوى: كلمة مشتقة من "الوقاية" وتعني من جهةٍ رعايةَ قوانين الشريعة الفطرية والدخول إلى حماية الله تعالى وتأمين الصيانة والحفظ إزاء قوانين الشريعة الفطرية في حال مخالفتها.

ثم إنه من الواجب إطاعة من تختارونه ليحكمكم حتى ولو كان عبدًا حبشيًّا أسود. وهذه ديمقراطية فوق الديمقراطيات؛ وإن البشرية حتى الآن لم تستطع الوصول إليها؛ ومن الواضح أنها ستأخذ وقتًا طويلاً قبل أن تصل، مع أن هذه الديمقراطية دعي إليها قبل أربعة عشر قرنًا. غير أنه ليس من المناسب إطلاق تعبير أو كلمة "الديمقراطية" على النظام الذي أتى به نبي من الأنبياء. ذلك لأنه ما من مفهوم للديمقراطية في الدنيا استطاع الوصول إلى مثل هذا الأفق، إذ لم يتأسس بعد مثل هذا المفهوم أو الفكر في أي أمة من الأمم التي تدعي المدنية. فالسود في أمريكا لا يزالون مواطنين من الدرجة الثانية، وهناك بلدان لا يعدون السود من البشر. بينما أبان الإسلام وقبل عصور عديدة أن الناس إن اختاروا مثل هذا الشخص بملء إرادتهم فيجب عليهم آنذاك إطاعته، كما يتبين من هذا الحديث أن طريق الخلافة مفتوح أمام الجميع. فإن إراد الناس أن يختاروا عبدًا أسود ليكون رئيسًا عليهم كان لهم ذلك وتجب طاعته على الجميع. فالمهم هنا ليس الشخص المنتخب، بل المهم أن من سينتخبه هم السواد الأعظم من الناس.

إن قوله تعالى ﴿اَلْيَومَ أَكْمَلتُ لَكُم دِينَكُمْ﴾ (المائدة:٣) يفيد أن الدين قد اكتمل، أي لم يبق هناك أي شيء يقال. فلا يمكن إدخال أي شيء جديد فيه، ذلك لأن أي بدعة جديدة تدخل إلى الدين تعني إماتة سنة من السنن الشريفة. لذا، كان من الواجب الاعتصام بسنة رسول الله

---

[1] الترمذي، العلم ١٦؛ منهل الواردين شرح رياض الصالحين لصبحي صالح، ١٥٢/١؛ وانظر إلى الروايات المختلفة في: ابن ماجه، المقدمة، ٦؛ المسند للإمام أحمد، ١٢٦/٤، ١٢٧؛ أبو داود، السنة ٥.

ﷺ وسنة خلفائه الراشدين من بعده. وهذا الاعتصام لا يكون بالأيدي وإنما بالعضّ عليها بالنواجذ، فسنته مثل طير السعد الذي يجب الاحتفاظ به جيدًا بعد اصطياده. ثم إن سنة الرسول ﷺ تبلغ للآخرين عن طريق الفم، ومن يتكلم ضدها تحد له الأسنان ولا يسمح له بإطالة لسانه عليها.

كم يتمنى القلب لو أننا استمعنا إلى هذا الحديث من سلطان البيان نفسه واستطعنا فهمه، إذن، لكانت هذه الجوانب التي حاولنا شرحها غنية. فكل نافذة مفتوحة على كلامه توصلنا إلى معان غنية جديدة. ولا يسعنا ونحن نسمع حديثه ﷺ إلا أن نقول: "صدق رسول الله"

ص . اللدْغ من جُحْرٍ مرتين

يقول رسولنا ﷺ في حديث ينقله البخاري ومسلم:

«لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحْرٍ واحدٍ مرتين.»[1]

لن نقف طويلاً أمام هذا الحديث الذي يجب على رجال السياسة في المستقبل أن يهتموا به اهتمامًا كبيرا، بل سنكتفي ببعض الإشارات حوله. ومثقفو الغد من الذين انتبهوا فاهتموا بثقافة ومفاهيم أمتهم والذين سيقيمون أسس ومعالم عالمهم من داخل عالمهم... هؤلاء المثقفون السائرون في قوافل النور يجب أن يقفوا طويلاً أمام هذا الحديث ويتأملوه جيدًا ويقيموا جميع أسس سياستهم الداخلية والخارجية على الدروس المستنبطة منه، فيكونون بذلك قد وجدوا طريقًا مهمًا يقودهم إلى النجاح، وإلا فإن الانخداع في ساحة السياسة والخداع لن ينتهي أبدا، وسيبقى شعبنا مخدوعًا على الدوام.

ق . الناس معادن

على علماء التربية في المستقبل أن يمحصوا جيدًا هذا الحديث الشريف الذي يرويه البخاري ومسلم: «الناس مَعادِنُ كمعادن الفضة والذهب. خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا.»[2]

كأن الرسول ﷺ بحديثه هذا يلقي على المربين وعلماء النفس هذا الدرس: إن معرفة شخصية الإنسان وطبيعة معدنه ضروري ومهم جدًّا عند تربيته. وسيماء الشخص قد يكون من أمارات عالمه الروحي. لذا، يجب أولاً معرفة العالم الداخلي والعالم الروحي لكل

---

[1] البخاري، الأدب ٨٣؛ مسلم، الزهد ٦٣.

[2] البخاري، المناقب ١؛ مسلم، البر ١٦٠؛ المسند للإمام أحمد، ٥٣٩/٢.

إنسان، لكي يوضع ويصهر في البوتقة المناسبة له، لأن التربية تعني فيما تعني إعطاء شكل ما. وهذا لا يتم إلا بالقدرة على إذابة ذلك الإنسان في بودقة معينة. والقيام بجهود تربوية بشكل عشوائي لن يكون له أي فائدة بل قد يكون وسيلة لإلحاق الضرر. لذلك قال الله تعالى لرسوله الكريم منذ البداية: ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدعُو إلى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف:١٠٨). أجل، إن أي دعوة إلى التفكير يجب أن تكون على بصيرة. والدعوة ببصيرة هي الدعوة الواعية التي تعرف من تخاطب وما غاية الخطاب وبأي مقياس تتم الدعوة. إذن، فرسول الله ﷺ يختار الطريق الواعي لدعوته ويوصي أمته بذلك، والحقيقة أن الله تعالى هو الذي يأمر بذلك مباشرة.

يجب معرفة طبيعة كل شخص: في أي درجة يذوب ويجد ذاته. من وإلى أي بوتقة يؤخذ... وفي أي أنبوب اختبار يصفى... كل هذه الأمور يمكن معرفتها عند الدعوة على بصيرة. الأشخاص الواعون في الجاهلية والذين كانوا على بصيرة وأصحاب عقل وإنصاف عندما فتحوا أعينهم على الحق والحقيقة وتعرفوا على الإسلام ودانوا به أصبحوا في مقدمة صفوف المسلمين. ذلك لأن الذهب عندما يذوب في بودقة يبقى ذهبا، والفضة تبقى فضة والنحاس يبقى نحاسًا فلا ينقلب أي معدن إلى معدن آخر أبدا، فالذي كان معدنه ذهبًا في الجاهلية بقي معدنه ذهبًا عندما أسلم، ولكن بشرط واحد وهو "إذا فقهوا"، أي بشرط أن يتفقهوا في الدين ويتعمقوا في فهمه.

ولكي يكونوا كذلك فلا بد لهم من معلم ومن مرشد، أي يحتاجون إلى كيمائي يتناول نفوسهم فيذيب كلا منها في بوتقة خاصة بها. أجل، فلا بد من هذا لنفخ الإسلام فيهم ولا يمكن لهؤلاء الوصول إلى الفقه إلا بهذا الشكل.

ر . الظلم وخيم العاقبة

لا نملك أنفسنا من إيراد هذا الحديث لرسول الله ﷺ: «إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أَخَذَه لم يُفْلِتْه» ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَة إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيد﴾ (هود:١٠٢).[1] إن الله يمهل الظالم المرة تلو الأخرى، أي يقابل الظالم والذي أعلن عصيانه له بالإمهال، ولكن إن أخذه أخيرًا لم يفلته. وهذا معناه أن الظالم تجاوز حده وأن الكأس قد فاض فلم يعد هناك مجال للمهلة.

---

[1] البخاري، تفسير سورة (١١) ٥؛ مسلم، البر ٦١.

لله تعالى قوانين جارية في الكون لا تبديل لها ﴿لاَ تَبدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ (الروم:٣٠). ومن هذه القوانين كون الظالم سيفًا بيد الله، حيث يقول رسول الله ﷺ في هذا الخصوص: «الظالم عَدْلُ الله في الأرض يَنتقم به ثم يُنتقم منه.»[١] الظالم هو سيف الله يؤدب به الله من تجاوز حده، ثم يأخذ الظالم أخذًا وبيلاً.. الظالمون اليوم سادرون في غيهم، ولكن إياك أن تيأس وأنت تشاهد هذه الأوضاع فكم من قرى أمهلها الله تعالى وكان يقول لها "كلي واشربي وتمتعي" ثم أخذها أخذ عزيز مقتدر.[٢]

انظروا حواليكم بتمعن ستجدون أمثلة حية على ما نقول. "سَدوم" و"عامورة" و"بومبيي" ليست إلا أمثلة ثلاثة فقط... من يدري كم من أمثلة أخرى موجودة لا نعرفها، أو كانت أقل عبرة من هذه الأمثلة فتم نسيانها.. ولكن كل هذه الأمثلة شاهدة على هذا القانون الإلهي. ولماذا نذهب بعيدا..؟ ألم تكن فوق هذه الأراضي التي نعيش عليها دولة عليّة عثمانية.. هذه الدولة التي لم يكن يخطر على بال أحد إمكانية زوالها، ولكنها عندما سقطت أصبحت إحدى ذكريات التاريخ التي نتذكرها بقلوب مفجوعة. واليوم تكافح فئة قليلة حصرت داخل حدود ضيقة من أجل البقاء أمام التيارات الداخلية والخارجية التي تستكثر عليها حتى حق الحياة في هذه المساحة الصغيرة. والقانون الالهي الذي لا يتغير هو ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ...﴾ (هود:١٠٢)

ويستطيع المؤرخون الحقيقيون وعلماء الاجتماع أن يستفيدوا من هذا القانون الإلهي الذي لا يتغير، ومن الأمثلة التي تحفل بها مقابر التاريخ، يستطيعون الاستفادة وأن يخلدو أنفسهم عصورًا عدة. ونحن نترك تفسير هذا الحديث لهم لننتقل إلى حديث آخر.

ش . في ظل عرش الرحمن

«سَبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظِلّ إلا ظِلّه: الإمام العادل، وشابّ نَشَأَ بعبادة الله ﷻ، ورجل قلبُه معلَّق في المساجد ورجلان تَحابَّا في الله اجتمعا عليه وتَفرَّقا عليه، ورجل دعته امرأةٌ ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تَصَدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تَعلم يمينُه ما تنفق شمالُه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه.»[٣]

هذه موضوعات سبعة يمثل كلُ موضوع منها أهمية كبرى من ناحية الإرادة الإنسانية. فإيفاء

---

[١] كشف الخفاء للعجلوني، ٤٩/٢.

[٢] تشير الآية إلى هذا الأمر: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذتها وَإِلَيَّ الْمَصِير﴾ (الحج:٤٨).

[٣] البخاري، الأذان ٣٦؛ مسلم، الزكاة ٩١؛ الترمذي، الزهد ٥٣.

حق بعضها صعب وشاق، وبعضها شباك للروح، ولو تخلص الإنسان من بعض هذه المصايد فهناك احتمال على الدوام أن يسقط في البعض الآخر ولكن إمكانية الوقاية من الوقوع في هذه المصايد أمر وارد إن التجأ الإنسان إلى عناية الله وحمايته، وبذل كل إرادته.. أي إن مقومات هذا الطريق هو استعمال الإنسان إرادته حق الاستعمال مع الاستعانة التامة بالله والالتجاء إليه.

مثل هذه الجماعة القدسية التي يذكرها النبي ﷺ في حديثه هذا والتي اتحدت فيها الإرادة مع الارتباط بالله والاستعانة به.. هذه الجماعة هي الجماعة التي تخيلها الكتّاب المثاليون في المدن الفاضلة والتي لا يجدونها في الواقع العملي، مما يملأنا رغبة وطموحًا في الوصول إلى مثل هذه الجماعة وتحقيقها واقعيًا.

أجل، في ذلك اليوم الذي لا تحجب الشمسَ فيه غيمةٌ واحدة.. في ذلك اليوم الذي ترسل الشمس حرارتها اللاهبة إلى كل مكان فتغلي الأدمغة في الرؤوس ويرتفع العرق حتى الأذقان وتنقطع الأسباب ويبدو كل شيء وكأنه عدو للإنسان.. في ذلك اليوم لا يبقى هناك ملجأ ولا منجى ولا ظل إلا حماية الحق تعالى وعنايته.. وسواء أكان هذا ظل العرش أم غيره فهذا لا يهم إذ المهم تغير النظام الذي نعرفه وانقلابه رأسًا على عقب وتبدل المقاييس وتبدل الأرض والسماء. في هذا اليوم المرعب لن يكون أحد عونًا لاحد، إذ لن تنفع أي معونة ولا أي مساعدة آنذاك.. فمن يستطيع فعل ذلك في هذا اليوم الذي تنقطع فيه الأصوات، وتبلغ القلوب الحناجر، وتدور الرؤوس وتشخص فيه الأبصار..؟ في مثل ذلك اليوم من يحمي من..؟ من يستطيع ذلك؟ في مثل ذلك اليوم ليس هناك إلا ملجأ واحد.. اللجوء إلى ظل الله أيْ إلى حمايته، وهذه الحماية تشمل هؤلاء الأشخاص:

أ. رؤساء الدول الذين وعوا مسؤولياتهم في الدنيا وراعوا الأمانة المودعة لديهم.. أي راعوا الحق والعدل والاستقامة.

ب. الشاب الذي نشأ في طاعة الله تعالى وذلك في أوج فترة غليان النفس والجسد.

ج. رجل العبادة الذي تملكه حب العبادة فأصبح قلبه معلقًا بالمساجد.

د. المتحابين في الله.. الذين يجتمعون على حب الله.. ويتفرقون على حبه.. أي الذين جعلوا رضا الله ومحبة الحق محرابًا لهم.

هـ. الرجل الكامل الرجولة الذي يستطيع أن يديم حياته على خط "مخافة الله" و"مهابة الله" والذي يستطيع المحافظة على عفته بكل حساسية، والمصمم على الوقوف أمام رغباته وشهواته، القائل دائمًا لنفسه الأمّارة بالسوء: "إنني أخاف الله رب العالمين."

و. الشخص الذي يقتصد من مصاريفه ولو كان به خصاصة لكي ينفق في سبيل الله رمزًا على إخلاصه ووفائه لله بحيث لا يعلم أحد غير الله انفاقه هذا، وتبلغ حساسيته في هذا الموضوع إلى درجة الغيرة فلا تعلم يساره ما تنفق يمينه...

ز. رجل القلب والعواطف الذي يغني أوقات وحدته وعزلته بالتأمل وبالتفكر والمراقبة ويترجم عواطف قلبه دموعًا تجري من مقلتيه ويستمد قوة إرادته من الله تعالى، وبحواجز هذه الإرادة الفولاذية يحطّم كل رغبات المعصية وينسفها نسفًا... فهذا هو رجل القلب والعاطفة.

أجل، فقد ورد في أحاديث أخرى أن هذا الإمام العادل يكون يوم القيامة على منابر من نور يتلقى عطايا الله،[1] ويرتشفها، وهذا الشاب الذي قضى شبابه عفيفًا ينال رضا الله، وذلكم الرجل المعلق قلبه بالمساجد يكون في ظل الحماية الإلهية، والمتحابون في الله ينالون المحبة الإلهية، والذي ربط قلبه بمهابة الله ومخافته سيكون في أمان مما يخشاه يوم القيامة. وهذا الرجل رجل الوفاء الذي يؤدي صدقته بمقياس دليل صدقه سيجد مقابلها من نعم الله -الذي هو خير الأوفياء- ما يفوق خياله، وأخيرًا رجل العاطفة والقلب الذي يكون ظاهره حافلاً بالمعاني وباطنه عميق الغور القدوة الحسنة للناس الذين يعرفونه بجوانبه المشرقة هذه، مثل هذا الرجل عندما يخلو إلى ربه تتفجر أحاسيسه وعواطفه دموعًا منهمرة، وهو إلى جانب اجتيازه جميع المصاعب والمفاوز وإلى جانب نيله العطايا في الآخرة فإنه يعطي نموذجًا للمجتمع المثالي وإطارًا للأمة المثالية التي تقود الإنسانية إلى هذه المثل الرفيعة.

ولا أدري أهناك حاجة لتكرار القول أن معاني عميقة عمق البحار والتي لا يمكن التعبير عنها إلا بمجلدات قد صيغت في أسطر قليلة فكأن القطرة الواحدة استوعبت بحرًا زاخرًا.

تـــ . الدنيا ظل

في حديث آخر يقول الرسول ﷺ: «ما لي وما للدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استَظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها.»[2]

ما الدنيا؟ وكيف يتصرف الإنسان تجاه شيء زائل ووقتي؟ ثم لماذا أتى الإنسان إلى هذه الدنيا وإلى أين يغادرها؟ هذه هي المسائل الرئيسة للفلسفة والتي قيل الشيء الكثير عنها طوال عصور عديدة. وكما هو واضح فقد بين رسول الله ﷺ هذا الأمر بشكل وجيز وبليغ. وهذه

---

[1] مسلم، الإمارة ١٨؛ النسائي، القضاة ١؛ المسند للإمام أحمد، ١٥٩/٢.

[2] الترمذي، الزهد ٤٤؛ ابن ماجه، الزهد ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٣٠١/١.

المسألة وغيرها من المسائل التي لا يستطيع الآخرون شرحها وإيضاحها في مجلدات يشرحها النبي ﷺ بأوجز شكل وأبلغه وأوضحه. أجل، إن الإنسانية جمعاء معجبة ببيانه الوجيز.

ثـــ . مميزات خمسة لسيد البشرية

«أُعْطيتُ خمسًا لم يُعْطَهنّ أحدٌ قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعْب مسيرةَ شهر، وجُعِلَتْ لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ. وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تُحلّ لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعَث إلى قومه خاصةً وبُعثتُ إلى الناس عامة.»[1]

أَعطى الله النعم بمعناها الكلي للجميع، وبمعناها الخاص لكل أمة ولكل نبي، فلكل منهم نعمة خاصة ولطف خاص، فلآدم عليه السلام ولأتباعه أعطاهم الصفوة ونيل شرف فَهْم معاني الأسماء الحسنى، ولنوح عليه السلام روح الكفاح والعزم والعزيمة، ولإبراهيم عليه السلام درجة أبوة العديد من الأنبياء وعشق التوحيد وخلة الرحمن، ولموسى عليه السلام قابلية التعليم والتربية والعلوم الاجتماعية والدراية في إدارة المجتمع ولعيسى عليه السلام جانب اللين والشفقة والصبر والتحمل ونشر المسامحة في المجتمع والمحبة بين الناس، ولسيد الزمان والمكان محمد ﷺ ولأمته الإرادة والحكمة والموازنة وصفات التحليل والتركيب وغيرها من الصفات التي تستوجبها الرسالة العالمية، وذلك إضافة إلى الصفات الممنوحة للأنبياء السابقين. لذا، فإنه بجانب كون الدين الإسلامي أكثر الأديان مسؤولية وواجبات فإنه ألطفها وأسماها وأبركها وأكثرها قربًا من النفس البشرية، ويعد هذا من صفاته كدين عالمي.

يتناول هذا الحديث الشريف رسول الإسلام ورسالته العالمية الشاملة بأسلوب آخاذ ويبسطها أمام الانظار. عندما قام مبلغ هذا الدين العالمي وهذه الدعوة العالمية وتلاميذه الأوائل بنشر هذا النظام العالمي في أرجاء العالم، كانوا يشعرون بمدى مسؤوليتهم ويدركونها. فكانوا يسرعون من جبهة قتال إلى أخرى يجاهدون في سبيل الله لاستلام قيادة العالم... يقتلون ويُقتَلون... يبرهنون على أحقيتهم في الدخول إلى الجنة ورؤية جمال الله... يستهينون بحياتهم الدنيوية في سبيل دعوتهم. وبحرص أكبر من حرص الآخرين ورغبتهم في الحياة الدنيا، كانوا يذوبون شوقًا للقاء الله ويسعون لتحقيق الخلافة في الأرض. لذا، فما كان بقدرة أحد قتال أمثال هؤلاء الذين ارتبطوا بالعالم الآخر مثل هذا الارتباط. أما الذين ساقهم سوء حظهم لمواجهة هؤلاء فقد أخذهم الخوف والرعب إلى درجة الشلل منذ الخطوة

---

[1] البخاري، التيمم، ١، الصلاة ٥٦؛ مسلم، المساجد، ٣.

الأولى... لاسيما عندما يبلغ تعظيم الله تعالى عند المؤمنين درجة المهابة، فوعد «نُصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر» سلاح رهيب بيد المؤمنين الصادقين وقلعة حصينة لهم.

ثم إن كون الأرض مسجدًا وطهورًا لمنتسبي هذا الدين واستطاعتهم أداء الصلاة في كل مكان دون حاجة إلى وجود معبد أو مصلى بُعدٌ آخر من أبعاد هذا الدين العالمي. والبعد الآخر هو إباحة الغنائم لكي يمضي الجهاد في سبيل الله حتى يوم القيامة دون عائق أو مانع.. وبُعدٌ آخر هو الشفاعة العظمى يوم القيامة حيث يؤخذ بيد كل شخص -ضمن معايير ومقاييس معينة- لإيصاله إلى مستوى معين من الأمن ومن السلامة.. أما كون جميع الأنبياء بعثوا إلى أممهم خاصة، وبعثته ﷺ إلى الناس عامة فهو البُعدُ الصريح الواضح في هذا الشأن. كما يمكننا استنباط الأمور التالية من الحديث الشريف دون أي تكلف أو تعسف:

أ. أن النبوة ورسالتها المصاحبة لها موهبة إلهية لا يمكن تحصيلها بجهد بشري.

ب. أن هذه المميزات الخمس من خصائص الدعوة المحمدية فلم تعط لأي نبي أو رسول.

جـ. أن إرسال الرعب إلى قلوب الأعداء من مسافة بعيدة حالة نبوية خاصة وهدية إلهية إلى من يعيش في ظل ذلك الخط النبوي.

د. أن عدم ارتباط العبادة بالمعابد وبرجال الدين[1] كما يشكل بُعدا في عالمية هذا الدين وشموله، فإنه يشكل تيسيرًا لعلاقة العبد بالمعبود في كل زمان وفي كل مكان. وهنا ترد خاصية أخرى وردت مع الرسالة الإسلامية وهي أن التراب مطهِّر أيضًا كالماء. ونرى هنا من الفضول أن نتحدث عن أهمية الاغتسال في الإسلام وعن خاصية التطهير بالماء وكونه منبعًا للحياة وعن خاصية التطهير بالتراب.

هـ. أن أخذ الغنيمة لم يكن في حد ذاته حراما، وإنما كانت حرمة الغنيمة متعلقة بالزمن وامتحانًا. وقد تم تجاوز هذه المحرمات في زمن رسول الله ﷺ ولاسيما إنها كانت المصدر الرئيس للجهاد الذي هو ماض إلى يوم القيامة.[2] لأنها تكون مصدر إعاشة للذين وهبوا أنفسهم له وعاملاً مشوقًا لهم، وسببًا فعّالاً في إضعاف جبهة الأعداء من الناحية المالية وعدم تمكينهم من لَـمّ صفوفهم، لكونها مهمة ومباحة -مع أنها غير واجبة- فهي ليست منافية للإخلاص لأنها وسيلة لإعلاء كلمة الله.

و. أن الشفاعة حق.. ويجوز أن يقوم كل واحد بالشفاعة بإذن الله تعالى.. ولكن الشفاعة

---

[1] نفهم من الحديث الشريف عدم ارتباط العبادة بالمعابد ومن ثم برجال الدين.

[2] أبو داود، الجهاد ٣٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١٠٦/١.

العظمى يوم القيامة من ناحية شمولها وإحاطتها وعلاقتها بكل الناس تقريبا نعمة وميزة معطاة له ﷺ وحده وهي من الخصائص الأحمدية ومبعث سرور وفخر لنا.

ز. كان الأنبياء السابقون مبعوثين لأممهم وقبائلهم لا غير، أي في دائرة ضيقة، أما خاتم الرسل وسيد الأنبياء فقد أرسل للناس وللوجود بأكمله، لذا فإن دعوة الأنبياء السابقين كانت قائمة ما دامت قبائلهم وأقوامهم موجودة، أما هذه الرسالة فهي عامة وشاملة وتضم الوجود كله؛ لذا، فهي باقية ومستمرة حتى يوم القيامة.

هاكم إذن، سلسلة وضيئة أخرى منقوشة حول معانى مشتركة جامعة ورصينة وقوية من ناحية محتواها وطريقة التعبير عنها.

خ . المؤمن إنسان مسؤولية

«كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رَعِيَّته. الإمامُ راعٍ ومسؤول عن رعيته والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته. والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها. والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته وكلكم راع ومسؤول عن رعيته.»[1]

ترد كلمة "راع" بمعنى الشخص الذي يحرس ويصون ويراقب ويهتم. لذا، أطلقت كلمة "الراعي" على الشخص الذي يحفظ الحيوانات الموجودة في عهدته ويصونها من الحيوانات المفترسة ويجد لها أفضل المراعي، وعندما يقوم بمهمته هذه يكون بفطرته السليمة بعيدًا عن كل حرص معيب، ويكون شغله الشاغل الرحمة والشفقة التي يحسها تجاه قطيعه حيث يتألم بألمه ويسعد براحته.

وهكذا فإن العلاقة بين رئيس الدولة وبين المواطنين تشبه -في وجه من الأوجه- هذه العلاقة. كما أن على ممثليه في الدوائر المختلفة وعلى مختلف المستويات مراعاة أحوال من هم تحت أيديهم ومقاسمتهم آلامهم وأفراحهم وأن يهيئوا لهم مستقبلاً أميناً وسعيدًا ويجابهوا المشكلات التي تعترضهم.

والعلاقة نفسها موجودة عند رئيس الأسرة، فهو المسؤول الأول عن نفقتهم وإلباسهم وإسكانهم في مسكن مناسب، ثم عن تعليمهم وتربيتهم وحسن معاشرتهم وإرشادهم إلى الطرق التي توصلهم للسعادة في الدار الآخرة. والأمر نفسه يرد في علاقة المرأة بزوجها في تدبير شؤون بيتها والمحافظة على مال زوجها وعرضه.

---

[1] البخاري، الجمعة ١١؛ مسلم، الإمارة ٢٠.

والخادم أيضا في موضع الراعي بالنسبة لمال سيده وملكه، كما يراعي الابن مال أبيه وشرفه وكرامته، حتى يمكن أن يقال إنه ما من إنسان في الإسلام يخرج عن دائرة "الراعي" و"الرعية"، فهو من جانب "راع"، ومن جانب آخر "رعية" حتى أنه لو لم تكن هناك "رعية" لراع فهو مسؤول أيضًا لأنه مسؤول عن رعاية عقله وجسده وأحاسيسه وأعضائه، فهي كلها أمانة عنده يجب مراعاتها والاهتمام بها.

والإسلام من بين كل النظم والأديان هو النظام الوحيد في الحياة الذي بين مسؤولية كل شخص حتى أدق تفاصيلها بدءً من رئيس الدولة وانتهاء بالخادم في المنزل، وذلك في عهد لم ير أحد الديمقراطية حتى في المنام. وليس هناك من نظام حياتي آخر يستطيع منافسته في هذا الموضوع. يقول نبي الإسلام إن «الإمام راع ومسؤول عن رعيته» ويعدد مسؤوليته ويعيّن حدود هذه المسؤولية ويشير إلى وظائفه ومهامه.. ويذكر بمسؤوليات الرجل والمرأة كل على حدة وفي ساحاتها المختلفة، ويحمل كلا منهما مسؤولياتهما... مسؤولية الأب نحو ابنه، ومسوؤلية الابن نحو أبيه. كما بحث عن حقوق ومسؤوليات العمال والخدام في وقت مبكر جدًّا إن أخذنا التطور العالمي في هذا الموضوع بنظر الاعتبار، وقدّم حلولاً للمشاكل الاجتماعية قبل حدوث الهزات الاجتماعية في تاريخ البشرية.

هذه بعض الكلمات النبوية حول الحقوق المتقابلة بين الإمام والرعية -شرحت معظم هذه الحقوق في كتب "الأحكام السلطانية" وغيره- وبين الابن والوالدين وبين الزوج وزوجته، وبين العامل وصاحب العمل، وقد تم تفصيل هذه الحقوق في كتب الفقه وفي رسائل الأخلاق والتربية، وفي كتب علم الاجتماع والحقوق وشغلت فيها مواضع بارزة.

ذ . بعض أنواع الحرام والمكروهات

«إن الله حرّم عليكم عُقوقَ الأمهات ووَأْدَ البنات ومَنْعًا وهاتِ وكَرِهَ لكم قيل وقال وكثرةَ السؤال وإضاعة المال.»[1]

١. عقوق الأم

إن الابن الذي يعق أمه ويعصيها كأنه يقطع كل حقوقية العلاقة بينه وبينها ويدفعها نحو الوحدة. ومع أن عقوق الأب أيضا محرم، إلا أن ذكر الأم هنا ينبع من كون النساء أكثر حاجة للحماية، وكذلك لكونها أرق شعوراً وإحساسا، لذا فإن عقوقهن يجرح شعورهن

---

[1] البخاري، تفسير سورة (١١) ٥؛ مسلم، الأقضية، ١٢.

بشكل أقوى ويزيد في حزنهن. ولأن الأب يشترك مع الأم في حقها على الابن فإن عقوق الأب حرام أيضًا ولكن لا يمكن قياسه مع حرمة عقوق الأم.

٢. وأد البنات

كان عرب الجاهلية يقومون -في بعض المناطق وفي بعض المستويات الاجتماعية- بوأد البنات أي دفنهن وهنّ أحياء. كان البعض يقومون بهذا العمل الوحشي بدافع غريب من شعور الغيرة؛ والبعض الآخر بدافع الفقر والضيق الاقتصادي، وغيرهما بدافع قَبَلي لمنع انتقال ثرواتهم إلى الغرباء. ومهما كان الدافع لهذا العمل، فقد كان عملاً وحشياً يجب منعه والقضاء عليه وقد تم هذا فعلا، لذا حرم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هذا الموضوع بأوامر مشددة.

٣. خيانة الأمانة

رمَز الحديث الشريف إلى الامتناع عن دفع الديون والحقوق الأخرى اللازمة بكلمة "منعا" ومحاولة أخذ أو طلب الأشياء الممنوعة بطرق مختلفة بكلمة "هات"، أي يحرم الامتناع عن دفع الحقوق الواجب أدائها، كما يحرم أخذ الأشياء دون وجه حق. وخَطُّ الحرمة هنا هو نفس خط الحرمة لعقوق الوالدين ولوأد البنات.

كما يمكن فهم الكلمة الأولى هنا أي كلمة "منعا" بمنع الزكاة المفروضة عليه والصدقات وسائر الإعانات الأخرى وعدم أدائها إلى المستحقين من الفقراء. وفهم الكلمة الثانية "هات" في مجال التسول والسؤال. وإذا أردنا أن نخطو خطوة أخرى إلى الأمام لقلنا إن الكلمة الأولى تعني فيما تعنيه إنكار الديون بعد أخذها وأكل حقوق الآخرين وعدم تسديد قيمة الصكوك والسندات، والقيام بحيل معينة في سبيل ذلك كإعلان الإفلاس وغير ذلك من الحيل والطرق غير المشروعة في كسب المال وأكل حقوق الآخرين ثم إهمال إيصال هذه الحقوق إلى أصحابها بل حتى التمرد في هذا. وعن الكلمة الثانية نقول إنها تشمل حاليا حالات عديدة بدءً من التسول العادي إلى قيام بعض الدوائر -رسمية كانت أم غير رسمية- باستغلال العواطف الدينية أو الوطنية في الشعب لامتصاصها وخداع الجماهير وأخذ أموالها بالباطل بطرق عديدة.

يتناول هذا الحديث المليء والموجز عقوق الأولاد لوالديهم وقطعهم لصلة الرحم أو قيام الوالدين بتصرفات قاسية وغير إنسانية تجاه أولادهم دون الاهتمام بعواطف الرحمة والشفقة المركوزة في فطرتهم، وقيام بعض الأنانيين في المجتمع -الذي يعد عائلة كبيرة- بوضع مصالحهم ومنافعهم الشخصية فوق كل اعتبار، وهزهم بذلك قواعد النظام والثقة

والاطمئنان والأمن في المجتمع، وبعد أن جمع الحديث هذه الأمور في خط الحرام لصفة مشتركة بينها أشار إلى أمور أخرى ثلاثة ممنوعة أيضاً وإن لم تكن في المستوي السابق من ناحية الحرمة وهي "قيل وقال" أي نشر الشائعات و "كثرة السؤال" أي طرح أسئلة عديدة في غير أماكنها، أو المقصود جعل الشحاذة والتسول صنعة ومهنة. و"إضاعة المال"، أي تبذير المال بالإسراف هنا وهناك.

٤. الشائعات

رمز إلى الشائعات هنا بـ"قيل وقال". وقيل وقال هو كل كلام لا ينفع لا في الدنيا ولا في الآخرة... هو الكلام التافه وغير الضروري... هذا قد يكون كلامًا لا يعنينا في شيء أو بيانًا يقترب من حدود الممنوعات، ونشر الشائعات مرض اجتماعي يختلف في شدته باختلاف المستوى الاجتماعي للناشرين وباختلاف واسطة الشائعة -قد تكون جريدة أو مجلة أو إذاعة أو تلفزيونا- ومدى وسعة دائرة انتشارها. وهذا مرض اجتماعي يسري في المجتمعات التي تعطلت فيها مواهب الأفراد وتسطحت فيها مشاعر الجماهير وضاقت آفاق تفكيرهم.

إن كل الآثام القاتلة التي يكون الفم مصدرها والتي حرمها الإسلام تنمو وتنتشر عن هذا الطريق "القيل والقال". ولهذا أورد الرسول ﷺ قول المعروف أو الصمت من بين أشياء ثلاثة أوصاها إذ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جارَه. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرِمْ ضيفَه.»[1]

٥. كثرة السؤال

وهي إما الإسراف في طرح أسئلة لا معنى لها أو القيام بالتسول دون ضرورة ماسة واتخاذ التسول مهنة وعادة، وكلا الأمرين مذموم. فقد حرم القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة التسول خارج نطاق الضرورة. كما أنّ طرح أسئلة هنا وهناك وفي كل وقت وحين شيءٌ مذموم وغير مستحب، إذ الأفضل أن تتوجه مشاعر الناس وأفكارهم إلى أمور مفيدة مثمرة. وعلى أي حال فإننا نرى أن القرآن الكريم يقسم الأسئلة إلى نوعين. نوع مقبول ومستحسن ومثاله ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة:٢١٥) ونوع مذموم وغير مستحب ومثاله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ (الإسراء:٨٥).

طرح السؤال أو عدم طرحه.. التسول أو عدم التسول.. وجود ضرورة أو عدم وجود مثل هذه الضروة، وجود حاجة أو عدم وجودها. كل هذه الأمور هي التي تعين عما إذا

---

[1] البخاري، الرقاق ٢٣؛ مسلم، الإيمان ٧٥.

كانت أفعال المكلفين واجبة أم حراماً أم مباحة. لذا، فإن هذين الموضوعين وإن بدا مختلفين إلا أنه يمكن مطالعتهما وتفسيرهما معًا من جهة وحدة اتجاههما.

أما "إضاعة المال" فيمكننا تفسيرها بأنها إنفاق المال دون أن يكون لهذا الإنفاق أي فائدة دنيوية أو أخروية، أي تبديد الثروة هباء منثوراً فيما لا ينفع. وهذا مرض فردي ومرض اجتماعي. أجل، قد يبدو قيام فرد ما بتبديد ثروته وإضاعتها فيما لا ينفع وكأنه ضرر فردي يصيب ذلك الفرد فقط، غير أن ثروته لكونها جزءً من ثروة البلد والمجتمع فإن تبديدها وإضاعتها فيما لا ينفع يضر المجتمع ويضر البلد ككل. وينتهي هذا الحديث الشريف بهذه المسألة الأخيرة التي اكتسبت أهمية كبيرة في أيامنا الحالية والتي ستكتسب أهمية أكبر في المستقبل ألا وهي الاستغلال الجيد للثروة والاستثمار الاقتصادي لها. ولا ننسى أن ننوه إلى سعة المعاني العميقة وشمولها التي أكسبها سلطان الأدباء والبلغاء قوة بحسن اختياره للكلمات واستعمالها في مواقعها الصحيحة المناسبة.

ض . الإحسان

«الإحسان أن تَعْبد الله كأنك تراه فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك.»[1]

إن شعار المؤمنين الكاملين هو أن يتكامل الإيمان ويتحد بالإسلام ويقترب من درجة الإحسان. وقيام المؤمنين ضمن الإيمان والإسلام بالوصول إلى درجة الإحسان، أي الوصول إلى بُعد أسمى ومستوى أرقى من الإيمان والإسلام، وإيفاء هذه الدرجة حقها يؤدي إلى أن يكون مظهرًا لعناية الله ولطفه على قاعدة "إن الخير ينتج الخير"، لذا يجازيه الله تعالى بـ«ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.»[2] أي بمفاجاة من جنس الإحسان.. إذ ترد هنا قاعدة ﴿هَلْ جَزَاءُ ٱلإِحْسَانِ إلاَّ ٱلإِحْسَانُ﴾ (الرحمن:٦٠). فإحسان العبد هو إخلاصه بمقدار عمق إيمانه وأدبه وخشيته؛ وإحسان الله تعالى بمقدار عظمته وغناه وقيامه بملء قلب عبده بالإيمان واستثارته بالإلهام ورفع الغشاوة عن عينه ليريه الأشياء على حقيقتها، وحفظ لسانه عما لا يعنيه، وإنطاقه بالحكمة وإلهاب عاطفته حتى تسرح في آفاق التجليات.. وعندما يصل المؤمن إلى هذا وتنفرج أمامه أستار الوجود، يصبح وكأنه يراه ولكن "دون كم أو كيف"، ولكن لكونه تعالى ﴿لاَ تُدْرِكُهُ ٱلأَبْصَارُ﴾ (الأنعام:١٠٣) فإن المؤمن المتيقن من رؤية الله تعالى له، بسعادة رؤيته لله، وبمهابة رؤية الله له يكاد يغيب عن صوابه، فكما يَتخيل الصائم

---

[1] البخاري، تفسير سورة (٣١) ٢؛ مسلم، الإيمان ٥، ٧.

[2] البخاري، التوحيد، ٣٥؛ مسلم، الجنة ٢-٤.

وهو ينتظر ساعة الأفطار لذة الإفطار، كذلك يحس المؤمن- الذي قضى حياة حافلة بألوان الطاعة والإخلاص والخضوع والخشوع - من الرؤية العاجلة وغير التامة في هذه الحياة لذّةَ تلك الرؤية التامة والأجلة في الدار الآخرة. فكأن حياته الدنيوية - التي هي أيام معدودات - بمثابة صوم وصال حتى لقاء حبيبه. ففي كل جزء من أجزاء الثانية الواحدة تتضاعف هذه اللذة أضعافًا مضاعفة، فكأن حياته الواحدة تصبح ألف حياة.

أجل، فكما أن العبد يسعد سعادة لا حدود لها عند رؤية سلطان الأزل والأبد فهو يسعد عندما يشعر أن الله يراه، أي يحس بسعادة ولذة من معرفته بأن الله يراقب ما يقدمه من خدمات ويشاهده. يسعد بعمق وهو يؤدي حتى أقل أعمال الخير والبر وأصغرها.

وما قلناه ليس إلا نافذة صغيرة على معاني كلام سيد المرسلين ﷺ الوجيز والبليغ والذي يتسع شرح لآلئه وجواهره لمجلدات. إذن، فهذه قطرة من بحر... ولمعة من شمس... وشعلة من عالم تسبح فيه النجوم. فالتصدي لشرح هذه الكلمات النورانية -التي هي مرآة مجلوة لعكس الحقيقة الأحمدية- شيء يتجاوز قدراتنا، ومع أننا خضنا في هذا الأمر عمدًا إلا أننا نضرع إليه ﷺ ونبتهل إلى الله تعالى أولاً وآخرًا لكي يغفر لنا هذه الجرأة. ولقد سبق وأن قلنا بأن شرح كلماته النيرة بكل أبعادها شيء يتجاوز طاقتنا وقدرتنا وأننا بانتظار من يكون أهلًا للقيام بهذا العمل. إلا أننا مع هذا أظهرنا بعض الجرأة وقمنا بمحاولة تحليل بعض جوانب من بعض أحاديثه. والشيء الذي تجرأنا على الخوض فيه -بأسلوب عامي- هو تناول بضعة أحاديث مضيئة من عالمه ﷺ الواسع الفسيح، ومن زاوية عمق محتواها ورصانة أسلوبها وبلاغة بيانها. لذا، نرجو الله أن يغفر لنا، وأن ينظر إلينا أرباب العلم نظرة تسامح.

٢) وباقة من أدعيته

نود هنا أن نتناول بعض أدعيته ﷺ وأن نلفت أنظاركم إليها، فالكلمات والمعاني الموجودة في أدعيته ﷺ من العمق ومن التميز والسمو والغنى بحيث لا يستطيع أحد الوصول بل حتى الاقتراب منها. ونستطيع أن نقول دون تردد بأن كل دعاء من أدعيته يحتوي من ناحية المعاني ما يملأ كتابًا بكامله. فكما أن أقواله وأحاديثه أسمى من كل الأقوال والأحاديث البشرية الأخرى، فإن أدعيته أعمق بكثير من كل الأدعية التي تلفظت بها الإنسانية سابقًا أو ستتلفظ بها في المستقبل. ذلك لأنه كان أعلم الخلق بالله تعالى وأشدهم خشية له، لذا كانت أدعيته أعمق الأدعية وأسماها وأرقها. فرسول الله ﷺ يعلمنا الدعاء التالي عند التهيؤ للنوم:

«إذا أتيتَ مَضْجعَك فتوضأْ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل: اللّٰهم أسلمتُ نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوَّضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبةً ورهبةً إليك. لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك. آمنت بكتابك الذي أنزلتَ ونبيك الذي أرسلت.»[١] ما أروع هذه الكلمات المستعملة!. ما أعذبها وما أرقاها..! ما أصفاها وما أنقاها..! وما أدفأ معانيها، وما أعمق محتوياتها.ولكوننا سنورد هذه الأدعية في فصل خصصناه لأدعيته فإننا نؤجل شرحها ونكتفي بلفت الأنظار إلى بلاغتها وإيجازها فقط.

ودعاء آخر له: «اللّٰهم باعِدْ بيني وبين خطاياىَ كما باعدتَ بين المشرق والمغرب. اللّٰهم نقِّني من خطاياىَ كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيض من الدَنَس.»[٢] معاني هذا الدعاء تملأ كتابًا... لا أملك قول شيء آخر. أجل، لقد كان ﷺ سلطان الداعين.

ودعاء آخر له: «اللّٰهم إني أسألك من الخير كله؛ عاجله وآجله، ما علمتُ منه وما لم أعلم. وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمتُ منه و ما لم أعلم.»[٣]

ومن لآلئ أدعيته ﷺ الذي أوتي جوامع الكلام: «اللّٰهم لا مانعَ لِما أعطيتَ، ولا معطي لِما منعتَ، ولا يَنفع ذا الجَدّ منكَ الجَدّ.»[٤]

ثم دعاء آخر: «اللّٰهم ما قلتُ من قول أو حلفت من حلف أو نذرتُ من نذر فمشيئتك بين يدي ذلك. ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن. لا حول ولا قوة إلا بك. إنك على كل شيء قدير. اللّٰهم ما صليتُ من صلاة فعلى من صليتَ، وما لعنتُ من لعنٍ فعلى من لعنتَ، أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين.»[٥]

و«وأسألك اللّٰهم الرضا بعد القضاء وبَرْدَ العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك وشوقًا إلى لقائك من غير ضَرّاء مُضِرّة ولا فتنة مضِلّة، أعوذ بك أن أَظلِم أو أُظلَم أو أَعتدِي أو يُعتدى عليّ أو أَكسِب خطيئة أو ذنباً لا تغفره.»[٦]

و«...وأشهد أنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضَيعة وعورة وذنب وخطيئة. وإني لا أثق إلا

---

[١] البخاري، الدعوات ٦، ٧، ٩؛ مسلم، الذكر ٥٦، ٥٧.

[٢] البخاري، الأذان ٨٩؛ مسلم، المساجد ١٤٧؛ ابن ماجه، الدعاء ٤.

[٣] المسند للإمام أحمد، ١٤٧/٦.

[٤] البخاري، الأذان ١٥٥؛ مسلم، الصلاة ٢٠٥؛ أبو داود، الصلاة ١٣٩.

[٥] المسند للإمام أحمد، ١٩١/٥؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١١٣/١٠.

[٦] المسند للإمام أحمد، ١٩١/٥؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١١٣/١٠.

برحمتك فاغفر لي ذنبي كله إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم.»[١]

ودعاء آخر: «اللّٰهم أنت أحَقُّ من ذُكِر وأحقّ من عُبِد وأنصَرُ من ابتُغِي وأرأف من مَلَك وأجود من سُئل وأوسع من أعطى أنت المِلك لا شريك له والفردُ لا يهلك، كل شيء هالك إلا وجهك، لن تطاع إلا بإذنك ولن تُعصى إلا بعلمك. تطاع فتشكر وتُعصى فتغفر، أَقربُ شهيد وأدنى حفيظ. حُلتَ دون الثغور وأخذتَ بالنواصي وكتبتَ الآثار ونسخت الآجال، القلوبُ لك مفضية، والسِّرُّ عندك علانية، الحلال ما أحللتَ، والحرام ما حرمت والدين ما شرعتَ، والأمر ما قضيت، والخلق خلقك والعبد عبدك وأنت الله الرؤف الرحيم. أسألك بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض بكل حقٍّ هو لك وبحق السائلين عليك أن تقبلني في هذه الغداة وفي هذه العشية وأن تجيرني من النار بقدرتك.»[٢]

«اللّٰهم إنا نسألك من خيرِ ما سألك منه نبيك محمد ﷺ ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه نبيك محمد ﷺ.»[٣] «اللّٰهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها.»[٤]

«اللّٰهم إني أسألك الثبات في الأمر وأسألك عزيمة الرشد وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك لسانًا صادقًا وقلبًا سليماً وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأسألك من خير ما تعلم، وأستغفرك مما تعلم إنك أنت علام الغيوب.»[٥]

«اللّٰهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردتَ فتنة الناس فتوفني غير مفتون. وأسألك حبَّك وحبَّ مَن يحبك وحُبَّ عمل يقربني إلى حبك.»[٦]

«اللّٰهم إني أسألك فواتح الخير وخواتمه وجوامعه وأوله وآخره، وظاهره وباطنه والدرجات العلى من الجنة. آمين.»[٧] «اللّٰهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.»[٨]

---

[١] المسند للإمام أحمد، ١٩١/٥؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١١٣/١٠.
[٢] مجمع الزوائد للهيثمي، ١١٧/١٠.
[٣] الترمذي، الدعوات ٨٨.
[٤] مسلم، الذكر ٧٣؛ أبو داود، الوتر ٣٢.
[٥] الترمذي، الدعوات ٢٣؛ النسائي، السهو ٦١؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١٧٣/١٠.
[٦] الترمذي، تفسير سورة (٣٨) ٢؛ الموطأ، القرآن ٤٠.
[٧] المستدرك للحاكم، ٥٢٠/١.
[٨] المستدرك للحاكم، ٤٩٩/١.

«اللّٰهم إني أسألك الهدى والتُّقَى والعَفاف والغنى.»[١] «اللّٰهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.»[٢]

في هذه الأدعية لا يمكنك تبديل كلمة واحدة، أما الانسجام الموجود بين الكلمات فشيء رائع حقا، وليس في إمكان أحد الوصول إلى أبعاد هذه الأدعية.. أجل، لقد كان رسول الله ﷺ قمة شاهقة في الأدعية أيضًا. لقد اقتبس كل الأولياء والزهاد كلمات من أدعية رسول الله ﷺ ليزينوا أدعيتهم بها ويعطوا لها حيوية ودفئا، ولكي يطرقوا بدعائه ﷺ باب رحمة الله. ويتميز أسلوب رسول الله ﷺ في الأدعية بإشراقة مضيئة بحيث تستطيع معرفته ضمن الأساليب الأخرى وتشخيصه بسرعة قائلاً "هذا كلام رسول الله ﷺ."

عندما أقرأ أدعية عمالقة الروح والقلب ومناجاتهم من أمثال أبي الحسن الشاذلي وأحمد البدوي وأحمد الرفاعي والشيخ الكيلاني يغمرني الوجد والهيام وأكاد عندما أقرأ بعض المقاطع منها أن أغيب عن الوعي، فأدعيتهم مؤثرة جدًّا ومدهشة، ولكنهم جميعًا اقتبسوا من أدعية الرسول ﷺ وأدخلوها في هذه المقتبسات ضمن أدعيتهم لكي يغنوها ويزينوها بها. ونحن بدورنا نستخدم أدعيتهم هذه عندما نطرق باب رحمة الله تعالى بأمل قبولها.

وختامًا نقول إن كلام رسول الله ﷺ وأحاديثه بأجمعها دليل على فطنته، وبعض كلماته لكونها من "جوامع الكلم" تحمل أهمية خاصة. والأسلوب الذي يستخدمه في تعابيره في الأدعية يدخل ضمن هذا القسم، فإن أحاديثه وأدعيته تشيران إلى منطق النبوة أي إلى منطق العقل ذي البُعد الأخروي ويشير إلى بعده الإلهامي... فما هو إلا سلطان الأنبياء والرسل.

ج. الرحمة النبوية بعد من أبعاد فطنته ﷺ

إن رحمة النبي ﷺ وشفقته تشكلان بعدًا آخر من أبعاد فطنته. ويمكن رؤية عمق آخر في فطنة رحمة النبي ﷺ وشفقته. أجل، لقد كان سيدنا محمد ﷺ هو الممثل الوحيد لتجلي صفة الرحمة والرحمانية لله تعالى في الأرض. واستعمل هذه الصفة كإكسير شاف لفتح القلوب والتربع على عروشها. ذلك لأن صفة الشفقة والرأفة واللين في الإنسان هي العامل الثاني في جذب الناس وفتح قلوبها بعد صفة الإخلاص والتجرد الحقيقي. لقد كانت رقة وجمال العالم الداخلي للرسول ﷺ وقابليته غير الاعتيادية ورحمته وشفقته -اللتان كانتا بُعدا آخر

---

[١] ابن ماجه، الدعاء، ٢؛ مسلم، الذكر ٧٢؛ الترمذي، الدعوات ٧٢؛ المسند للإمام أحمد، ٤١٦/١، ٤٣٤، ٤٣٧.

[٢] المسند للإمام أحمد، ١٨١/٤؛ المستدرك للحاكم، ٥٩١/٣.

من أبعاد فطنته- من عوامل نجاحه التي استعملها واستغلها، ومن دلائل نبوته كذلك.

لقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين. أجل، لقد كان مرآة مجلوة تعكس رحمة الله تعالى... كأنه كان نبعًا وسط الصحارى أو حوض كوثر... تقاطر عليه الجميع وفي يد كل منهم وعاؤه... يشرب حتى يطفئ ظمأه ويروي غلته ويملأ وعاءه... أجل، إنه بسرّ بُعد الرحمة المتجلية فيه مثل حوض كوثر للجميع، من أراد استطاع الاستفادة منه.

غير أنه بهذه الفطنة الرائعة جعل الرحمة الموجودة في فطرته شباك رحمة لصيد القلوب، فمن وجد نفسه في ذلك الجو الساحر وجد نفسه في طريق الجنة وفي قمة الوجد... هكذا كانت "الرحمة" في يد رسول الله ﷺ مفتاحًا سحريًا... فبهذا المفتاح فتح مغاليق أقفال صدئة لم يكن أحد يتوقع فتحها بأي مفتاح، وأشعل شعلة الإيمان في القلوب... أجل، لقد سلّم هذا المفتاح الذهبي إلى محمد المصطفى ﷺ لأنه كان أليق الناس به، والله تعالى دائما يسلم الأمانة لمن هو أهل لها؛ لذا، سلم مفتاح القلوب التي أعطاها أمانة للناس إلى من هو أكثر أهلية له من بين كل الناس وكل البشر... إلى محمد ﷺ. أجل، لقد أرسله الله رحمة للعالمين، فقام ﷺ بتقييم هذه الرحمة بشكل متوازان جدا، لأن التوازن شيء مهم في موضوع الرحمة.

١- الإفراط والتفريط في الرحمة

هناك إفراط وتفريط في مسألة الرحمة كما في المسائل الأخرى. ويمكن مشاهدة أفضل مثل على سوء استعمال الرحمة في فكر وتصرفات الماسونيين، فهم مع كونهم يتحدثون بمبالغة عن الحب وعن الإنسانية نراهم لا يستطيعون إقامة أي علاقة حميمة مع أي شخص متدين، بل لو كان في مقدروهم أن يقتلوا كل شخص متدين ومسلم لفعلوا. فالحب الذي يتحدثون عنه مقتصر عليهم وعلى من يفكر مثلهم، وهذا الحب في الحقيقة ليس الحب الخالص الذي نعرفه نحن، بل هو حب قائم على المنافع وعلى المصالح بينما كانت رحمة سيد المرسلين رحمة متوازنة شاملة لم تشمل الناس فقط بل شملت الوجود باجمعه.

يستطيع المؤمنون الاستفادة من الرحمة التي كان يمثلها النبي ﷺ، ذلك لأنه ﴿...بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨). ويستطيع الكافرون والمنافقون أيضا -إلى جانب المؤمنين - الاستفادة من هذه الرحمة كذلك. حتى أن لجبريل حصة من هذه الرحمة.[1]

---

[1] الشفاء للقاضي عياض، ١/١٧.

وانظروا وتأملوا مدى شمولية وسعة هذه الرحمة بحيث أن الشيطان نفسه بعدما شاهد هذه الرحمة انبعث فيه بعض الأمل فيها.[١] الرحمة التي يمثلها غير مقتصرة على أناس معينين ولا على جماعات معينة ولم يقم أبدًا باستغلال هذه الرحمة كما فعل البعض.

٢- خدعة "الإنسانية (Humanizm)"

في أيامنا الحالية تيارات اتخذت من فكرة "الإنسانية" ستارًا لخداع الإنسان. وأنا أتساءل: ما الفرق بين هذا التصرف وبين تصرف العقارب والثعابين التي تقترب من الإنسان لتلدغه..؟ إن الحب الذي كان الرسول ﷺ يمثله لم يكن من هذا النوع أبدًا ويجب ألا يخلط به. أجل، إن مفهوم الحب في الإسلام حب متوازن يضم في إطاره الدنيا والآخرة كما هو شأنه في الأمور الأخرى كذلك. لقد احتضن محمد ﷺ برسالته الإنسانية كلها بل الوجود كله بالحب، غير أن حبه الواسع وشفقته الشاملة لم تبق في إطار الكلام أو في بطون الكتب كما فعل الآخرون، بل سرعان ما انعكست في الحياة العملية وبكل معانيها العميقة وأبعادها الشاملة. علمًا بأنه ما من فكر من أفكاره ﷺ أو عمل من أعماله إلا وأخذ طريقه إلى التطبيق العملي، ذلك لأنه كان رجل فكر وحركة وعمل.

إن الرحمة الواسعة لرسول الله ﷺ التي ضمت الوجود كله بإخلاص وجدت طريقها إلى التطبيق. لأنها كانت معنى منبعثًا بكل تجرد وإخلاص من قلب الوجود كله، فمثلا نراه يعبر عن شفقته على الحيوان بمثالين حيين: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أن امرأة بغيًّا رأت كلبًا في يوم حارٍ يُطِيف ببئرٍ، قد أَدْلَعَ لسانَه من العطَش، فنزعَتْ له بِمُوقِها فغُفِر لها.»[٢]

ثم يروي ﷺ حادثة مقابلة لذلك: «عُذِّبتْ امرأةٌ في هرّة سجنتْها حتى ماتت فدخلت فيها النارَ، لا هي أطعمتْها ولا سقتْها إذ حبستْها، ولا هي تركتْها تأكل من خَشَاش الأرض.»[٣]

لقد جاء رسول الله ليبلغ رسالة الرحمة هذه، فقد كان المنهلَ العذب المورود، فمن جاءه وجد الرحمة عنده، ومن شرب ماء الحياة من يده فقد حصل ووصل إلى الخلود المعنوي. فيا ليت الذين سيقفون أمام حوض الكوثر بقدَر ولطف من الله تعالى يعلمون قدره وفضله ﷺ حق العلم. ولكي لا يبقى ما قلناه مفهومًا مجردًا فإنني أود تقديم أمثلة ملموسة، غير أنني أود قبل هذا لفت انتباهكم إلى ما يأتي:

---

[١] مجمع الزوائد للهيثمي، ٢١٦/١٠؛ كنز العمال للهندي، ٢٤٤/٤.

[٢] البخاري، الأنبياء ٥٤؛ مسلم، السلام ١٥٤.

[٣] البخاري، المساقاة، ٩؛ مسلم، السلام ١٥١؛ الدارمي، الرقاق ٩٣؛ المسند للإمام أحمد، ٥٠٧/٢.

٣- كان ذروة في كل شيء

هناك أناس يتقدمون الصفوف في بعض المسائل، ولكنا نجدهم في أواخر الصفوف في مسائل ومجالات أخرى.

فمثلا نرى القائد الموفق في ساحات القتال وفي فنون الحرب مهما بلغ في مهارته هذه فإنه لا يكاد يبلغ درجة راع بسيط في ساحات أخرى في الشفقة ورقة العاطفة والفهم، بل لكونه معتادًا على القتل فلن يكون إنسانًا رحيمًا في معظم الأحوال. ذلك لأن عواطفه وأحاسيسه قد فقدت حساسيتها ورقتها من كثرة ما اقترف من أعمال القتل فلا يشعر بأدنى عاطفة وهو يقوم بقتل إنسان. وقد يكون هناك سياسي ناجح في ميدان السياسة، ولكنك قد تراه مبتعدًا عن الصدق بنسبة نجاحه هذا وقد لا يحترم حقوق الناس. أي أن ابتعاده عن الصدق وعن المروءة بنسبة نجاحه في ميدان السياسة يكون أمرًا واردًا. وهذا يعني أن ارتفاعًا في ميدان مّا قد يستتبعه هبوط في ميدان آخر.

كما تستطيع مشاهدة كيف أن الإنسان الذي افتتن بتيار الوضعية فأصبح يجري وراء إجراء التجارب على كل شيء.. وكيف أن الحياة الروحية والقلبية لمثل هذا الرجل لا تتجاوز خط الصفر. بل هناك أشخاص وصلوا بعقولهم إلى "قمة إفرست". ولكنهم في حياتهم القلبية والروحية تراهم هابطين إلى مستوى "البحر الميت" "بحيرة لوط". فكم من شخصٍ انساب عقلُه إلى عينيه فلا يرى شيئًا سوى المادة، يقف ذاهلاً أحمق أمام منطق الوحي، قد عميت عيناه عن رؤية الحقيقة. من هذا الشرح القصير نعرف أن هناك أشخاصًا ينجحون في ساحات وميادين معينة ولكنهم يفشلون في ساحات وميادين أخرى أكثر أهمية. أي أن الصفات المتناقضة الموجودة في الإنسان تعمل إحداها ضد الأخرى. فعندما تتوسع صفة ما وتقوى يكون هذا ضد صفات أخرى، وعندما تنمو إحداها وتقوى تضمر الأخرى وتضعف.

ولكن هذا الأمر غير وارد بالنسبة لرسول الله ﷺ، فهو إلى جانب كونه محاربًا كان صاحب شفقة عظيمة.. كان سياسيًا ولكنه في الوقت نفسه صاحب مروءة كبيرة وقلب كبير.. وبينما كان يعطي أهمية للأمور الملموسة وللتجارب فإنه كان ذروة في حياة الروح وفي حياة القلب. ويمكن العثور على أمثلة كثيرة بهذا الصدد في معركة أُحد. ففي تلك المعركة استشهد عمه حمزة ﷺ الذي كان يراه شقيق نفسه. لم يُستشهد فقط بل مزق جسده

تمزيقًا.[١] كما مزق جسد ابن عمته عبد الله بن جحش تمزيقًا.[٢] وشج رأسه المبارك، وكسرت أسنانه وغطى الدم جسده الشريف؛[٣] وبينما كثّف أعداؤه الهجوم عليه جاهدين للوصول إليه لقتله كان هذا الإنسان العظيم فوق كل عظمة فاتحًا يديه يبتهل إلى الله تعالى قائلاً: «اللّٰهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.».[٤] فما أعظم وما أروع هذه الشفقة من شخص يحاول أعداؤه قتله فلا يدعو عليهم... بل يبتهل لله تعالى أن يغفر لهم.

حتى فتحِ مكة لم يبق في يد أعدائه أيُّ وسيلة للإيذاء لم يجربوها معه ولم يوجهوها نحوه... تأملوا معي كيف أنهم أخرجوه هو ومن يقف معه من بيوتهم إلى منطقة صحراوية معلنين عليهم المقاطعة، ومعلقين بنود هذه المقاطعة الشريرة على جدار الكعبة؛ وكانت تقضي بعدم التعامل معهم بيعًا وشراء وعدم التزوج من بناتهم أو تزويج بناتهم لهم... وقد دامت هذه المقاطعة ثلاث سنوات بحيث اضطروا إلى أكل العشب والجذور وأوراق الأشجار، حتى هلك منهم الأطفال والشيوخ من الجوع دون أن تهتز منهم شعرة، أو تتحرك عندهم عاطفة رحمة.. ولم يكتفوا بهذا بل اضطروهم لترك بيوتهم وأوطانهم والهجرة إلى أماكن أخرى بعيدة.. ولم يدعوهم في راحة هناك فبدسائسهم المختلفة سلبوا منهم طعم الراحة والاطمئنان.. وفي معارك بدر وأُحد والخندق اشتبكوا معهم في معارك ضارية.. وحرموهم حتى من أبسط حقوقهم كزيارة الكعبة وأرجعوهم إلى ديارهم بعد إبرام معاهدة ذات شروط قاسية. ولكن الله تعالى أنعم عليهم ففتحوا مكة ودخلها رسول الله ﷺ على رأس جيش عظيم..

فكيف كانت معاملته لأهل مكة بعد كل هذا التاريخ المملوء عداوة وبغضا..؟ لقد قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطُلَقاء» ولولا أنني أخذت هذا الدرس منه لما كنت قد تصرفت هكذا لو كنت في موقعه، ولا أشك أنكم تشاطرونني رأيي هذا. ولكنه يدخل مكة على مركبه والدرع على صدره والمغفر على رأسه والسيف في يده والنبال على ظهره.. ولكنه مع كل مظاهر لباس الحرب هذه كان أنموذجاً للشفقة والرأفة.. سأل أهل مكة: «ما ترون أني فاعل بكم؟» فأجابوه: "خيرًا أخٌ كريمٌ وابن أخ كريم." فقال لهم ما قاله يوسف عليه السلام

---

[١] البخاري، المغازي ٢٣.

[٢] السيرة النبوية لابن هشام، ١٠٣/٣.

[٣] البخاري، المغازي ٢٤؛ مسلم، الجهاد ١٠٠، ١٠١.

[٤] البخاري، الأنبياء ٥٤؛ مسلم، الجهاد ١٠٤، ١٠٥.

لإخوته: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيكُمُ الْيَومَ يَغفِرِ اللهُ لَكُم وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف:٩٢).[١]

لم يقصر في حياته أبدًا من ناحية اتخاذ الحيطة. وليس هناك من استطاع مثله الجمع بقوة بين اتخاذ التدبير والتوكل. عندما خرج بأصحابه إلى بدر امتحنهم.. كان كل منهم كالطود الشامخ لا يخاف الوقوف وحده أمام جيش بكامله، وعندما قال له سعد بن معاذ -وفي رواية: سعد بن عبادة-: "يا رسول الله! والذي نفسي بيده لو أمرتَنا أن نخيضها البحار لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْكِ الغِمَاد لفعلنا ما تخلَّف منا أحد."[٢] فإنه كان يعطي أنموذجا لهؤلاء.. ثم ما أكثر المعاني التي يحملها قوله للرسول ﷺ "...فصِلْ حِبال من شئتَ واقطعْ حبال من شئت وعادِ من شئت وسالِمْ من شئت وخذ من أموالنا ما شئت."[٣]

كان المقاتلون متهيئين فكأن كل واحد منهم سعد بن معاذ، ومع ذلك لم يقصر رسول الله ﷺ في اتخاذ التدابير، بل كان يهيئ كل الوسائل والأمور الضرورية للحرب. وبعد هذا الدعاء الفعلي -لأن اتخاذ الوسائل دعاء فعلي- رفع يديه إلى السماء مبتهلاً إلى الله من كل قلبه ضارعًا وملتجئًا إليه... واندمج في دعائه بحيث كان رداؤه يسقط دون أن يشعر بذلك ولم يتحمل أبو بكر الذي كان يراقب هذا المنظر، فكان يعيد عليه رداءه ويقول: "يا نبيّ الله! كفاك مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك."[٤]

فمثل هذا المستوى الرفيع من التوكل على رب العالمين بعد اتخاذ كل هذه التدابير صفة تميز بها ذلك الإنسان... إنسان الذروة ﷺ، وتفرد بها.

٤- الرحمة العالمية

لقد ذكرت في بداية هذا الموضوع أن رسول الله ﷺ كان مثال الرحمة التي استفاد منها الكل، المؤمن والكافر والمنافق. يستفيد المؤمن من رسول الله ﷺ لأنه يقول بأنه أقرب للمؤمنين من أنفسهم. صحيح أن المفسرين يقولون إن الرسول ﷺ يجب أن يكون أعز وأحب إلى المؤمنين من أنفسهم استنادًا إلى الآية الكريمة: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِم﴾ (الأحزاب:٦). ولكن الحقيقة أن المعنيين متقاربان من بعضهما، فنحن نحب رسول الله ﷺ أكثر من أنفسنا، والرسول ﷺ يحب من يحمل له هذه العاطفة بالحب نفسه، ذلك لأنه رجل مروءة كبير.

---

[١] السيرة النبوية لابن هشام، ٥٥/٤؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٤٤/٤.

[٢] البداية والنهاية لابن كثير، ٣٢١/٣، ٣٢٢؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٢٦٦/٢.

[٣] البداية والنهاية لابن كثير، ٣٢٢/٣.

[٤] مسلم، الجهاد ٥٨؛ الترمذي، تفسير سورة (٨) ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٣٢/١؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٢٧٩/٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٣٢/٣.

هذا حب عقلي ومنطقي، ومع أن لهذا الحب جانبه العاطفي إلا أن بُعد المعرفة وعمق المنطق يشكلان الجانب الأساسي فيه. ولو تم بحث هذا الموضوع وتسليط الأضواء عليه، تجذر هذا الحب عند الإنسان وقوي إلى درجة أن يسير وراء ذكره كما سار "قيس" وراء ليلاه، وكلما ذكر اسمه أحس كأن دخانًا يخرج من أنفه، ويعد حياته التي انقضت دون رؤيته كأنها حياة منفى وهجر. أجل، إن رسول الله ﷺ أقرب إلينا من أنفسنا، كيف لا ونحن نرى الكثير من الشرور والآثام من أنفسنا، بينما لم نر منه سوى الكرم والرحمة والخير والشفقة والمروءة، فهو يمثل الرحمة الإلهية، لذا فلا شك أنه أقرب إلينا من أنفسنا.

وعندما يقول الرسول ﷺ بأنه أقرب إلى المؤمنين من أنفسهم فقد صدق، فالله تعالى يقول ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (الأحزاب:٦)، ويقول الرسول ﷺ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي وعليه ديْن فعليّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لورثته.»[١] وبداية هذا الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل الميت عليه الدين، فيسأل: «هل ترك لدينه من قضاء؟» فإن حدث أنه ترك وفاء صلّى عليه، وإلا قال: «صلّوا على صاحبكم.» فلما فتح الله عليه الفتوح، قال: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي وعليه دين فعليّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لورثته.»[٢] وكون الرسول ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم في الدنيا والآخرة يعد رحمة، وناحية الرحمة هذه مستمرة إلى الأبد.

كان رحمة للمنافقين أيضًا. فبسبب هذه الرحمة الواسعة لم ير المنافقون العذاب في الحياة الدنيا، فقد حضروا إلى المسجد واختلطوا بالمسلمين واستفادوا من كل الحقوق التي تمتع بها المسلمون. ولم يقم رسول الله ﷺ بفضحهم وإفشاء أسرار نفاقهم أبدًا مع أنه كان يعرف دخائل نفوسهم ونفاقهم، حتى إنه أخبر حُذيفة ﷺ بذلك.[٣] لذا، كان عمر بن الخطاب ﷺ يراقب حُذيفة، فإن رآه لا يصلي على جنازة لم يصلها هو كذلك.[٤]

ومع ذلك فلم يهتك الإسلام سرهم، فبقوا بين المؤمنين، وانقلب كفرهم المطلق إلى ريبة وشك على الأقل، فلم يحرموا من لذائذ الدنيا، لأن الإنسان الذي يعتقد أنه سيفنى ويذهب إلى العدم لا يمكن أن يهنأ في عيشه، ولكن إن انقلب كفره إلى شك وشبهة فإنه يقول في نفسه: "ربما توجد هناك حياة أخروية"، عند ذلك لن تكفهر حياته

---

[١] البخاري، الكفالة ٤؛ مسلم، الفرائض ١٤.

[٢] البخاري، الاستقراض ١١؛ مسلم، الفرائض ١٤؛ المسند للإمام أحمد، ٣١١/٣.

[٣] البخاري، فضائل أصحاب النبي ٢٠؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٤٦٨/١.

[٤] أسد الغابة لابن الأثير، ٤٦٨/١.

تمام الاكفهرار. ومن هذا المنطلق كان رسول الله ﷺ رحمة لهم بهذا المعنى.

كما استفاد الكفار من رحمة رسول الله ﷺ، لأن الله تعالى كان يهلك من قبل الأمم الكافرة بسبب كفرها وعصيانها هلاكًا جماعيًا، بينما رفع الله تعالى بعد بعثة نبينا هذا الهلاك الجماعي، فاستفاد الناس من خلاصهم من مثل هذا العذاب، فكان ذلك نعمة دنيوية بالنسبة للكفار. يخاطب الله تعالى نبيه في هذا الخصوص فيقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم وَأَنْتَ فِيهِم وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال:٣٣).

أجل، فمن أجل حرمة النبي ﷺ رفع الله تعالى العذاب والهلاك الجماعي. وبينما كان النبي عيسى عليه السلام يقول لله: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُم عِبَادُكَ﴾ (المائدة:١١٨) نرى أن الله تعالى يقول لنبيه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، فتأمل قدر النبي ﷺ ومنزلته عند الله، أي طالما أنت تعيش بينهم فلن يعذبهم الله، طالما أن ذكرك موجود، وتلهج به الألسنة، وطالما أن الناس يتبعون طريقك فلن يعذبهم الله ولن يهلكهم. وإحدى الجهات التي استفاد منها الكفار من رسول الله ﷺ هو أن الرسول ﷺ يقول: «إني لم أُبعث لعّانًا، وإنما بُعثت رحمة»،[١] أي إنني بعثت رحمة من قبل الله تعالى للناس أجمعين، ولم أبعث لكي أستمطر اللعنة والبلايا والمصائب على الناس. ولهذا تمنى رسول الله ﷺ اهتداء ألدّ أعداء الإسلام، وبذل كل جهوده ومساعيه لتحقيق هذا.

حتى جبريل عليه السلام قد استفاد من النور الذي جاء به الرسول ﷺ، فقد سأله رسول الله ﷺ يومًا وهو يشير إلى القرآن: «هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟» قال: نعم، كنت أخشى العاقبة، فأمنت لثناء الله عز وجل عليّ بقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير:٢٠-٢١)".[٢]

ويقول الرسول ﷺ في حديث آخر: «أنا محمد وأحمد والمقفّى[٣] وأنا الحاشر[٤] ونبي التوبة ونبي الرحمة.»[٥] وباب التوبة مفتوح حتى يوم القيامة؛ لأن رسول الله نبيُّ الرحمة والتوبة، ونبوته وحكمه ماض إلى يوم القيامة.

كان إذا رأى طفلاً أو صبياً يبكي جلس وبكى معه، إذ يشعر في وجدانه ألم الأم

---

[١] مسلم، البر ٨٧.

[٢] الشفاء للقاضي عياض، ١/١٧.

[٣] المقفّي: أي خاتم الأنبياء. (المترجم)

[٤] الحاشر: أي ليس بينه وبين الحشر نبي آخر في معنى، وفي معنى آخر أن الله سيحشر الناس أمامه يوم القيامة. (المترجم)

[٥] مسلم، الفضائل ١٢٦؛ المسند للإمام أحمد، ٤/٣٩٥.

وعذابها. ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة ﷺ نجد أنموذج هذه الرحمة وهذه الشفقة التي لهجت بها الألسن إذ يقول رسول الله ﷺ: «إني لأدخل الصلاة أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي فأخفف من شدة وَجْد أمه به.»[1]

كانت صلاة رسول الله ﷺ طويلة، ولاسيما النوافل منها، إذ كانت تتجاوز طاقة الصحابة، ولكنه عندما يقف للصلاة يريد إطالتها ويسمع بكاء طفل في أثنائها إذ به يخفف صلاته ويتَجوَّز فيها، ذلك لأن النساء كن يقفن للصلاة خلف رسول الله ﷺ أي يشتركن في أداء صلاة الجماعة خلفه، فخوفًا من أن تكون أم ذلك الطفل موجودة بين المصليات فإنه كان يخفف صلاته، ويسرع بها لكي يريح قلب تلك الأم. كان في كل مسألة أنموذجا للشفقة؛ فبكاء طفل كان يؤلمه، بل كان يبكيه. ولكن المهم هو أنه بكل شفقته الواسعة الباهرة، ورحمته كان متوازنا. فمثلاً رحمته الواسعة هذه لم تكن حائلة أمامه في تطبيق الحدود الشرعية مهما كان شكل هذه الحدود وكيفيتها.

جاءه أحد الصحابة وهو ماعز ﷺ قائلاً له: "طهِّرْني يا رسول الله." فأعرض عنه رسول الله ﷺ قائلاً له: «ويحك، اِرْجِعْ فاستغفر الله وتب إليه»، إلا أن ماعزًا كان يصر على التطهر ويطلبه. وعندما كرر طلبه للمرة الرابعة سأله الرسول ﷺ: «فيم أطهرك؟» فقال ماعز: من الزنا يا رسول الله. كان ماعز متزوجا، أي محصنا، وعقاب الزنا للمحصن هو القتل رجمًا. ولكي يبقى هذا الأمر منقوشًا في الأذهان حتى يوم القيامة فقد التفت إلى من حوله سائلاً: «أبه جنون؟» فأُخبر أنه ليس بمجنون. وفي رواية: ما نعلمه إلا وفيّ العقل، من صالحينا فيما نرى. فسأل رسول الله ﷺ: «أشَرب خمرًا؟» فقام رجل فاستنكهه، فلم يجد منه ريح خمر. فقال رسول الله ﷺ لماعز: «أزَنيت؟» فقال: نعم. فأمر برجمه، فسيق ماعز إلى المصلى لرجمه، فلما أصابته الحجارة أدبر يشتد، فلقيه رجل بيده لحي جمل فضربه فصرعه، فذُكر للنبي ﷺ فراره فقال: «فهلاَّ تركتموه.»

فكان الناس فيه فرقتين، فقائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئة، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز، إنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة. فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس، فسلّم ثم جلس فقال: «استغفروا لماعز بن مالك.» فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك. فقال رسول الله ﷺ: «لقد

---

[1] البخاري، الأذان ٦٥؛ مسلم، الصلاة ١٩٢.

تاب توبة لو قُسِّمت بين أمة لَوَسِعتهم.»[١] كان رسول الله ﷺ رجل موازنة، ولو فرضنا المستحيل وقلنا إن ماعزًا عاد للحياة، واقترف الذنب نفسه لكرر الرسول ﷺ العقاب نفسه.

كان لدى بني مقرّن خادمة، فلطمها أحدهم، فجاءت تشتكي إلى رسول الله ﷺ باكية، فاستدعى الرسول ﷺ مالكها قائلاً له: «أَعتِقوها»، فقالوا ليس لهم خادم غيرها. قال: «فليستخدموها، فاذا استغنوا عنها، فليخلّوا سبيلها.»[٢] أجل، فلو بقي إثم هذه اللطمة الظالمة ليوم الحساب لكانت اللطمات هناك أشد وأقسى، لذا كان العتق هو بديل هذه اللطمة لكي تكون ديتها يوم القيامة عن عذاب جهنم.[٣]

٥- الأطفال

أما شفقته على أطفاله فكان أمرًا مختلفًا تمامًا، فكثيرًا ما ذهب إلى الأسرة التي ترضع ابنه إبراهيم حيث يأخذه في حجره طويلاً ويقبله ويعطف عليه.[٤]

وعندما رأى الأقرع بن حابِس التميمي رسول الله ﷺ وهو يقبل الحسن والحسين ﷺ ويأخذهما في حضنه، قال: "إنّ لي عشرة من الولد، ما قبّلتُ منهم أحدًا"، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يَرْحم لا يُرحم.»[٥] وفي حديث آخر: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.»[٦] وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبّلون الصبيان؟ فما نقبّلهم. فقال النبي ﷺ: «أوَ أملك لك إن نزع الله من قلبك الرحمة.»[٧]

وكما كان رسول الله ﷺ يعطف على أقربائه، فإنه كان يعطف كذلك على أصدقائه القريبين منه والبعيدين عنه. وفي رواية لابن عمر ﷺ قال: اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتاه النبي ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص وعبد الله بن مسعود ﷺ، فلما دخل عليه فوجده في غاشية أهله قال: «قد قضى؟» قالوا: لا يا رسول الله. فبكى النبي ﷺ، فلما رأى القوم بكاء النبي ﷺ بكوا. فقال: «ألا تسمعون، إن الله لا يعذِّب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا»، وأشار إلى لسانه.[٨]

---

[١] مسلم، الحدود ١٧-٢٣؛ البخاري، الحدود ٢٨؛ المسند للإمام أحمد، ٢٣٨/١، ٤٥٠/٢.
[٢] مسلم، الأيمان ٣١، ٣٣؛ أبو داود، الأدب ١٢٣؛ المسند للإمام أحمد، ٤٤٧/٣.
[٣] مسلم، الأيمان ٣٠.
[٤] المسند للإمام أحمد، ١١٢/٣.
[٥] البخاري، الأدب ١٨؛ مسلم، الفضائل ٦٥.
[٦] الترمذي، البر ١٦؛ أبو داود، الأدب ٥٨.
[٧] البخاري، الأدب ١٨؛ مسلم، الفضائل ٦٤؛ ابن ماجه، الأدب ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٥٦/٦.
[٨] البخاري، الجنائز ٤٥؛ مسلم، الجنائز ١٢.

أجل، إن الله لا يعذب بسبب دمع العين، على العكس من ذلك فهناك دموع يرفع الله بسببها العذاب؛ ففي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرُس في سبيل الله.»[١] إحدى العينين عين الرهبان، والأخرى عين الفرسان؛ ففي الليل كانوا رهبانًا يذرفون الدموع في عبادتهم وسجودهم، وفي النهار كانوا فرسانًا يصولون ويجولون ويهاجمون الأعداء كالأسود. دموع هؤلاء كانت دموع المؤمنين الحقيقيين، والصحابة كانوا من هذا النوع من المؤمنين: رهبان في الليل فرسان في النهار.

عندما أُخبر رسول الله ﷺ بوفاة عثمان بن مظعون أسرع ﷺ إلى بيته، فقد كان عثمان ﷺ من الصحابة القريبين إلى قلبه، فبكى النبي ﷺ عليه بكاء كثيرًا، ولكن عندما قالت زوجة عثمان ﷺ: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال النبي ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟ والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي.»[٢]

أجل، لقد كان رجل توازن؛ فشفقته وبكاؤه لم يكن يمنعه من تصحيح خطأ. فالدموع التي سكبها على أحد أصحابه الأحبة ما كانت لتحول بينه وبين تصحيح كلام مبالغ فيه أو خاطئ، فالوفاء شيء والحق شيء آخر. كان يزور شهداء أحد كل أسبوع[٣] ولكنه لم يكن يقول: لقد طِرتم إلى الجنة. ولا يقولن أحد منا: إن لم يذهب هؤلاء إلى الجنة فمن غيرهم..!؟ نعم هذا هو الأمر.

ثم ألا تكفي الرتبة والمقام الذي أعطاه لكافل اليتيم دليلاً على شفقته الواسعة؟ انظروا ماذا يقول ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»، ثم أشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئًا.[٤] فكأن رسول الله ﷺ يريد أن يقول بأنه لن يدخل أحد بيني وبين كافل اليتيم في الجنة.

٦- الشفقة على الحيوانات أيضًا

كانت شفقته تشمل الحيوانات أيضًا، فقد مر سابقًا كيف أن امرأة دخلت النار بسبب هرة، وكيف أن بغيًا دخلت الجنة بسبب سقيها الماء لكلب ظامئ. وهنا أنقل لكم حادثة أخرى بهذا الخصوص كخاتمة للموضوع:

---

[١] الترمذي، فضائل الجهاد ١٢.

[٢] البخاري، الجنائز ٣.

[٣] البخاري، المغازي ٢٧؛ مسلم، الفضائل ٣٠؛ النسائي، الجنائز ١٠٣؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٠٥/٢؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣٠٠/٤.

[٤] البخاري، الطلاق ٢٥، الأدب ٢٤؛ مسلم، الزهد ٤٢.

عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرَة معها فرخان، فأخذْنا فرخيْها، فجاءت الحُمَّرَة فجعلت تَفْرُش، فجاء النبي ﷺ فقال: «من فَجَع هذه بولدها؟ رُدُّوا ولدها إليها»[١] أجل، لقد كانت شفقته تحتضن الحيوانات أيضًا. ثم ألا نتذكر أن الله تعالى عاتب أحد أنبياءه السابقين بسبب بيت نمل؟ إذ قام هذا النبي عن قصد أم عن دون قصد بحرق بيت نمل، فما لبث أن جاءه تأنيب من الله تعالى.[٢] ونبينا الذي نقل لنا هذه الحادثة وأمثالها من الحوادث الأخرى أيمكن أن يتصرف إلا هكذا؟ وظهر فيما بعد في أمته أشخاص عندما يُمدحون يقال عنهم: إنه لا يؤذي حتى نملة. هؤلاء الأشخاص كانوا يعلقون أجراسًا صغيرة على أقدامهم لكي تبتعد الحشرات عن طريقهم عند سماعها لصوت الأجراس، ولا تنسحق تحت الأقدام. يا إلهي! ما هذه الشفقة العميقة والشاملة! وما هذا الأنموذج الرائع للرحمة! أجل، حتى النمل لم تخرج عن دائرة رحمته ﷺ ولم تستثن منها. وهل يكون في مقدور إنسان يتحرج عن سحق نملة القيام بظلم الناس الآخرين؟ كلا، لا يستطيع هذا عن علم وعن قصد أبدًا.

عندما كان ﷺ في "مِنًى" خرجت حية من بين بعض الصخور، فأسرع بعض الصحابة لقتلها، غير أنها استطاعت أن تنسلّ بين شقوق الصخور، فقال رسول الله ﷺ الذي كان يراقب المنظر عن بُعد: «وقاها الله شرّكم، ووقاكم شرّها.»[٣]

فالرسول كان يرى فيما هم به الصحابة شرًّا، والمقتول وإن كان حية إلا أن لها مكانًا أيضًا في نظام هذه الدنيا، فأي قتل غير ضروري سيضر بالتوازن البيئي، ويؤدي إلى أضرار لا يمكن تلافيها. والحقيقة أن إعلان الحرب على الحشرات باسم الزراعة والمحافظة عليها، يعد جريمة بالنسبة للتوازن البيئي، والغريب أن هذه الجرائم ترتكب اليوم باسم العلم.

يروي ابن عباس ﷺ: أن رجلاً أضجع شاة يريد أن يذبحها، وهو يحد شفرته، فقال النبي ﷺ: «هلاَّ حددتَ شفرتك قبل أن تضجعها.»[٤] كان هذا بمثابة عتاب لذلك الشخص.

يروي عبد الله بن جعفر ﷺ: جاء بعير يشتد حتى سجد لرسول الله ﷺ، ثم قام بين يديه، فذرفت عيناه، فقال رسول الله ﷺ: «من صاحب هذا البعير؟» قالوا: فلان. فقال «ادعوه، فأتوا به»، فقال له رسول الله ﷺ «يشكوك.» فقال: يا رسول الله، هذا البعير كنا نسنو عليه منذ

---

[١] أبو داود، الأدب ١٦٤، الجهاد ١١٢؛ المسند للإمام أحمد، ٤٠٤/١.

[٢] البخاري، الجهاد ١٥٣؛ مسلم، السلام ١٤٨.

[٣] البخاري، جزاء الصيد ٧؛ مسلم، السلام ١٣٧؛ النسائي، الحج ١١٤؛ المسند للإمام أحمد، ٣٨٥/١

[٤] المستدرك للحاكم، ٢٣١/٤، ٢٣٣.

عشرين سنة، ثم أردنا نحره. فقال رسول الله ﷺ: «شكا ذلك، بئسما جازيتموه، استعملتموه عشرين سنة حتى إذا أرق عظمه، ورق جلده أردتم نحره بعينه.» قال: بل هو لك يا رسول الله. فأمر به رسول الله ﷺ فوجه نحو الظهر، أي الإبل.[١]

لقد كانت رحمة رسول الله ﷺ وشفقته تتجاوز بكثير الرحمة المدعاة من قبل ما يطلق عليهم اليوم اسم "أنصار الإنسانية"، ولكنه استطاع أن يصون رحمته الواسعة هذه من الإفراط ومن التفريط أيضًا، وذلك بفضل فطنته الكبيرة.

أجل، لم يتهاون أبدًا مع أي شر أو إثم تحت اسم المرونة أو الرحمة أو المسامحة، ولم يدع له فرصة لوضع بنيانه ومد جذوره، ذلك لأنه كان يعرف جيدًا أن أي مسامحة لمجرم أثيم ذي روح متوحش تعني الاعتداء على حقوق آلاف من الأبرياء. ونعترف بكل أسى بأن أيامنا الحالية مملوءة بمثل هذه الاعتداءات أكثر من أي عهد مضى. فقد رأينا بأم أعيننا إلى أي حال جرّنا هذا التسامح مع الفوضويين ومع أعداء عقائدنا وتراثنا وماضينا، ولا نزال نرى ذلك ونشاهده، وقلوبنا تتفطر ألمًا. فإن لم تستخدم الرحمة والشفقة بشكل متوازن أدى ذلك إلى نتائج وخيمة جدًّا في مستوى الفرد، وفي مستوى المجتمع ككل، بينما لا يمكن الإشارة إلى أي مثال على مثل هذا الاستعمال السلبي للرحمة عند رسول الله ﷺ.

أجل، لقد كان رسول الله ﷺ يحب الناس إلى درجة يكاد يتلف فيها نفسه، والقرآن الكريم يشير إلى هذا الأمر في بعض المواضع إذ يقول: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ[٢] عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف:٦). هذا علمًا بأنه عندما اقتربت منه نسائم النبوة كان معتكفًا في مغارة، وجاءه الوحي لأول مرة هناك. إذن، فقد كان يحب الناس، ونذر نفسه من أجل هذه الغاية.

والحقيقة أن مفهوم الجهاد عنده ﷺ كان ينبع من منبع الرحمة. أجل، قد يلحق بعض الضرر الدنيوي بالناس بسبب جهادهم، ولكن ما يربحونه في حياتهم الأبدية كبير إلى درجة أن هذا الضرر يعد صفرًا بجانبه؛ فرسول الله ﷺ كان يفتح بحد سيفه الطرق المؤدية إلى الجنة. وهذا بُعد آخر من أبعاد الرحمة التي بعث بها للعالمين.

---

[١] مجمع الزوائد للهيثمي، ٩/٩؛ الخصائص الكبرى للسيوطي ٩٥/٢.

[٢] باخع نفسك: قاتلها ومهلكها من شدة الغم. (المترجم)

د. الحلم

حاولنا في الفصل السابق بيان كيف أن رسول الله ﷺ كان أصفى مرآة وأجلاها للرحمانية وللرحيمية الإلهية، وكيف أنه استطاع بفطنته الرائعة إقامة التوازن في مجال الرحمانية والرحيمية. ومع أنه يصعب تقصي كل هذه الحقائق وإعطائها حقها إلا أننا حاولنا إعطاء صورة واضحة وإن كانت مختصرة. وهنا سنحاول تقديم جانب آخر، ومتعلق أيضًا بموضوع رحمته، وهو حلمه ﷺ وخلقه اللين.

الحلم مفتاح ذهبي آخر أُهدي للنبي ﷺ، ففتح به قلوبًا كثيرة وتربع فيها. فلولا حلمه هذا لصدمت الخشونة الكثير من النفوس التي لا تملك مرونة، وجعلتهم في صفوف أعداء الإسلام، ولابتعدوا عن النبي ﷺ. ولكن حلمه ﷺ حال دون هذا، فأقبل الناس أفواجًا إلى الإسلام. أجل، لقد كان الحلم من أهم الصفات التي جهزه الله تعالى بها، والتي تعكس رحمة الله تعالى عليه، والقرآن الكريم يشرح هذا الأمر فيقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

كما نفهم من القرآن، فإن الحلم ينبع من رحمة الله تعالى، ولو كان رسول الله ﷺ فظًّا غليظ القلب - إذ لم يكن كذلك- لانفض الناس من حوله. فكانت من رحمة الله الواسعة أن جعله ليّن الطبع إلى درجة أن الأيدي التي امتدت بالأذى إليه، والتي توقعت رد فعل عنيف لم تجد عنده سوى اللين والعطف، فكيف بالذين أحبوه من أعماق قلوبهم!

نزلت هذه الآية بعد معركة أُحد، فمع أن رسول الله ﷺ شرح لهم تكتيك الحرب بتفاصيلها إلا أن البعض منهم لم يفهموا الأوامر المعطاة لهم حق الفهم، فتركوا مواضعهم قبل صدور الأوامر إليهم بذلك، فكانت النتيجة الهزيمة المؤقتة للمسلمين. صحيح أنها لم تكن هزيمة تامة، ولكنها لم تكن نصراً تامّاً أيضاً. هزت شائعة مقتل رسول الله ﷺ قلوب كثير من المسلمين وأفزعتهم، فنرى مثلاً الصحابي أنس بن النضر يقول للمسلمين: "فما تصنعون بالحياة بعده، قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ."[1] فذهبوا وقاتلوا حتى استشهدوا.. كان هذا هو طريقهم.. الموت في السبيل الذي مات فيه الرسول الله الكريم ﷺ.

لو انصاع المسلمون لأوامر النبي ﷺ لكان من المحتمل أن يصلوا إلى النصر، ولكن

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٨٨/٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٦/٤.

إظهارهم أقل انحراف عن أمره غيَّر النتيجة كل هذا التغيير المفجع. والآن لنقف هنا لنتأمل قليلاً: لو كان على رأس هذه الجماعة زعيم آخر غير رسول الله ﷺ فكيف كان سيتصرف أمام هؤلاء الناس الذين لم يطيعوا الأوامر الصادرة إليهم وخالفوها؟ أكان يتصرف معهم وكأن شيئًا لم يحدث؟ ثم إنه كان زعميهم ماديًّا وروحيًّا. أجل، فكل خير أو فضيلة عرفوها عن طريقه، وشاهدوا مئات المرات كيف أنه يصدر القرار الصائب في كل مسألة.. مثل هذا الشخص أصدر إليهم تعليمات مشددة ألا يبرح أحدهم مكانه، وهم الآن يقاسون عاقبة مخالفتهم له. فبجانب كل هؤلاء الشهداء لم يسلَم تقريبًا أحد من الجروح، حتى رسول الله ﷺ فقد شج رأسه، وكسرت سنه، وسال الدم على جسده. أجل، لو كان قائد آخر غير رسول الله ﷺ في مكانه آنذاك أما بدت على وجهه علامات الغضب؟ ألم يكن في الأقل يعاتبهم قائلاً لهم: ألم أقل لكم أن تعملوا كذا وكذا؟ ليذكرهم بأخطائهم؟ ولكن الآية الكريمة السابقة تخاطبه، وتضع سدًّا أمام ورود هذه الخواطر في نفسه.

كانت هذه اللحظة لحظة دقيقة جدًّا وحساسة، فأي كلام أو إشارة أو غمز كان سيؤثر لا محالة تأثيرًا مضاعفًا، لذا كان من الضروري تجنب أي تصرف يمكن أن يجرح قلوبهم أو يخدش نفوسهم، فنزلت الآية الكريمة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران:١٥٩). هذا علمًا بأن الصحابة لم يغيروا سلوكهم أبدًا مع رسول الله ﷺ، إذ بقوا ملتفين حوله يبذلون له مهجهم.

كان خلقه القرآن،[1] والقرآن هو الذي يعلمنا هذا الخلق الإلهي؛ ألا نرى أن الله تعالى يستمر في إعطاء الرزق للناس حتى وإن عصوه وتمردوا عليه؟ فمع أن بعضهم يفترون عليه فيشركون به أو يدعون له ابنًا أو زوجة فإن الله تعالى يسبغ عليهم بفضل رحمانيته أفضالاً عديدة. فالشمس تشرق كل يوم بنورها ودفئها، والسحب تهب لنجدتهم بأمطارها، والنباتات بأنواعها مستمرة في إعطاء ثمراتها اللذيذة، ومع ذلك فهؤلاء يقابلون كل هذه النعم والأفضال بجحود لا يسعه العقل. أجل، إن الناس لا يحمدون ولا يشكرون جزءً من مليون جزء من نعم الله التي أسبغها عليهم، ولكن الله تعالى لا يعاقبهم حالاً لأنه حليم، فلا يغير الله تعالى سنته من جراء هذه الأخطاء البشرية، لذا فإنه يستمر في الإنعام وفي الرزق. والرسول ﷺ متخلق بخلق الله، إذ يعكس هنا صفات الله تعالى وأسماءه الحسنى، فالقرآن الكريم يقول عنه إنه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٧)، ليس هو فقط، بل جده إبراهيم

[1] مسلم، صلاة المسافرين، ١٣٩؛ ابن ماجه، الأحكام ١٤؛ المسند للإمام أحمد، ٩١/٦.

عليه السلام كذلك، فعندما يصفه القرآن الكريم يقول عنه: ﴿إِنَّ إِبرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (هود:٧٥).

كانت صفة الحلم في إبراهيم عليه السلام ذروة لا يمكن بلوغها، ذلك لأنه كان يعطف حتى على الذين رموه في النار وحاولوا حرقه، وكان يخشى أن يصيبهم بلاء من الله تعالى، لذا كان يسهر الليل حتى الصباح وهو يتأوه ويتألم لهم.. وكان منيبًا متوجهًا إلى الله تعالى في كل آنٍ مقبلاً عليه، واقفًا أمام باب الله بقلب خاشع وعين دامعة. كان رسول الله ﷺ يشبه نفسه دائمًا بإبراهيم عليه السلام.[1] أجل، لقد كان مثل جده إبراهيم في حلمه ولينه.

والحلم أساس مهم بالنسبة لدعاة الحق، إذ على الإنسان أن يقابل بالحلم حتى الأناس الذين ملئوا حقدًا وكرهًا. فحُسين بن منصور الحلاّج غَفر لمن قطع يديه ورجليه. أما داعي القرن العشرين[2] الذي نفي من بلده وكأنه مجرم شرير، والذي قضى حياته متنقلاً من سجن إلى سجن، فإنه لم يدعُ على من ظلمه، بل دعا الله أن يغفر لهم، وأن ينقذ إيمانهم، فضرب لهم مثلاً رائعًا في الحلم، فيا ليت الذين أتوا من بعده استطاعوا فهم سحر حلمه هذا.

لنرجع إلى النبي إبراهيم عليه السلام مرة أخرى: رماه خصومه في النار، ولكن الله تعالى أمر النار أن تكون بردًا وسلامًا عليه: ﴿قُلنَا يَا نَارُ كُونِي بَردًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء:٦٩)، أي لا تكوني عليه حارة ولا باردة، بل سلامًا. ذلك لأن إبراهيم كان قد زين نفسه هكذا أمام العالم.. لا يغضب عليهم ولا يقابلهم ببرود.. كان إنسان "سلام"، لذا لقي المعاملة نفسها من قبل الله تعالى. وما كان في الإمكان تصور أن يقوم إبراهيم عليه السلام بالتخلق بخلق الله تعالى ثم يلقى معاملة أخرى منه تعالى. كلا، فالسلام اسم الله تعالى، لذا، أصبحت النار "سلاما" على إبراهيم.

خلق الحلم هذا الذي بدأه إبراهيم عليه السلام أخذه النبي ﷺ وصعد به إلى الذروة. فعندما ملك كل القدرات التي تمكنه من القضاء على أعدائه السابقين قضاء مبرما لم يبتعد عن المروءة. ولو أراد معاقبة المذنبين فهل كان هناك من يقف في وجهه؟ كلا، على العكس من ذلك، فربما كان هناك المئات من أمثال عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الذين كانوا دائمًا على أهبة الاستعداد لإزالة أي شيء يمكن إيذاء النبي ﷺ أو يكدر خاطره، وحاضرين على الدوام للإطاحة برأس من يقوم بذلك، ويطلبون منه الإذن لذلك، ولكنه ﷺ كان على الدوام يهدئ أصحابه ويدعوهم إلى الحلم.

---

[1] البخاري، الأنبياء ٢٤؛ مسلم، الإيمان ٢٧٢.

[2] المقصود هو بديع الزمان سعيد النورسي مؤلف كليات رسائل النور. (المترجم)

في أحد الأيام افتروا على شرف زوجته وهو واثق من عفتها وشرفها. ولو أومأ إيماءة صغيرة إلى أي مسلم لطارت رؤوس عديدة من المنافقين، وما كان هناك مسلم يتأخر عن تنفيذ أمره. ومضت أيام وهو يبتلع كلامًا كالأشواك ولا يقول شيئًا.. ويشعر بعذاب كبير في قلبه ولكنه يصمت.. دام هذا حتى نزول الآيات التي برأت ساحة أمنا عائشة ﵂ مع أن المسلمين كانوا ينتظرون خروج أي كلمة من بين شفتيه.

كان هناك أحيانًا من يقف أمامه ويتصرف بخشونة معه، بل يسمعه كلمات جارحة. ولو أشار إشارة خفيفة بأصبعه لارتفعت مئات السيوف لقطع رأس ذلك الشخص، ولكنه كان قد عقد عزمه على مقابلة أمثال هذه التصرفات باللين وبالحلم على الدوام. كان يبذل عناية في عدم إخافة أي شخص أو ترويعه، كيف لا وهو القائل: «لا يحل لمسلم أن يروِّع مسلماً»،[1] وهو القائل: «لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح.»[2] فكيف يمكن أن يقوم مثل هذا الشخص بالاعتداء على حياة أي شخص ظلماً ودون وجه حق.

كان إنسان ذوق رقيق، لذا كان يتأثر جدًّا من التصرفات الخشنة أو الحمقاء التي يبديها البعض أمامه، ولكنه كان يقابلها ببحر حلمه، ويذيبها فيه، ويتصرف تجاهها باللين. هكذا كان اتساع عالمه الحسي والعاطفي، حتى أنه عند مرضه كان يقاسي أضعاف الآلام التي يقاسيها أي مريض آخر. فقد دخل عليه عبد الله بن مسعود وهو مريض، ومس يده فأحس وكأنها تشتعل، فقال: "يا رسول الله! إنك لتوعَكُ وَعْكًا شديدًا." فقال رسول الله ﷺ: «أجل، إني أُوعَكُ كما يوعك رجلان منكم.»[3] أجل، لقد كان النظام العصبي لرسول الله ﷺ حساسًا جدًا؛ فربما كان ألم شوكة يشاكها في أصبعه يعادل ألم سكين مغروز في جسد إنسان آخر، فقد تكون هذه الحساسية المعطاة له ضرورية في أداء رسالته. والأذى الذي يحسه مثل هذا الشخص الحساس أمام التصرفات الخشنة أو الحمقاء يكون أكثر من الأشخاص الاعتياديين. وأيّ شخص بهذه الحساسية يمكن أن يسبب مشاكل عديدة وعواصف كل يوم، غير أن الرسول ﷺ لم يعمل هكذا، فقد كان رجل حلم. هذا علما بأن حلمه كان متوازنًا جدا، فكفر أي كافر كان يؤذيه جدًّا، ويكاد أن يبكيه، لذا كان يحاول عمل كل ما في وسعه لتوصيل أحدهم إلى الهداية. ولكن عندما يكون الأمر متعلقًا بتنفيذ حد

---

[1] أبو داود، الأدب ٨٥؛ الترمذي، الفتن ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٣٦٢/٥.

[2] البخاري، الفتن ٧؛ مسلم، البر والصلة ١٢٦.

[3] البخاري، المرضى ٣، ١٣؛ مسلم، البر ٤٥؛ المسند للإمام أحمد، ٣٨١/١.

شرعي، فإنه لم يكن يتهاون فيه أبدًا ومهما كان ذلك الشخص المطلوب إقامة الحد عليه قريبًا إلى قلبه. هذا علمًا بان العقاب الذي كان يوقعه بسبب الجرائم أو الذنوب المقترفة لم تكن من بينها الذنوب المقترفة بحقه، إذ كان على الدوام يصفح عمن يعتدي عليه، وليس هناك ذنب أو تجاوز تم ارتكابه في حقه ثم لم يصفح ولم يعف عنه.

وفي الحياة الدينية نلاحظ الأمر نفسه؛ فقد كان يختار لنفسه أشق الأمور، ويختار لغيره أهونها، حتى نه كان يصلي السنن في بيته لكي لا يثقل على أمته ولكي لا يعطي انطباعًا بأن هذه الصلوات فرض من الفروض. ثم إنه ما من إنسان كان يتحمل طول صلاة النوافل التي كان يصليها.

وكان أحيانًا يواصل صومه، ففي هذه الأمور الصعبة التي لا يتحملها أحد غيره تراه وحده. هذا علما بأن الله تعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وأحد معاني هذا هو: أن الله تعالى أزال منذ البداية أيّ استعداد له لاقتراف أي ذنب أو معصية. وهذا يذكرنا بالحديث المتعلق بالمعراج حيث يخبرنا بأنه مر من خلال إجراء عملية معنوية له[1] إذ يذكر قيام الملائكة بشق صدره وغسل جوفه، وهذا يعني على الأغلب تطهير نفسه، لذا لم ير صدور أي فعل يعد إثمًا أو معصية من قبل رسول الله ﷺ، ومع ذلك كان يستغفر أكثر من سبعين مرة كل يوم،[2] لقد كان إنسان تواضع ومراقبة ومحاسبة للنفس.

ولكونه يقترب في كل خطوة من الله تعالى لذا، كان يستغفره من الحالة السابقة ومن الوضع السابق المرجوح من زاوية الموضع الجديد الذي وصل إليه، أي أنه في كل يوم يذكر اليوم السابق ويستغفر. إن تحمُّل وصبر مثل هذا الإنسان -الخالي من الذنوب- على المكوث بين الناس يكفي للاستدلال على مدى حلمه الواسع، مع أنه كان يواجه تصرفات خالية من الاحترام ومن الذوق فيقابلها بالحلم.

يروي كل من مسلم والبخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ الحادثة التالية: بينما النبي ﷺ يقسم ذات يوم قسماً أقبل شخص يدعى ذو الخُوَيْصِرَة رجلٌ من بني تميم (يحتمل أن يكون هذا الشخص من عرق مُغولي، ذلك لأن كتب السيرة تصف لنا هذا الشخص بأنه كان غائر العينين ناتئ الجبين مستشرف الوجنتين مدوَّر الوجه كالدرع المضروب)، فخاطب رسول الله ﷺ بوقاحة قائلاً له: "اِعْدِلْ يا محمد!" لو خاطبَنا أحدٌ بهذا الخطاب لهزنا الغضب

---

[1] البخاري، التوحيد، ٣٧؛ مسلم، الإيمان ٢٦١؛ النسائي، الصلاة ٢.

[2] البخاري، الدعوات ٣؛ الترمذي، تفسير سورة (٤٧) ١؛ ابن ماجه، الأدب ٥٧؛ المسند للإمام أحمد، ٢٨٢/٢، ٣٤١.

حتى ولو كنا قد انحرفنا عن العدل فعلاً. ولكن هذا الكلام وُجِّه إلى نبي كانت وظيفته ومهمته هي إرساء العدالة في الدنيا. فقال عمر ﷺ الذي كان حاضراً هناك آنذاك: "دعني فأقتل هذا المنافق"، فلم يرض رسول الله ﷺ. وبعد أن هدّأ من خاطر عمر ﷺ ومَن حوله من الصحابة قال للرجل: «ويلك! ومن يَعدِل إذا لم أكن أعدل؟.»[١] وفي رواية أخرى: «لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل.»[٢] وفي رواية أخرى: «لقد خبتَ وخسرتَ إن لم أكن أعدل.»[٣] أي: بما أنني نبي فأنت مأمور باتباعي في كل شيء، فلو لم أكن رجل عدل - حاشا لله- إذن، فقد خبتَ وخسرتَ، ذلك لأنك لن تكون متبعًا آنذاك طريق الحق والعدل. ولم يأذن رسول الله ﷺ -كدأبه دائمًا- في قيام أحد بقتله، ذلك لأنه كان رجل حلم من أخمص قدميه إلى مفرق شعره.

غير أنه لم يهمل إخبار أمته أن أمثال هذا الشخص سيتسببون في فتنة كبيرة في المستقبل. أجل، كان رسول الله ﷺ يعلم بما أخبره به ربه بأن أمثال هذا الشخص سيقودون فتنة كبيرة ضد هذه الأمة. وهذا ما حدث، إذ تحقق ما قاله رسول الله ﷺ في وقت مبكر، ففي معركة النهروان في عهد علي بن أبي طالب ﷺ كان معظم الخوارج المقاتلين له من نوع هذا الإنسان.

لم يقل الرسول ﷺ شيئًا حتى لهذا الرجل الوقح.. ولو هز رأسه، أو بقي صامتًا أمام اقتراح عمر ﷺ لطار رأس هذا الشخص صاحب الوجه الصفيق، فالرسول ﷺ كان يتصرف كما يأمره الله تعالى ولا يتعرض للجاهلين، فالقرآن الكريم يقول له: ﴿وَأَعرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف:١٩٩)، أي دعهم وشأنهم، ولا تتعرض لهم، ولا يهمك أمرهم، فالجاهل يتصرف بجهل، وأنت لست بجاهل، إذن، فلن تقابلهم بنفس تصرفاتهم. أنت حليم ولين الجانب، وهذا هو سر فتحك لمغاليق القلوب والتربع بالمحبة على عروشها. وقد تحقق هذا فعلا، فبالحلم أسلم أناس لم يكن أحد يتصور إسلامهم، وفتحوا قلوبهم للنبي ﷺ.

يروي أنس بن مالك ﷺ أن امرأة يهودية بعد فتح خيبر أهدت النبي ﷺ شاة مسمومة، فتناول أحد الصحابة -بشر بن البراء- لقمة منها فمات، أي أن هذه اليهودية وضعت سمًّا قويًّا في الشاة، وهي تنوي تسميم النبي ﷺ؛ ولما كان جانب المعجزة في هذه الحادثة ليس موضوعنا فإننا لا نبحثه هنا، وعندما تناول النبي ﷺ لقمة واحدة أخبرته الشاة أنها مسمومة،

---

[١] البخاري، الأدب ٩٥؛ المناقب ٢٥؛ مسلم، الزكاة ١٤٢؛ المسند للإمام أحمد، ٥٦/٣.

[٢] مسلم، الزكاة ١٤٨؛ المسند للإمام أحمد، ٣/ ٣٥٤.

[٣] البخاري، المناقب ٢٥؛ مسلم، الزكاة ١٤٢.

فأمر النبي ﷺ برفع الشاة، وإحضار المرأة التي اعترفت بجريمتها، وقالت أنها فعلت ذلك لقتل النبي ﷺ. وتقول الروايات بأنها عندما سُئلت: لم فعلت ذلك؟ قالت للنبي ﷺ: أردت أن أعلم إن كنت نبيًا فسيطلعك الله عليه، وإن كنت كاذبًا أريح الناس منك. وأراد الصحابة قتلها فورًا إلا أن رسول الله ﷺ عفا عنها عن نفسه، ولم يقل شيئًا عن بِشْر بن البراء؛ هناك روايتان عن مصير هذه المرأة، رواية تقول: إن وارثي بشر قتلوها قصاصا، والرواية الثانية: إنها اهتدت وأسلمت، لذا سامحها أهل القتيل، وكان إسلامها سبب نجاتها.[1]

ما نريد الوقوف عليه هنا هو حلم رسول الله ﷺ، إذ عفى عن هذه المرأة اليهودية التي أرادت قتله، فما أجمل الوصول إلى مثل هذه القمة في الحلم. أجل، إن صفة الحلم التي بدأها إبراهيم عليه السلام بصيغتها الكاملة وصلت إلى الذروة عند سلطان الأنبياء.

يروي أبو داود والنسائي عن أبي هريرة: كنا نقعد مع رسول الله ﷺ في المسجد، فإذا قام قمنا، فقام يومًا وقمنا معه حتى لمّا بلغ وسط المسجد أدركه رجل فجبذ بردائه من ورائه - وكان رداؤه خشنا- فحمَّر رقبته، فقال: يا محمد، احمل لي على بعيري هذين، فإنك لا تحمل من مالك ولا من مال أبيك.

ما هذه الوقاحة؟ وما سوء الأدب هذا؟ بدأت هذه الوقاحة بخطاب النبي ﷺ باسمه المجرد، واستمرت في سائر الكلمات. فلما سمعنا قول الأعرابي أقبلنا إليه سراعًا، فالتفتَ إلينا رسول الله ﷺ فقال: «عزمت على من سمع كلامي أن لا يبرح مقامه حتى آذن له.» فقال رسول الله ﷺ لرجل من القوم: «يا فلان! احمِلْ له على بعير شعيرًا وعلى بعير تمرًا»، ثم قال رسول الله ﷺ «انصرفوا على بركة الله.»[2]

تأملوا كيف أن رجلاً يعامل النبي ﷺ هذه المعاملة الخشنة بعد أن شهد مجلسه، واستمع إلى حديثه الذي يرقق القلوب، فأي قلب أصم كان يحمله، ذلك لأن مجلس النبي ﷺ لا يشبهه مجلس آخر.. لا مجلس ولي من الأولياء، ولا مجلس مرشد من المرشدين الكبار، وليس بإمكان كلماتنا القاصرة تصوير جو ذلك المجلس، ولكن الحقيقة التي يعلمها الكل هي أن النبي ﷺ كان يستطيع بقلبه الذي كان مرآة عاكسة للتجليات الإلهية، وبنفحة واحدة الارتفاع بمستمعيه إلى الذروة، كانت قابلية الانصباغ والتحول في مجلسه فوق كل تصوير، فمن حضر مجلسه مرة خرج منه وكأنه أصبح ملاكاً طاهراً صافي القلب.من أهم الأسرار

---

[1] البخاري، الهبة ٢٨؛ أبو داود، الدية ٦؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٢٣٧/٤.

[2] أبو داود، الأدب ١؛ النسائي، القسامة ٢٤.

الكامنة وراء عدم وصول أي ولي من الأولياء إلى رتبة الصحابة هي هذه القابلية للانصباغ وللتحول. يقول أحد أعلام هذا العصر:

"لقد خطر على قلبي ذات يوم سؤال وهو: لِمَ لا يبلغ أشخاص أمثال محيي الدين بن عربي مرتبة الصحابة الكرام؟ ثم لاحظتُ في أثناء قولي في سجودٍ في صلاة: "سبحان ربي الأعلى" أنّ شيئا من الحقائق الجليلة لمعاني هذه الكلمة الطيبة قد انكشف لي، لا أقول كلها بل أنكشف شيء منها. فقلت في قلبي ليتني أحظى بصلاة كاملة تنكشف لي من معانيها ما انكشف من معاني هذه الكلمة المباركة، فهي خير من عبادة سنة كاملة من النوافل. ثم أدركت عقب الصلاة أن تلك الخاطرة وتلك الحال كانت جوابًا على سؤالي، وإرشادًا إلى استحالة إدراك أحد من الناس درجة الصحابة الكرام في العبادة، ذلك أن التغيير الاجتماعي العظيم الذي أحدثه القرآن الكريم بأنواره الساطعة قد ميّز الأضداد بعضها عن البعض الآخر، فالشرور بجميع توابعها وظلماتها أصبحت في مجابهة الخير والكمالات مع جميع أنوارها ونتائجها. ففي هذه الحالة المحفزة لانطلاق نوازع الخير والشر من عقالها، تنبهت لدى أهل الخير نوازعه، فغدا كل ذكر وتسبيح وتحميد يفيد لديهم معانيه كاملة، ويعبر عنها تعبيرا نديًّا نضرًا. فارتشفتْ مشاعرهم المرهفة ولطائفهم الطاهرة بل حتى خيالهم وسرهم رحيق المعاني السامية العديدة لتلك الأذكار ارتشافا صافيا يقظا حسب أذواقها الرقيقة. وبناء على هذه الحكم، فإن الصحابة الكرام الذين كانوا يملكون مشاعر حساسة مرهفة، وحواس منتبهة ولطائف يقظة، عندما يذكرون تلك الكلمات المباركة الجامعة لأنوار الإيمان والتسبيح والتحميد يشعرون بجميع معانيها، ويأخذون حظهم منها بجميع لطائفهم الزكية."[1]

يجوز أن باب السماء قد انفتح لهذا الشخص الجليل، وأُلهِم بأن سجدته تلك كانت سجدة الصحابة. وخلاصة هذا الموضوع هي أن هذا الشخص الجليل القدر يقول بأنه مستعد لإعطاء كل عباداته مقابل ركعة من هذا النوع. هذا علمًا بأنني عندما رأيت صلاة أحد تلاميذه المقلدين له استحييت من صلاتي. إذن، فهذه هي درجة الصحابة ودرجة الصحبة النبوية... درجة الذروة... فالصلاة التي لا نستطيع الوصول إلى مستواهم فيها حتى في ركعة واحدة مثل هذه الصلاة كانت صلاتهم الدائمية والاعتيادية.

ذلك لأنهم كانوا يتلقون دروسهم من رسول الله ﷺ مباشرة. ثم إن جميع مسائل الدين كانت جديدة آنذاك وطرية؛ ففي يوم يشنف أذانهم صوت جديد هو صوت الأذان، فيعلوهم

---

[1] الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي ص٥٧٥-٥٧٦.

الوجد، وتثور عواطفهم. وفي يوم آخر هناك شيء آخر على المائدة الإلهية، وحكم آخر للدين يوضع أمامهم وكأنه الثمرة اليانعة لأول القطف، فيتسلل العشق الإلهي إلى قلوبهم، ويبقون في نشوته.

وعلى الرغم من كل شيء فقد بقيت هناك قلوب صماء لا تسمع ولا تعقل ولا تلين. وكان أصحاب هذه القلوب الميتة يتصرفون بخشونة وبصفاقة أمام رسول الله ﷺ. فكان النبي ﷺ يتسامح مع هؤلاء، ويتصرف معهم بالحلم وباللين، فلا يبقى هناك تصرف خشن لا يذوب في بحر حلمه. أجل، لقد كان يتصرف وهو يحسب حساب اليوم والغد وما بعد الغد ولو أظهر الشدة لانفضّ الناس من حوله كما يذكر القرآن. إذن، فحلمه كان من بين أسباب عدم انفضاض الناس من حوله، فلم يأت لاستعمال الشدة بين الناس، ولا لتشتيت المجتمع، بل جاء من أجل تأمين سعادة الدنيا والآخرة للناس أجمعين، فلم تكن الإنسانية لتحصل على حياتها الأبدية إلا بسلوك الطريق الذي أشار إليه. فقد كانت الأبدية ضمن منهاجه، وكان يخطط تصرفاته ضمن هذا المفهوم.

قام خالد بن الوليد بالتسبب في أضرار كبيرة للمسلمين في معركة أُحد، ولكن عندما حضر إلى الرسول ﷺ وأعلن إسلامه رأى معاملة كريمة جدًّا من قبله بحيث شعر في اليوم الثاني أنه أصبح قطعة وجزءً منه، إلى درجة أنه عندما لم يصحبوه إلى المعركة الأولى بعد إسلامه صعب عليه هذا الأمر جدًّا وبكى حتى الصباح، وهذا يوضح كيف أنه توحد مع الرسول ﷺ في وقت قصير جدًّا.

كان عمرو بن العاص وعكرمة ﷺ من الصحابة الذين آذوا النبي ﷺ قبل إسلامهم إيذاء كبيراً، ولكن حلم النبي ﷺ رقق قلوبهم وكسبهم للإسلام بحيث أصبحا من أشد الناس على الكفر وعلى الكافرين. ولولا أن الرسول ﷺ كان يخطط لكي يصلا إلى هذا المستوى الرفيع من الإيمان لما كان من المحتمل أن ينضم مثل هؤلاء إلى صفوف الصحابة.

الكل يعرف ابن هشام، فهو شقيق أبي جهل ووالد زوجة عكرمة. أسلم هذا الصحابي قبل وفاة الرسول ﷺ بقليل، كان قبل إسلامه في مقدمة صف الكفر، وأصبح بعد إسلامه في مقدمة صفوف المسلمين. وأخيرًا وفي معركة اليرموك استشهد بعد أن تقطعت أوصاله كلها تقريبًا، وتوجه إلى خالقه. وفي لحظاته الأخيرة عندما قرَّب حُذيفة العدوي الماء من فمه سمع صوتًا خافتًا بقربه.. كان هذا شخصًا آخر يطلب الماء، فأبعد ابن هشام الماء من فيه طالبًا إعطاءه لهذا الشخص... وتفصيل هذه الحادثة معلوم للجميع، فهذا الشخص عندما قرب الماء من فمه سمع صوتًا آخراً يطلب الماء، فيشير بإعطاء الماء إلي هذا، ولكن هذا الأخير يتوفى قبل وصول الماء

إليـه، وعندما يرجع للآخرين يراهم كلهم قـد توفوا دون أن يشـربوا قدحاً من الماء.[١]

الإيثار... الصفة النبوية المتميزة... الصفة التي انصبغ بها الصحابة الكرام مقتدين في ذلك برسـول الله ﷺ الـذي كـان يعـيش مـن أجـل إعطـاء الحيـاة الحقيقيـة للآخـرين، ويقـدم التضحيات التي لا تصدق. كان شخصًا مضحياً، وكـان أصـحابه أشخاصاً مضحين، والمثال السابق مثال حي على هذا.

يروي زيد بن سعنة اليهودي أنه باعه بيعًا إلى أجل، ثم جاءه قبل الأجل يتقاضاه ثمنه. فقال له الرسول ﷺ: «لم يحل الأجل»، فقال له زيد: إنكم لَمطل يا بني عبد المطلب. فهمّ به أصحاب النبي ﷺ، فنهاهم عنه، ولم يزده ذلك إلا حلماً، فقال زيد: "كل شيء منه قد عرفتُه من علامات النبوة، وبقيت واحدة، وهي أنه لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فأردت أن أعرفها، لأن في التوراة آية تقول: يسبق حلمُه جهلَه، ولا تزيده شدة الجهالة إلا حلماً." ثم أسلم.[٢]

إذن، فقد فتح رسول الله ﷺ قلب العالم اليهودي زيد بن سعنة بحلمه أيضًا، وأصبح سببًا في دخوله إلى الإسلام. أجل، كان رسول الله ﷺ حليمًا ولينًا إلى درجة لا يتحملها شخص آخر غيره. غير أن حلمه هذا كان متوازنا، فهو بينما كان يقابل كل إهانة لشخصه وكل تصرف طائش نحوه بالحلم نراه كالأسد الهصور عندما يمس الموضوع حقوق الآخرين، ولا ينفك حتى يأخذ الحق لصاحبه دون الْتفاتٍ إلى من هو الظالم ومن هو المظلوم فالأمر سيان عنده. أما إن كان الأمر متعلقًا بالتعدي على حرمة من حرمات الله فكان لا يعرف الراحة حتى يضع الحق في نصابه، وهذا دليل كونه رجل توازن. وقد يبدو هذا السلوك كقطبين متناقضين، إلا أن هذا التوازن كان من الخصائص النبوية للشخصية الممتازة لرسول الله ﷺ. ولكي يتوضح هذا الأمر نورد هنا بعض الأمثلة:

يروي مسلم والبخاري عن أبي مسعود الأنصاري قال رجل: يا رسول الله، لا أكاد أدرك الصلاة مما يطوِّل بنا فلان. فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشد غضباً من يومئذ فقال: «أيها الناس إنكم منفِّرون، فمن صلَّى بالناس فليخفف، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة.»[٣] وكان يراعي هذا الأمر ويطبقه على نفسه، فأحيانًا كان يطيل الصلاة، وأحيانًا يقصرها حسب وضع الجماعة.

---

[١] المستدرك للحاكم، ٢٤٢/٣.

[٢] الإصابة لابن حجر، ٥٦٦/١؛ المستدرك للحاكم، ٦٠٤/٣؛ الخصائص الكبرى للسيوطي، ٢٦/١؛ زاد المعاد لابن قيم الجوزية، ٥٩/١.

[٣] البخاري، العلم ٢٨، الأذان ٦١، الأدب ٧٥؛ مسلم، الصلاة ١٨٢.

كان رسول الله ﷺ يحب معاذ بن جبل كثيرا، إلا أنه عندما اشتكوا من تطويله لصلاة العشاء عندما يؤم الجماعة غضب غضبًا شديدًا وقال لهذا الصحابي الذي يحبه كثيرًا: «أفتّان أنت، أفتّان أنت، أفتّان أنت؟»[١]

كان أسامة بن زيد على رأس سرية، فأدرك رجلاً، فقال ذلك الرجلُ: صبأت. يريد أن يقول أنه قد أسلم، ولكن أسامة عدّ هذا نتيجة الخوف وليس عن إيمان حقيقي، فطعنه وقتله. وفي رواية أخرى أن هذا الشخص قال: لا إله إلا الله. وحسب رأي أسامة فإن كلام الرجل -حسب الرواية الأولى- لا يفيد كونه مسلما، أما حسب الرواية الثانية فقد اعتقد بأنه نطق بالشهادة تعوذاً من القتل. ولكن عندما سمع رسول الله ﷺ بالخبر أحضر أسامة واستنطقه، فاخبره أسامة بالخبر كله، فغضب رسول الله ﷺ: «أقال لا إله إلا الله وقتلته؟» فقال أسامة: يا رسول الله إنما قالها خوفًا من السلاح. قال: «أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟» قال أسامة: فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ.[٢] أي حتى تمنى أنه لو لم يسلم إلى ذلك اليوم لكي لا يسمع مثل هذا العتاب من رسول الله ﷺ مع أنه تربى في حجر الرسول ﷺ وكان الرسول ﷺ يحبه مثل حبه للحسن وللحسين ﷺ.

قال أبو ذر لبلال ﷺ ذات يوم: "يا ابن السوداء!" فشكاه بلال إلى الرسول ﷺ، فغضب رسول الله ﷺ وقال لأبي ذر: «يا أبا ذر! أعيَّرتَه بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية.»[٣]

وتخاصم أبو بكر مع عمر ﷺ، فقال عمر لأبي بكر شيئًا آذاه، فعاتبه الرسول ﷺ ولم يدع حق أبي بكر عند عمر ﷺ مع أن النبي ﷺ كان يحب عمر حبًّا جمًّا.[٤]

من هذه الأمثلة وعشرات أخرى يتبين لنا أن حلم الرسول ﷺ كان ذا أبعاد متوازنة. فكان يمثل في هذا الموضوع -وفي المواضيع الأخرى كذلك- الصراط المستقيم، إذ نراه يصفح عن كل الإساءات الموجهة إليه ويقابلها بالحلم، ولكنه لا يرضى أبدًا عن أي اعتداء على حقوق الآخرين مهما كان هذا الاعتداء قليلا، ومهما كان الشخص المعتدي. فإنه كان يواجهه لكي يضع الحق في نصابه.

---

[١] البخاري، الأذان٦٣، الأدب ٧٤؛ مسلم، الصلاة ١٧٩؛ النسائي، الافتتاح ٧١.

[٢] البخاري، المغازي ٥١، الديات ٢؛ مسلم، الإيمان ١٥٨؛ أبو داود، الجهاد ٩٥.

[٣] البخاري، الإيمان ٢٢؛ مسلم، الأيمان ٣٨-٤٠.

[٤] البخاري، تفسير سورة (٧) ٣.

هـ. كرمه وتواضعه

قبل أن ندخل إلى الموضوع نحب أن نقوم بتذكير بسيط، فقد أشرنا إلى "الفطنة الكبيرة"، ولنكرر هنا أن الفطنة تعني المنطق النبوي الذي له صفة الوحي والذي يعجز أمامه العقل ويفشل وينعقد تجاهه اللسان. قد يقف المنطق بأجمعه ويتعثر في مكان ما، وقد تصل العلوم إلى نقطة معينة، فلا تستطيع تجاوزها إلا أن الفطنة النبوية والمنطق النبوي -حسب التعريف السابق- تحلق فوق الذرى التي تبدو مستحيلة البلوغ، وهذا الأمر دليل آخر على نبوته.

ونحن نحاول أن نستخرج دليل نبوته في كل صفة من صفاته، فعندما نرى صبره لا يسعنا سوى التصديق بأنه رسول الله. فعلى وجه الصبر يمكن مطالعة عبارة: محمد رسول الله. وأهل الإنصاف بأجمعهم يستطيعون قراءة هذه العبارة.. فالذي تحدَّى المهالك جميعها، وتصدَّى للمصائب بهذا الشكل لابد أن يكون رسول الله. وعندما ندقق سيرته من ناحية صفة رحمته تظهر أمامنا الحقيقة نفسها كالشمس في رابعة النهار. ذلك لأن الرسول ﷺ لم يكن يعرف حدودًا للرحمة، إذ كان محملاً بالرحمة أكثر من حمولة الغيوم بالمطر. هو باختصار رحمة للعالمين. ولم تقتصر رحمته على الإنسانية وحدها، بل ربما استفاد الكون كله من رحمته هذه، ولا يزال يستفيد وسيستفيد حتى قيام الساعة، وعندما ألقينا نظرة على رحمته رأينا فيها رسالته، فأحببنا أن نعرضها أمام الأنظار.

حاولنا أخيراً شرح حلمه، وذلك كبُعد من أبعاد رحمته، غير أن كل صفة من هذه الصفات تمثل بُعدًا من أبعاد فطنته. ويمكن فهم فطنته إن تم تناول كل بعد من هذه الأبعاد على حدة.

١- مقطع من الكرم

بُعد من أبعاد رحمة الرسول ﷺ -وبالتالي فطنته- هو كرمه. لنوضح هذا الأمر قليلاً: الكرم هو خصلة حب الخير والعطاء، وكان الكرم من الخصال المرغوبة لدى العرب، وإذا دققت الشعر الجاهلي رأيت العربي يفخر بما ينحره للضيوف من شاة أو بعير، وكانت القبائل والعشائر تتسابق في هذا. ومن المؤكد أن هذا الكرم كان يتم باسم الفخر وباسم الأنانية.

في هذا الجو الذي كان الكرم فيه مرغوبًا ووسيلة للفخر ظهر بينهم أكرم الكرماء. وعندما رأوا كرمه انعقدت ألسنتهم من الحيرة فكرم هذا الكريم كان لوجه الله فقط، ولو قام بتقديم الدنيا كلها هدية لأحدهم لما ذكر ذلك، ولما افتخر بكلمة واحدة، بل إنه لم يكن يرضى من الشعراء ذكر كرمه في أبياتهم، وكان يحول كلماتهم في الفخر إلى الله الذي هو أكرم الأكرمين.

كان مرآة نقية انعكس عليها اسم "الكريم" لله تعالى. كان في ذروة تمثيل خلافة الله تعالى في هذا الموضوع كما في المواضيع الأخرى، ولم يكن هناك على وجه الأرض شخص أكرم منه. كان محمد ﷺ طريقًا للكرم، وكان الكرم طريقًا للجنة. أما البخل الذي عبر عنه القرآن الكريم بـ"الشح" فكان طريقًا إلى جهنم. والذين رأوه -حتى ولو عن بعد- عرفوه من صفاته أنه هو.. فهو المرشد الأوحد للإنسانية إلى طريق الجنة، وهو صاحب الشفاعة العظمى للناس أمام أبواب الجنة، لذا يجب أن يحسب كل إنسان حسابه. ونحن نصفه بصفة من صفات الله تعالى فنقول عنه إنه أكرم الأكرمين، ذلك لأنه بز بكرمه كل المقاييس البشرية، وأصبح في الكرم خليفة ربه.

لقد استطاع بكرمه أن يدخل إلى قلوب استعصى الدخول إليها بصفاته الأخرى، فكأن رحمته تبخرت وصعدت إلى السماء كغيوم، ثم أمطرت على الكون كرما، فرقت القلوب القاسية، وهيأت الجو الملائم لكي تشق النباتات الصغيرة طريقها من التربة، أي فتح الأرواح بحلمه، ثم تربع فيها بكرمه، فإن لم تعرف هذين الجانبين معًا لم تدركه ولم تعرفه حق المعرفة.

لو أراد لكان أغنى إنسان في الدنيا، فمنذ بداية دعوته عرضت قريش عليه هذا مقابل التخلي عن دعوته.[1] وبعد ذلك كان كل ما يعطيه المسلمون في سبيل الله يمر من بين يديه إضافة إلي الهدايا التي كانت تصله من الحكام ومن الملوك، ولكنه لم يلتفت إلى هذا،ولم يدر بخلده هذا الأمر. لقد عد نفسه على الدوام مسافرًا في هذه الدنيا، وعاش ونصب عينيه أنه سيترك هذه الحياة، وأن الدنيا ليست سوى شجرة يستظل تحتها المسافر مدة قصيرة في أثناء سفره الطويل.

إذن، فعليه أن يشغل قلبه في هذا السفر الطويل بالأمور المهمة. ثم كان عليه أن يعلِّم الإنسانية الطريق الصحيح وبعد انقضاء الوقت المقدر له تحت هذه الشجرة عليه أن يستمر في طريق سفره.[2] أما الهدف فهدف علوي، فقد كان الوصول إلى الله تعالى غايته الأولى. ثم القيام بوظيفة إيصال الناس إلى الهدف نفسه كان قلبه ممتلئًا حماسة متقدة لتحقيق هذه الغاية. مثل هذا الشخص ماذا يعمل بالدنيا، وما أهمية الدنيا لديه؟! لا أهمية لها عنده طبعا، وهي لا تستحق أن يربط قلبه بها.

وبالنسبة لحياته الخاصة فقد اختار حياة الفقر، وهذا لا يعني أنه يريد أن يصبح الجميع

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ١/٢٨٥.

[2] البخاري، الرقاق ٣؛ الترمذي، الزهد ٤٤؛ المسند للإمام أحمد، ١/٣٩١.

فقراء، ولكنه لم يكن يرضى أن تغلب المعدة الناس جميعًا. ولم يلبث المسلمون أن أصبحوا بفضله من أغنى الأمم في وقت قصير حتى لم يعودوا يجدون بينهم من يقبل الزكاة أو الصدقة؛ وذلك نتيجة ارتفاع مستوى المعيشة عندهم. ولكن كان بينهم زهاد لم يكونوا يقبلون أية هدية مهما كانت جذابة إن كانوا يملكون قوت يومهم. كان هذا نوعًا من الإيثار وعلو الروح، ووَجْد هبة الحياة للآخرين، وترك لذائذ العيش. والذي لم يجرب هذه الأحاسيس، ولم يمتلئ بها لا يمكن أن يفهم هذا. قُدّم مرة قدح ماء بارد إلى أبي بكر على مائدة الإفطار، ولكنه ما أن رفعه إلى شفتيه حتى بكى، فسئل عن سبب بكائه، فقال: لقد أعطي رسول الله ﷺ مرة قدح ماء بارد، فشربه ثم بكى وقال: "هذا من النعيم الذي سنُسْأَل عنه: ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَومَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر:٨)، فذكرت ذلك، وبكيت."[١]

وكان أبو بكر قبل أن يشتغل بأمور المسلمين تاجرًا، وكان بالسُنح، فأقام هنالك بالسنح بعدما بويع له ستة أشهر يغدو على رجليه إلى المدينة، وربما ركب على فرس له، وعليه إزار ورداء ممشق. فيوافي المدينة فيصلي الصلوات بالناس، فإذا صلى العشاء رجع إلى أهله بالسنح. فكان إذا حضر صلى بالناس، وإذا لم يحضر صلى بهم عمر بن الخطاب. فكان أبو بكر يغدو كل يوم إلى السوق، فيبيع ويبتاع، وكانت له قطعة غنم تروح عليه، وربما خرج هو بنفسه فيها، وربما كُفيها فرُعيت له. وكان يحلب للحي أغنامهم، فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا تحلب لنا منائح دارنا، فسمعها أبو بكر فقال: بلى لعمري لأحلبنها لك، وإني لأرجو ألا يغيّرني ما دخلت فيه عن خُلق كنت عليه. فكان يحلب لهم. فمكث كذلك بالسنح ستة أشهر، ثم نزل إلى المدينة فأقام بها، ونظر في أمره، فقال: لا والله، ما يصلح أمور الناس والتجارة، وما يصلحهم إلا التفرغُ لهم والنظر في شأنهم، ولا بد لعيال مما يصلحهم. فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوما بيوم، ويحج ويعتمر. وكان الذي فرضوا له في كل سنة ستة آلاف درهم، فلما حضرته الوفاة قال: رُدّوا ما عندنا من مال المسلمين، فإني لا أصيب من هذا المال شيئا، وأرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمن بما أصبت من أموالهم، فدفع ذلك لعمر، ولقوحا وعبدًا وصيقلا وقطيفة ما تساوي خمسة دراهم، فقال عمر: لقد أتعب من بعده.[٢]

لقد تعلم أبو بكر ﷺ عيش الزهد هذا من الرسول ﷺ، ذلك لأنه علم صحابته

---

[١] حلية الأولياء لأبي نعيم، ١/٣٠.

[٢] تاريخ الأمم والملوك للطبري، ٤/٢٥٠-٢٥٢.

بالمثل الذي ضربه لهم فعليًا في حياته إمكانية العيش بمثل هذا الزهد.

لقد كان لرسول ﷺ خمس الغنائم، وذلك حسب أمر الله ﷻ، وكان يستطيع التصرف بها كيفما شاء. يقول عمر بن الخطاب ﷺ: دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير، فجلست فإذا عليه إزار، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثّر في جنبه، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، وقَرَظ في ناحية في الغرفة، وإذا إهاب معلَّق. فابتدرتْ عيناي، فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا ابن الخطاب؟» فقلت له: يا نبي الله ومالي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد أثر بجنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذلك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت نبي الله ﷺ وصفوته وهذه خزانتك. فقال الرسول ﷺ: «يا ابن الخطاب! ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟.»[١]

عندما قال الرسول ﷺ هذا القول لم يكن يقوله كشخص فقير مضطر لمثل هذه المعيشة لا يملك خيارًا آخر، فكما قلنا أعلاه فقد كان في إمكانه أن يكون أغنى رجل في العالم. ولكي تكون لدى القارئ فكرة موجزة عن الموضوع فإنا ندرج هنا ما غنمه المسلمون في معركة واحدة فقط هي معركة "حُنين": (٤٠٠٠٠) غنم، (٢٤٠٠٠) بعير، (٤٠٠٠) أوقية فضة (الأوقية هنا تعادل ٤ كغم تقريبا) و٦٠٠٠ أسير.[٢] علمًا بأن حصة الرسول ﷺ من هذه الغنائم هي الخمس.

فإذا أخذنا بنظر الاعتبار الغنائم في المعارك الأخرى وهدايا الملوك له علمنا أنه لم يكن هناك أي مانع أمام رسول الله ﷺ لكي يعيش حياة مرفهة جدًّا. ولكنه كان يعيش حياة الفقراء، وكان يوزع كل ما يأتيه على الناس، ذلك لأن الكرم تجسد فيه، وما كان بالإمكان أن يكون هناك شخص بمثل هذا الكرم إلا رسول الله. كان رسول الله ﷺ يمثل أنموذج الشخص المتوازن في مظهره الخارجي وعالمه الداخلي، فكما كان مظهره الخارجي مهيبًا وجميلاً يسحر القلوب والألباب كان عالمه الداخلي الغني يسحر قلوب الناس.

يقول أنس بن مالك ﷺ: "كان رسول الله ﷺ أحسن الناس"،[٣] أي أحسن الناس صورة وسيرة. ويصفه جابر بن سمرة ﷺ فيقول: "رأيت النبي ﷺ ليلة أضحيان -أي ليلة كان البدر فيها تامًّا- وعليه حلة حمراء، فكنت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو أزين في عيني من القمر."[٤]

---

[١] البخاري، تفسير سورة (٦٦) ٢؛ مسلم، الطلاق ٣١.

[٢] الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٥٢/١.

[٣] مسلم، الفضائل ٤٨ (عن أنس)؛ البخاري، المناقب ٢٣ (عن البراء).

[٤] كنز العمال للهندي، ١٦٨/٦.

ويقول أحد الشعراء على لسان أمنا عائشة رضي الله عنها بأن نساء مصر عندما رأين يوسف عليه السلام قطَّعن أيديهن، ولو رأين سيدي لضربن صدورهن بالسكاكين التي في أيديهن.

يقول الشاعر نديم: "مُلك العجم كله فداء لحجر من أحجار إسطنبول"، ولو فهم هذا الشاعر رسول الله ﷺ حق الفهم لقال: "الدنيا كلها فداء لشعرة من شعر الرسول ﷺ".. كان أحسن الناس وأجمل الناس. ويستمر أنس بن مالك رضي الله عنه في وصفه فيقول: "وكان أجود الناس."[١] يقول ابن عباس رضي الله عنه عن جود النبي ﷺ: "كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان"، ثم يصف جوده في رمضان، فيقول: "كان أجود بالخير من الريح المرسلة"،[٢] أي إنه كان يجود بآخر ما بقي في يده. وهذه حالة إرادية وروحية، فلم يكن يعيش لنفسه، بل عاش لغيره ولسعادة غيره طوال حياته، ولم يجد فرصة للتفكير في نفسه إذ كان أسعد ما يكون عندما يرى غيره سعيدًا، وكان أهل بيته وأقرباؤه يأتون في الصف الأخير من إيثاره، فإن كانت هناك غنيمة يجب توزيعها بدأ ببيوت شهداء بدر وأحد، وكان يعتذر عن إعطاء شيء لأهل بيته قبل إعطاء الناس كلهم.[٣]

ولقد كان أشجع الناس، لا يهاب أحدًا. أجل، فإلى جانب كل هذه الخصال الرفيعة فقد كان أشجع الناس، وأكثرهم جرأة. فلم يخش أحدًا غير الله، على العكس من ذلك، ففي الأوقات التي كان الناس يخافون فيها كان هو كالأسد الضرغام يتقدم نحو الخطر، ونحو أعدائه المتوحشين وحده.[٤] وسنعود لهذا الموضوع فيما بعد.

القلوب التي لم يفتحها حلم الرسول ﷺ والجوانب الأخرى الرفيعة من أخلاقه فتحها كرمه، وصفوان بن أمية مثال على هذا: ففي رواية أوردها مسلم في صحيحه عن ابن شهاب قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح، فتح مكة، ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين فاقتتلوا بِحُنين، فنصر الله دينه والمسلمين. وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مائة من النعم ثم مائة ثم مائة. قال ابن شهاب: حدثني سعيد بن المسيب أن صفوان قال: "والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأَبغَضُ الناس إليّ، فما برح يُعطيني حتى إنه لأحَبّ الناس إليّ."[٥]

---

[١] البخاري، الجهاد ٢٤؛ مسلم، الفضائل ٤٨.

[٢] البخاري، الصوم ٧؛ مسلم، الفضائل ٥٠.

[٣] البخاري، الدعوات ١١؛ أبو داود، الأدب ١٠٠؛ المسند للإمام أحمد، ١٣٦/١.

[٤] البخاري، الجهاد ٥٢؛ مسلم، الجهاد ٧٨، الفضائل ٤٨.

[٥] مسلم، الفضائل ٥٩؛ الإصابة لابن حجر، ١٨٧/٢؛ المسند للإمام أحمد، ٤٦٥/٦؛ كنز العمال للهندي، ٥٠٥/١٠؛ السيرة النبوية لابن هشام، ١٣٧/٤.

كان يعطي عندما يستعطى إن كان معه، وإلا وَعَدَ. وأحيانًا كان يعطي رداءه الوحيد لمن يسأله؛ جاءه مرة بدوي، وطلب منه شيئًا فأعطاه، ثم جاءه ثانية فأعطاه أيضا، ثم جاءه ثالثة فوعده إذ لم يكن معه شيء يعطيه، وقد حزن عمر بن الخطاب ﷺ لقيام هذا البدوي بمثل هذا الإلحاح المتكرر على رسول الله ﷺ فقال له: "سُئلتَ فأَعطيتَ ثم سُئلت فأَعطيت ثم سُئلت فوعدتَ"، ولكن الرسول ﷺ لم يهش لهذا القول، فقام عبد الله بن حُذافة السهمي، وقال: "أنفق يا رسول الله! ولا تخش من ذي العرش إقلالاً"، فسكت رسول الله ﷺ هنيهه، ثم قال: «بذلك أُمِرْتُ.»[1] وما أحسن ما قاله الفرزدق:

ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم

كان يقول "نعم" لكل سائليه، ولكن بشرط أن يكون في دائرة الشريعة. أجل، لم يكن له نظير في الجود وفي الكرم، كان كريمًا إلى درجة أن هذا الكرم لايمكن تعليله أو تفسيره إلا بالنبوة. ثم إذا كان الكرم طريقًا للقرب من الله تعالى فكيف لا يكون الرسول ﷺ كريما؟ علمًا بأنه كان أقرب إلى الله حتى من جبريل عليه السلام. أليس هو القائل: «السخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار.»[2]

إن بعض الكتب ترسم شجرة طوبى كشجرة جذورها في الهواء وأغصانها ممتدة إلى الأسفل، هل شجرة طوبى هكذا؟ لا أدري، ولكني موقن أن رسول الله ﷺ شجرة وارفة ممتدة من الجنة تظللنا. فما أسعد من استظل بهذه الشجرة واحتمى بها!

يقول الرسول ﷺ في هذا الخصوص: «يا أيها الناس! إن الله قد اختار لكم الإسلام دينًا، فأحسنوا صحبة الإسلام بالسخاء وحسن الخُلق.» الإسلام مع السخاء وحسن الأخلاق، فإن لم يكن عندك ما يؤهلك لقطع المراتب نحو الكمال، فإنك تستطيع الوصول إلى هذه المراتب بحسن الخلق، والسخاء والكرم ضمن نظام هذا الخلق. يقول الرسول ﷺ: «يا أيها الناس! إن الله قد اختار لكم الإسلام دينًا، فأحسنوا صحبة الإسلام بالسخاء وحسن الخلق، ألا إن السخاء شجرة من الجنة، وأغصانُها في الدنيا، فمن كان منكم سخيًّا لا يزال متعلقًا بغصن منها حتى يورده الله الجنة. ألا إن اللؤم شجرة في النار، وأغصانها في الدنيا، فمن كان منكم لئيماً لا يزال متعلقًا بغصن من أغصانها حتى يورده الله النار.»[3]

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٦٣/٦.

[2] الترمذي، البر ٤٠.

[3] كنز العمال للهندي، ٥٧١/٦.

وإذا كان البخل نوعًا من عدم التوازن ونوعًا من التفريط، فإن التبذير نوع من الإفراط، فكلاهما نوع من عدم التوازن. والفطنة النبوية تستعمل الكرم والسخاء من أجل إعلاء دين الله. فكما تسلل الرسول ﷺ إلى القلوب بخلقه اللين وبرحمته، فإنه استعمل ما أفاض الله عليه من النعم لفتح القلوب المغلقة والقاسية.

كانت أمنا خديجة رضي الله عنها أول مسلمة، ومعنى كلمة خديجة "المولودة مبكرا"، لقد ولدت قبل رسول الله ﷺ بخمسة عشر عامًا، واهتدت إلى الإسلام قبل الجميع. ومن ثم فقد كان هناك توافق بين الاسم والمسمى، وهذه المرأة التي كانت من أغنى الأغنياء في مكة أنفقت ثروتها كلها في سبيل الله وفي سبيل رسوله حتى أنها عندما توفيت لم يكن عندها ثمن الكفن. ولعل رسول الله ﷺ استدان ثمن كفنها، لقد كان هذا أنسب شكل وفاة لها.. فقد أنفقت آخر قرش لها في سبيل الله..[1] كانت أنموذجًا آخر لمن سلك الصراط المستقيم. وقد استعمل الرسول ﷺ كرمه هذا بفطنة كبيرة بحيث لم يذهب كرمه هذا هباء منثورًا، بل استفاد منه في زيادة قوة الإسلام.

٢- تواضعه

كان تواضعه بعدًا متلألئًا آخر من أبعاد فطنته، فكلما زادت شهرته، وأصبح معروفًا ومقبولاً من قبل الناس زاد تواضعه، فكأن تواضعه ولد معه، واستمر معه حتى وفاته، فهو صاحب القول المعروف: «من تواضع لله، رفعه الله»،[2] وهو صاحب التطبيق العملي لقوله هذا. لقد عد نفسه على الدوام فردًا من الأفراد، ولم يميز نفسه عن غيره. وكان يمثل في نفسه تمثيلاً جيدًا حكمة : "كن عند الناس فردًا من الناس."

أجل، إذ لا ينبغي على الإنسان أن يغترّ بمقامه أو بمنصبه فينسى نفسه؛ فكل الناس بشر، والمناصب لا تغير الناس، ولا تجعل منهم مخلوقات أخرى، فعلى الإنسان في كل حال من الأحوال ألا ينسى أنه فرد من الأفراد. إن كانت الديمقراطية أفضل نظام حسبما يراه البعض، فإن الإسلام وصل إليها قبل عدة عصور، ولكننا ضد إطلاق تعبير النظام الديمقراطي على النظام الإسلامي.

وإليكم مقاطع اجتماعية من النظام الإسلامي: علي بن أبي طالب ﷺ أمام القاضي شريح ليحاكم مع خصمه الذمي الذي شكاه، فأشار القاضي شريح لعلي ﷺ بالجلوس،

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ١٥٨/٣، ١٥٩؛ أعلام النساء لعمر رضا الكحالة ٣٢٦/١-٣٣١.

[2] المسند للإمام أحمد، ٧٦/٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٢٥/١٠؛ كنز العمال للهندي، ١١٣/٣.

فقطب علي بن أبي طالب ﷺ حاجبيه ولم يقبل ذلك، لأنه لم يرض أن يجلس وخصمه واقف، فهذا ليس من العدالة في رأيه. وتصوروا أن عليًّا ﷺ كان آنذاك خليفة المسلمين، أي رئيس الدولة.[١]

كان الرسول ﷺ رجل فطرة، ممتزجًا مع الحياة، فكثيراً ما كان الداخل إلى مجلسه لا يعرف النبي ﷺ من بين أصحابه إلا إذا استنتج ذلك من سلوك وتصرفات الصحابة، أو عندما كان النبي ﷺ يتحدث إليهم. وفي أثناء الهجرة عندما دخل النبي ﷺ وأبو بكر ﷺ المدينة هرع العديد ممن لم يروا النبي ولم يعرفوه، هرعوا ليقبلوا يدي أبي بكر ﷺ إذ ظنوا أنه هو النبي، ولكن ما إن أخذ أبو بكر ﷺ مروحة بيده ليروح عن رسول الله ﷺ حتى عرفوا أيهما النبي. ذلك لأن النبي ﷺ لم يكن يتصرف أي تصرف يميزه عن أبي بكر.[٢]

وكيفية دخوله ﷺ إلى مكة عند فتحها مشهورة ويعلمها الجميع، فقد كان منحنيًا على مركبه حتى يكاد السرج أن يلمس جبهته. بهذا التواضع دخل هذا النبي الكريم تلك البلدة الكريمة.[٣] وفي حديث ترويه أمنا عائشة رضي الله عنها وهي تصف الرسول ﷺ: "كان يكون في مهنة أهله -تعني في خدمة أهله- فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة"، وفي رواية أخرى: "كان بشراً من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه."[٤]

عندما كان يقوم بهذا كان الإسلام واسمه يترددان في أقطار عديدة. لقد نظم وقته جيدًا بحيث أنه كان يجد وقتًا لهذه الأعمال من بين الأعمال والمسؤوليات والمهام الكبيرة التي كان مكلفًا بها.. لقد كان ذروة في كل خصلة جيدة.

أ) كان بين الناس

التواضع هو علامة العظمة في العظماء، والتكبر هو علامة الصغار فيهم. ولما كان رسول الله ﷺ أعظم الناس، كان أكثرهم تواضعًا.

عند بناء مسجد المدينة بينما كان الجميع يكُدُّ ويعمل، كان هو أيضا يحمل معهم اللبن كفرد من أفرادهم، فعن أبي هريرة أنهم كانوا يحملون اللَّبِنَ لبناء المسجد ورسول الله ﷺ معهم، قال: فاستقبلتُ رسول الله ﷺ وهو عارِضٌ لبنةً على بطنه، فظننت أنها قد شُقَّتْ عليه.

---

[١] البداية والنهاية لابن كثير، ٥/٨.

[٢] السيرة النبوية لابن هشام، ١٣٧/٢.

[٣] مجمع الزوائد للهيثمي، ١٦٩/٦؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٤/ ٤٧، ٤٨.

[٤] الشمائل للترمذي ٢٨٣؛ المسند للإمام أحمد، ٢٥٦/٦.

قلت: ناوِلْنِيها يا رسول الله. قال: «خذ غيرها يا أبا هريرة، فإنه لا عيش إلا عيش الآخرة.»[١] وفي حفر الخندق كان كل واحد من الصحابة يربط حجرًا على بطنه، أما هو فحجرين.[٢] وعندما حضر رجل إلى مجلسه وقابله ارتجف من مهابته، فقال له الرسول ﷺ: «هَوِّنْ عليك، فإني لست بملِك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القَدِيد.»[٣] لقد كان أكثر الناس تواضعاً.

الذين يجلسون في المجالس، ويضعون رِجلاً على أخرى دليلا على التكبر والغرور.. هؤلاء أعدهم مرضى من الناحية النفسية، أما رسول الله ﷺ فكان يجلس مثل سائر الناس، ويتصرف مثلهم، ولكن ضمن أدب جم. كان جل نظره إلى الأرض، وكانت عظمته تبدو عندما يضع جبهته للسجود على الأرض، يقول الرسول ﷺ: «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله.»[٤]

التواضع وعدم التكبر جناحان يطيران بالإنسان إلى الأعالي. وبهذا التواضع الجم استطاع الرسول ﷺ أن يكون هاديًا أبديًا للإنسانية. فقد استطاع الناس أن يقابلوه، ويتكلموا معه بكل اطمئنان وراحة، ويبثوا إليه مشاكلهم، ويعرضوا عليه أسئلتهم، لأن سلوكه المتواضع كان ييسر لهم هذا.

يورد القاضي عياض أن امرأة كان في عقلها شيء جاءته، فقالت: إن لي إليك حاجة. قال ﷺ: «اِجلسي يا أم فلان، في أي طرق المدينة شئت أجلس إليك حتى أقضى حاجتك.» قال: فجلست فجلس النبي ﷺ إليها حتى فرغت من حاجتها.[٥]

ولم يكن قيامه بمثل هذه الأعمال يعد ذلاً ولا صغارًا، فقد كان أشجع الناس، ووقف أمام الكفر بكل شجاعة وجرأة. يقول عنه علي ابن أبي طالب ﷺ: "لقد رأيتُنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا."[٦] بل إن وجوده وحضوره كان ينشر الأمن والطمأنينة فيما حول أي أن تصرفاته البعيدة عن الغرور كانت تنبع من تواضعه.

---

[١] المسند للإمام أحمد، ٣٨١/٢؛ السيرة النبوية لابن هشام، ١٤١/٢.

[٢] الترمذي، الزهد ٣٩.

[٣] مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٠/٩؛ ابن ماجه، الأطعمة ٣٠.

[٤] كنز العمال للهندي، ١١٣/٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٢٥/١٠؛ المسند للإمام أحمد، ٧٦/٣.

[٥] الشفاء للقاضي عياض، ١٣١/١.

[٦] المسند للإمام أحمد، ٨٦/١.

بـــ) تصرفاته الفطرية

كما أن التواضع ليس ذلاً فإن الغرور والكبرياء ليس وقارًا. لقد كان ﷺ متوازنًا في التواضع كما في كل خلقه وتصرفاته حتى أن صفته هذه تسوقنا إلى شهادة أن محمدًا رسول الله.

عندما يتصرف القاضي في المحكمة بجدية فهذا وقار، ولكن إن تصرف بالأسلوب نفسه في البيت أمام أطفاله وأهله يكون هذا كبرياء، لأن على الإنسان أن يتصرف في البيت كأحد أفراد البيت. فهذا دستور إسلامي، وكان رسول الله ﷺ أفضل من طبقه أما من جاء بعده فقد امتثلوا له وقلدوه. كان الجميع يرونه أكبر من كل كبير، وأعظم من كل عظيم، ولكنه كان يقول: «لن ينجي أحدًا منكم عملُه» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة.»[1] أجل، لقد كان رجل فطرة إلى الدرجة التي استطاع فيها أن يقول مثل هذا القول، إذ يرى نفسه إنسانًا بين الناس، وفردًا بين الأفراد، ثم يضبط وينظم سلوكه وتصرفاته على هذا الأساس.

جاءه عمر بن الخطاب ﷺ يومًا يسأله الإذن للعمرة، إذ كانوا يسألونه الإذن لأداء العمرة، لأنهم كانوا أفرادًا ملتزمين بالنظام، يهرعون إلى رسول الله ﷺ في كل أمر من أمورهم، وفي كل مشكلة تعرض لهم. فمثلاً إن كان لأحدهم بنت في سن الزواج جاء إليه قائلاً: لي بنت بالغة أريد لها كفؤًا، وإن كان لأحدهم بستان يريد أن يجعله وقفًا لله تعالى عرض الأمر أولاً على الرسول ﷺ، ومن أراد الاعتكاف أو السفر راجعه واستأذن منه، فلا يرد طلب أحد. عندما جاءه عمر ﷺ يستأذنه لأداء العمرة قال له رسول الله كلامًا ظل عمر ﷺ يذكره حتى آخر حياته، إذ قال له ﷺ: «أي أُخَيّ أشركنا في دعائك ولا تَنْسَنا»، فسُرّ عمر ﷺ سرورًا كبي، وقال ما معناه "لو وهبت لي الدنيا ما سررت مثل سروري لكلامه هذا."[2]

ج) تواضعه وعبوديته

فتح تواضعه القلوب مرة أخرى. كان ﷺ يأخذ بيد أمته، ويرقى بها إلى مدارج الرقي والسمو. كان عُمَرُ قد ارتقى بطفرة واحدة إلى مدارج عليا، ولكن رسول الله ﷺ كان يرتقي بصحابته أكثر وأكثر، فاستطاع أن يحول أمة بدوية إلى أمة معلمة ومرشدة. وبينما كان يرقى بأمته إلى الذرى كان ارتقاؤه هو أكبر وأسمى، وكلما سما إلى الأعالى زاد تواضعه بالنسبة نفسها، أما نظرته إلى نفسه فقد امتلأت بإحساس وبعاطفة العبودية لله تعالى عبودية خالصة.

---

[1] البخاري، الرقاق ١٨، المرضى ١٩؛ مسلم، صفة القيامة ٧١-٧٦.

[2] الترمذي، الدعوات ١٠٩؛ أبو داود، الوتر ٢٣؛ ابن ماجه، المناسك ٥.

يروي أحمد بن حنبل عن أبي هريرة ﷺ قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل، قال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خُلق قبل الساعة. فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك، قال: أفملكًا نبيا يجعلك أو عبدًا رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد ﷺ. ثم ألا يأمره القرآن الكريم بالتواضع؟ ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ﴾ (الشعراء:٢١٥). فكان جواب النبي ﷺ للملَك: «بل عبدًا رسولاً.»[1] وعندما اختار العبودية جعل الله تعالى عبوديته هذه مدار فخر له، لذا تحدث القرآن عنه في كثير من الأحيان من زاوية صفة عبوديته هذه، وعندما يتشهد المسلمون يشهدون أنه عبد الله ورسوله، أي هو عبد الله ثم هو رسوله، فعبوديته تأتي قبل رسالته.

هناك أناس يكونون عبيدًا لغيرهم، ويضعون طوق العبودية في أعناقهم، أما محمد ﷺ فقد كان عبدًا لله أولاً وآخرًا، فلم يكن في أي عهد من عهود حياته عبدًا لأحد، ولم ينحن أمام أحد، فعبوديته لله وحده صفة أصيلة فيه. وكإشارة إلى مظاهر عبوديته ترتفع من فوق المآذن كل يوم خمس مرات أصوات الشهادة تعلن للعالم كله بأنه عبد لله ورسول له. هو عبد لله، فقد وصفه القرآن الكريم بهذا الوصف اذ يقول: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ (الجن:١٩). وسواء أكان هؤلاء الذين كادوا يكونون عليه لبدًا من الجن أم من مشركي قريش فإن المهم عندنا هو أنه جرى ذكره في القرآن بصفة "عبد الله."

وكذلك تطلق عليه صفة العبد عندما يتم شرح كيف أن القرآن كلام الله، وأن من كان عنده شك في هذا فليأت بسورة من مثله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِن لَمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٣-٢٤).

كذلك يصفه القرآن بصفة العبد في مناسبة صعد فيها النبي ﷺ إلى ذروة الذرى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ اٰيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء:١).

كانت حادثة المقاطعة ثم وفاة زوجته خديجة رضي الله عنها ووفاة عمه أبي طالب قد جعلته وحيدًا بين الناس لا حامي له، أي عندما انقطعت الأسباب، وزالت كل المساند الواحد منها تلو الآخر تجلت الرحمة الإلهية في برج الأحدية من قبل مسبب الأسباب.

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٢/٢٣١؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٩/١٨-١٩.

يقول مفكر العصر سعيد النورسي رحمه الله بأن نور التوحيد ظهر في برج الأحدية حيث دُعي رسول الله ﷺ كضيف كريم إلى السموات السبع ليرى ربه وخالقه ومالكه.

ليست غايتنا هنا شرح الإسراء والمعراج، لذا لن ندخل في هذا الموضوع، ولكننا نريد جلب أنظاركم إلى ناحية مهمة في هذا الموضوع وهو أن الله تعالى عندما خاطبه في صدد هذه المعجزة المهمة لم يخاطبه بأي اسم من أسمائه الواردة في القرآن أو الإنجيل أو التوراة، أي لم يخاطبه بـ محمد أو أحمد أو أحيد بل خاطبه بكلمة "عبده". فكأنه عندما قال: "إنني عبد الله" قال له الله تعالى: "ما دمت أصبحت عبدًا فإنني أجعل العبودية لي أرفع وأسنى درجة، لذا فأينما أحببت أن أوضح قيمتك ذكرت عبوديتك، وأجعل كل مسلم يشهد أنك عبد الله قبل أن تكون رسولاً له، وسترتج السموات والأرض بهذه الشهادة."

و. الخلاصة

الكتب التي ذكرت شمائل رسول الله ﷺ ذكرت كل شمائله بدءً من أوصاف بدنه ووصولاً إلى أخلاقه وإلى عالمه الروحي العميق. كان إنسانًا كاملاً في كل شيء، يقول عليّ بن أبي طالب ﷺ وهو يصفه: "كان رسول الله أجود الناس كَفًّا، وكان أشرح الناس صدرًا، وكان أصدق الناس لهجة، وكان ألينهم عريكة، وأكرمهم عشيرة. مَن رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه."[1]

ليس في الإمكان ذكر أحد أحبه الناس مثله... لا من قبله ولا من بعده... ولا عجب في هذا، فقد كان هو حبيب رب العالمين.

---

[1] الشمائل للترمذي، ٢٧٦-٢٧٨؛ الترمذي، المناقب ٨؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١/١٢١.

الفصل الخامس: العصمة

والعصمة أيضًا من صفات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهي حفظ الله تعالى لأنبيائه ورسله عن الوقوع في الذنوب والمعاصي صغيرها وكبيرها. وسنتناول هذا الموضوع إن شاء الله في القسم الخامس من هذا الكتاب تحت عنوان "عصمة الأنبياء عليهم السلام وعصمة نبينا ﷺ". والله وليّ التوفيق.